دولة فلسطين

دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة
محمد صلى الله عليه وسلم

إعداد: الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

الجزء الثاني عشر

القدس
1440هـ - 2019 م

هدية

من إصدارات
دار الإفتاء الفلسطينية

القدس
1440هـ - 2019 م

إعداد:

الشيخ محمد أحمد حسين/ المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

مراجعة

الشيخ إبراهيم خليل عوض الله/ نائب المفتي العام

منسق أعمال الفريق	أ. مصطفى أعرج
المونتاج وتصميم الغلاف	محمود طنينة
تدقيق لغوي	هالة عقل/ إيمان تايه
تدقيق شرعي	نجود بدران/ حذيفة غنيمات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فالهدي النبوي ثاني تشريع بعد كتاب الله عزوجل، ينهل منه المسلم علوم دينه ودنياه، ويسير على درب المصطفى، صلى الله عليه وسلم، ليتمثل سيرته العطرة في حياته كلها، فرسول الله، صلى الله عليه وسلم، صاحب أعظم شخصية في التاريخ، كان زوجًا وأبًا، ومربيا، وحاكمًا، وسياسيًا، وقائداً ومحارباً، وزاهدًا وقاضيًا. وكون دار الإفتاء الفلسطينية تتبري لنشر الوعي الديني بين أبناء المجتمع، فإنها تهدي لقرائها الأعزاء الجزء الثاني عشر من كتاب (الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم)، الذي يعرض بعضاً من هدي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وسيرته الطاهرة، بطريقة ميسرة، تمتاز ببساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة.

ويضم هذا الإصدار ما يزيد عن خمسين مقالاً، سبق نشرها في زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، ضمن صفحة القدس الدينية التي تنشر كل يوم جمعة في صحيفة القدس، وتوزعت هذه المقالات بين موضوعات عديدة، منها: عقيدة، وعبادات، وسيرة نبوية، وجهاد وأسرى، ومناهج وقيم.

وتأسياً بهدي الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، القائل: (لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، وصححه الألباني)، يسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير

من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل الطيب، من موظفي دار الإفتاء الفلسطينية وصحيفة القدس، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله عزوجل أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منهلاً للعلم والخير والهداية، إنه الموفق إلى سبيل الرشاد.

وأخيراً نقول: إن أصبنا في هذا الكتاب وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس: 1440هـ / 2019م

الفصل الأول

إيمان وعقيدة

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

.1	نهاه الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق/ الحلقة الأولى	7
.2	نهاه الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق/ الحلقة الثانية	12
.3	نهاه الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق/ الحلقة الثالثة والأخيرة	17
.4	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الأولى	22
.5	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الثانية	27
.6	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الثالثة	32
.7	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الرابعة	37
.8	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الخامسة	42
.9	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة السادسة والأخيرة	47
.10	لن تهلك أمته بسنة ولا قحط	52
.11	أخبر أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد أو وفاته/ الحلقة الأولى	55
.12	أخبر أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد أو وفاته/ الحلقة الثانية والأخيرة	58
.13	طمأنه ربه عز وجل إلى عطائه وإحسانه	61
.14	وَعْدُهُ بانتصار الإسلام حقٌ، ووعْدُ بلفور باطل ومشؤوم/ الحلقة الأولى	64
.15	وَعْدُهُ بانتصار الإسلام حقٌ، ووعْدُ بلفور باطل ومشؤوم/ الحلقة الثانية والأخيرة	68
.16	إسراؤه إلى المسجد الأقصى المبارك رسخ الارتباط العقائدي للمسلمين به	71
.17	يربط قلوب مسلمي العالم وعقيدتهم وعبادتهم وتاريخهم وتراثهم بالمسجد الأقصى المبارك/ الحلقة الأولى	76
.18	يربط قلوب مسلمي العالم وعقيدتهم وعبادتهم وتاريخهم وتراثهم بالمسجد الأقصى المبارك/ الحلقة الثانية والأخيرة	81

نهاه الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق

الحلقة الأولى

يخاطب الله جل في علاه رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، قائلاً:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[1]

في هذا الخطاب القرآني الكريم ينهى رب البرية سبحانه رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن على ما يلمسه من مسارعة بعض الناس في الكفر، على الرغم من أنهم يتظاهرون بالإيمان بألسنتهم، على خلاف ما تكن قلوبهم، فالآية الكريمة وضعت الحزن المحبط في دائرة النهي، من خلال قوله تعالى:{لا يَحْزُنكَ}، ويجيب الرازي عما قد يثار من تساؤل حول أن الحزن على كفر الكافر، ومعصية العاصي طاعة، فكيف نهى الله عن الطاعة، من وجهين:

الأول: أنه كان يفرط ويسرف في الحزن على كفر قومه، حتى كاد يؤدي ذلك إلى لحوق الضرر به، فنهاه الله تعالى عن الإسراف فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: {فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}. [2]

1- المائدة: 41

2- فاطر: 8

الثاني: أن المعنى لا يحزنوك بخوف أن يضروك، ويعينوا عليك، ألا ترى إلى قوله: {إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً} يعني أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، ولا يعود وبال ذلك على غيرهم.

فهم لن يضروا النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه شيئاً. [1]

ويقول الثعالبي: إن هذه الآية تسلية لنبيه، عليه الصلاة والسلام، وتقوية لنفسه بسبب ما كان يلقى من طوائف المنافقين واليهود، والمعنى قد وعدناك النصر والظهور عليهم، فلا يحزنك ما يقع منهم، ومعنى المسارعة في الكفر البدار إلى نصره، والسعي في كيد الإسلام، وإطفاء نوره.[2]

سبب نزول هذه الآية الكريمة:

جاء في التفسير الكبير ذكر الاختلاف في سبب نزول الآية المذكورة أعلاه، على وجوه:

الأول: أنها نزلت في كفار قريش، والله تعالى جعل رسوله، صلى الله عليه وسلم، آمنا من شرهم، والمعنى لا يحزنك من يسارع في الكفر، بأن يقصد جمع العساكر لمحاربتك، فإنهم بهذا الصنيع إنما يضرون أنفسهم، ولا يضرون الله، ولا بدَّ من حمل ذلك على أنهم لن يضروا النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه من المؤمنين شيئاً، وإذا حمل على ذلك، فلا بد من حمله على ضرر مخصوص؛ لأن من المشهور أنهم بعد ذلك ألحقوا أنواعاً من الضرر بالنبي، عليه الصلاة والسلام، والأولى أن يكون ذلك محمولاً على أن مقصودهم من جمع العساكر، إبطال هذا الدين، وإزالة هذه الشريعة، وهذا المقصود لا يحصل لهم، بل يضمحل أمرهم، وتزول شوكتهم، ويعظم أمرك، ويعلو شأنك.

الثاني: أنها نزلت في المنافقين، ومسارعتهم هي أنهم كانوا يخوفون المؤمنين، بسبب وقعة

1- التفسير الكبير، 9 /85.
2- تفسير الثعالبي، 1 /461.

أحد، ومحاولة إشعارهم ببعد انتصارهم، أو بسبب أنهم كانوا يقولون إن محمداً طالب ملك، فتارة يكون الأمر له، وتارة عليه، ولو كان رسولاً من عند الله ما غُلب، وهذا كان ينفر بعض الناس عن الإسلام، فكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يحزن بسببه، قال بعضهم: إن قوماً من الكفار أسلموا، ثم ارتدوا خوفاً من قريش، فوقع الغم في قلب الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث ظن أنهم بسبب تلك الردة يلحقون به مضرة، فبين الله أن ردتهم لا تؤثر في لحوق ضرر بك، قال القاضي: ويمكن أن يقوي هذا الوجه بأمور؛ الأول، أن المستمر على الكفر لا يوصف بأنه يسارع في الكفر، وإنما يوصف بذلك من يكفر بعد الإيمان.

الثاني: أن إرادته تعالى أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة، لا يليق إلا بمن قد آمن، فاستوجب ذلك.

الثالث: أن الحزن إنما يكون على فوات أمر مقصود، فلما قدر النبي، صلى الله عليه وسلم، الانتفاع بإيمانهم، ثم كفروا حزن صلى الله عليه وسلم، عند ذلك؛ لفوات التكثير بهم، فآمنه الله من ذلك، وعرفه أن وجود إيمانهم كعدمه في أن أحواله لا تتغير.

القول الرابع: أن المراد رؤساء اليهود، كعب بن الأشرف وأصحابه، الذين كتموا صفة محمد، صلى الله عليه وسلم، لمتاع الدنيا. قال القفال: ولا يبعد حمل الآية على جميع أصناف الكفار، بدليل قوله تعالى: {يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...} إلى قوله: {وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ}[1]، فدلت هذه الآية على أن حزنه كان حاصلاً من كل هؤلاء الكفار.[2]

وفي صحيح مسلم، عن الْبَرَاءِ بن عَازِبٍ، قال: (مُرَّ على النبي، صلى الله عليه وسلم، بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فَدَعَاهُمْ صلى الله عليه وسلم، فقال: هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي في كِتَابِكُمْ، قالوا:

1- المائدة:41.

2- التفسير الكبير، 9 /84 - 85

نعم، فَدَعَا رَجُلاً من عُلَمَائِهِمْ، فقال: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ على مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي في كِتَابِكُمْ؟ قال: لا، وَلَوْلا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بهذا، لم أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ في أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إذا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وإذا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ، أَقَمْنَا عليه الحَدَّ، قُلْنَا: تَعَالَوْا، فَلْنَجْتَمِعْ على شَيْءٍ، نُقِيمُهُ على الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أَوَّلُ من أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل: {يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ في الْكُفْرِ} إلى قَوْلِهِ: {إن أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ} يقول: ائْتُوا مُحَمَّدًا، صلى الله عليه وسلم، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ، وَالجَلْدِ، فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ، فَاحْذَرُوا، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {وَمَنْ لم يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} و{وَمَنْ لم يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} و{وَمَنْ لم يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} في الْكُفَّارِ كُلِّهَا). [1]

معنى الحزن ونعمة إذهابه:

الحُزْن والحَزَنُ: في اللغة نقيضُ الفرَح، وهو خلافُ السُّرور. والجمعُ أَحْزانٌ، وقال سيبويه: أَحْزَنَه جعله حَزِيناً، وحَزَنَه جعلَ فيه حُزْناً، كأَفْتَنَه جعله فاتِناً، وفَتَنه جعلَ فيه فِتنَة. [2]

والحزن الذي هو نقيض السرور يحصل للإنسان بسبب أمور عدة، ذكر القرآن الكريم بعضها، وبيّن أن الله تعالى يتولى فعل إذهاب الحزن عن عباده المخلصين، وقد قطع الله على نفسه الوعد بذلك لبني آدم منذ أمر أبويهم أن يهبطا من الجنة إلى الأرض، ومما يقوله جل شأنه بهذا الصدد: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [3]

1- صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى.
2. لسان العرب، 4/ 109.
3. البقرة: 38.

والتمتع بهذه النعمة مستمر للشاكرين المنيبين، والله تعالى يقول: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[1]

مما يعني أن إذهاب الحزن نعمة جليلة يمن الله بها على عباده، وقد تعهد الله بحجب الحزن عن أوليائه، فقال عز وجل: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[2]، ويستشعر الذين يُنزعُ من قلوبهم الحزن هذه النعمة، مصداقاً لقوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}[3]، وقيل بمعنى الحزن في هذه الآية الكريمة، هو عذاب النار، وقيل: أهوال القيامة، وقيل: هموم الدنيا، والصواب العموم في ذلك كله. [4]

سائلين الله العلي القدير أن يذهب عنا الحزن كله، وأن يمتعنا بالأمن والأمان، وأن ييسر في الحلقة الآتية متابعة الحديث عن نهي الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق، كما جاء في خطابه سبحانه لنبيه الأكرم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. البقرة: 112.
2. يونس: 62.
3. فاطر: 34.
4. التسهيل لعلوم التنزيل، 3 /159.

نهاه الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق

الحلقة الثانية

يخاطب الله جلَّ في علاه رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.[1]

في الحلقة السابقة تم الوقوف عند خطاب قرآني كريم، نهى فيه رب البرية سبحانه رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن على ما يلمسه من مسارعة بعض الناس في الكفر، على الرغم من أنهم يتظاهرون بالإيمان بألسنتهم، على خلاف ما تُكنّ قلوبهم، وذكر الاختلاف في سبب نزول ذاك الخطاب، وتم بيان معنى الحزن، ونعمة إذهابه، التي هي نعمة جليلة يمن الله بها على عباده، وأنَّ الله تعهد بحجب الحزن عن أوليائه، ومن أدلة النهي عن الحزن بسبب كفر الكافرين، ما تضمنته الآية المذكورة أعلاه من سورة لقمان، والتي تنهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن بسبب كفر الكافرين، فإن من يُكذَّب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن.[2]

النهي عن الحزن بسبب مكر المكيدين وتفوهات الجاهلين:

من الآيات القرآنية التي نهت النبي، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن، قوله جل شأنه: {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}.[3]

1. لقمان: 23.
2. التفسير الكبير، 25 /35.
3. النمل: 70.

وفي تفسير قوله تعالى: {ولا تحزن عليهم} قولان، أحدهما: على كفار مكة إن لم يسلموا، والثاني: ولا تحزن على قتلى أحد، فإنهم أفضوا إلى رحمة الله، وقوله تعالى: {ولا تك في ضيق} قرأ الأكثرون بنصب الضاد، وقرأ ابن كثير بكسرها، قال الفراء: الضيق بفتح الضاد، ما ضاق عنه صدرك، والضيق ما يكون في الذي يضيق ويتسع، مثل الدار والثوب، وأشباه ذلك، والمقصود بمكرهم هنا أفعالهم الكيدية ضد الإسلام.[1]

وقد نُهي النبي، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن بسبب أقوال يتفوه بها بعض الناس، وبخاصة المنافقين منهم، فقال تعالى: {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}[2]

يقول الرازي: واعلم أن الإنسان إنما يحزن من وعيد الغير وتهديده، ومكره، وكيده، لو جوز كونه مؤثراً في حاله، فإذا علم من جهة علام الغيوب أن ذلك لا يؤثر، خرج من أن يكون سبباً لحزنه، ثم إنه تعالى كما أزال عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، حزن الآخرة بسبب قوله: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[3] فكذلك أزال عنه حزن الدنيا بقوله: {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ للّهِ جَمِيعاً}، فإذا كان الله تعالى هو الذي أرسله إلى الخلق، وهو الذي أمره بدعوتهم إلى هذا الدين، كان لا محالة ناصراً له، ومعيناً، ولما ثبت أن العزة والقهر والغلبة ليست إلا له، فقد حصل الأمن وزال الخوف.

فإن قيل: فكيف آمنه من ذلك، ولم يزل خائفاً حتى احتاج إلى الهجرة والهرب، ثم من بعد ذلك يخاف حالاً بعد حال؟ فقد أجاب الرازي عن ذلك بقوله: إن الله تعالى وعده الظفر والنصرة مطلقاً، والوقت ما كان معيناً، فهو في كل وقت كان يخاف من أن لا

1. زاد المسير، 4 /508 - 509، بتصرف.
2. يونس: 65.
3. يونس: 62.

يكون هذا الوقت المعين ذلك الوقت.[1]

ويذكر أبو السعود في تفسيره، أن في هذا الخطاب الرباني تسلية للرسول، صلى الله عليه وسلم، عما كان يلقاه من جهتهم من الأذيّة الناشئة عن مقالاتهم الموحشة، وتبشيراً له صلى الله عليه وسلم، بأنه عز وجل ينصره ويعزه عليهم، إثر بيان أن له ولأتباعه أمناً من كل محذور، وفوزاً بكل مطلوب، وقُرئ {وَلاَ يَحْزُنْكَ} من أحزنه، وهو في الحقيقة نهي له صلى الله عليه وسلم عن الحزن، كأنه قيل: لا تحزن بقولهم، ولا تبالِ بتكذيبهم وكيدهم في تدبير هلاكك، وإبطال أمرك، وسائر ما يتفوهون به في شأنك مما لا خير فيه، وإنما وجه النهي إلى قولهم للمبالغة في نهيه، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن.[2]

ومن النهي الرباني للنبي، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن بسبب تفوهات بعض الناس، وبخاصة المنافقين، ما جاء في قوله عز وجل: {فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}[3]، يقول الزمخشري في الكشاف: والمعنى فلا يهمنك تكذيبهم، وأذاهم وجفاؤهم، فإنا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم وَمَا يُعْلِنُونَ، وإنّا مجازوهم عليه، فحقّ مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة، حتى ينقشع عنه الهمّ، ولا يرهقه الحزن.[4]

نهي المؤمنين والأنبياء السابقين عن الحزن:

لم يقتصر النهي عن الحزن بسبب أفعال الناس على النبي، صلى الله عليه وسلم، بل وجه الخطاب بمثل هذا النهي للمؤمنين كذلك، فقال جل شأنه: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا

1. التفسير الكبير، 17 /104 - 105.
2. تفسير أبي السعود، 4 /161.
3. يس: 76.
4. الكشاف، 4 /31.

وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[1]، جاء في التفسير الكبير أن قوله: {وَلاَ تَهِنُواْ}؛ أي لا تضعفوا عن الجهاد، والوهن الضعف، وقوله: {وَلاَ تَحْزَنُوا}؛ أي على من قتل منكم أو جرح، وقوله: {وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ} فيه وجوه:

الأول: أن حالكم أعلى من حالهم في القتل؛ لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، أو لأن قتالكم لله، وقتالهم للشيطان، أو لأن قتالهم للباطل، وقتالكم للحق، وكل ذلك يوجب كونكم أعلى حالاً منهم.

الثاني: أنتم الأعلون بالحجة والتمسك بالدين، والعاقبة الحميدة.

الثالث: أنتم الأعلون من حيث إنكم في العاقبة تظفرون بهم، وتستولون عليهم، وهذا شديد المناسبة لما قبله؛ لأن القوم انكسرت قلوبهم، بسبب ذلك الوهن، فهم كانوا محتاجين إلى ما يفيدهم قوة في القلب، وفرحاً في النفس، فبشرهم الله تعالى بذلك.

و قوله: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} فيه وجوه: الأول، وأنتم الأعلون إن بقيتم على إيمانكم، والمقصود بيان أن الله تعالى إنما تكفل بإعلاء درجتهم، لأجل تمسكهم بدين الإسلام، الثاني: وأنتم الأعلون، فكونوا مصدقين لهذه البشارة، إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله، ويبشركم به من الغلبة، والثالث: التقدير أن الله تعالى وعد بنصرة هذا الدين، فإن كنتم من المؤمنين علمتم أن هذه الواقعة لا تبقى بحالها، وأن الدولة تصير للمسلمين، والاستيلاء على العدو، يحصل لهم.[2]

ونُهي الأنبياء السابقون كذلك عن الحزن، فإلى لوط جاء النهي عنه، حسب قوله تعالى: {وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}[3]

1. آل عمران: 139.
2. التفسير الكبير، 9 /12.
3. العنكبوت: 33.

ونُهي نوح، عليه السلام، عن الحزن بسبب أفعال من ضلوا من قومه، وجاء التعبير عن الحزن هنا بلفظ الابتئاس، فقال تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}[1]، أي لا تحزن من ذلك، ولا تغتم، ولا تظن أن في ذلك مذلة، فإن الدين عزيز، وإن قلَّ عدد من يتمسك به، والباطل ذليل، وإن كثر عدد من يقول به.[2] واستخدم لفظ (تبتئس) للتعبير عن الحزن على لسان يوسف خلال مخاطبته أخاه، فقال تعالى: {وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[3]

فهذه وقفات أخرى عند بعض آيات الذكر الحكيم التي تضمنت النهي عن الحزن بسبب ما ضل من أفعال بعض الناس وأقوالهم، وما أحوجنا ونحن نواجه الصعاب والمحن المتلاحقة إلى طرد الأحزان من قلوبنا، لنبقى من ذوي الهمم العالية، سائلين الله العلي القدير التوفيق لمتابعة الحديث عن جوانب أخرى من هذا الموضوع في الحلقة القادمة، وأن ينعم علينا سبحانه بالصبر الجميل، لنقتفي في صبرنا وجلدنا وأملنا سيرة خاتم النبيين والمرسلين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. هود: 36.
2. التفسير الكبير، 17 /177.
3. يوسف: 69.

نهاه الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق

الحلقة الثالثة والأخيرة

عن ابن المُسَيَّبِ، عن أبيه (أَنَّ أَبَاهُ جاء إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: ما اسْمُكَ؟ قال: حَزْنٌ، قال: أنت سَهْلٌ، قال: لا أُغَيِّرُ اسْمًا سَمَّانِيهِ أبي، قال ابن الْمُسَيَّبِ: فما زَالَتْ الحُزُونَةُ فِينَا بَعْدُ)[1]

تعرضت الحلقتان السابقتان للحديث عن مواضع ورد فيها النهي عن الحزن، منها ما كان بسبب أفعال الجاهلين وتفوهاتهم، مع الإشارة إلى أن النهي عن الحزن المفرط أو المحبط، لم يقتصر الخطاب به على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وإنما شمل المؤمنين والأنبياء السابقين، وتماشياً مع مبدأ تجاوز الأحزان، يأتي الحديث أعلاه ليبين حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على استبدال الأسماء الدالة على الحزن، بأخرى تدل على اليسر والسرور، غير أن جد سعيد بن المسيب رفض تغيير اسمه من حزن إلى سهل، متذرعاً بالتمسك باسمه الذي أسماه إياه والده، فبقيت الحُزُونَةُ فيهم كما يقول ابن المسيب، وفي عمدة القاري أن المراد ببقاء الحُزُونَة فيهم امتناع التسهيل فيما يرونه، وقيل يريد الصعوبة، والشدة التي بقيت في أخلاقهم.[2]

الحزن المشروع :

الحزن المنهي عنه هو الذي يفضي إلى الإحباط أو الجزع، أو ما يكون مما لا طائل منه، أما الحزن العابر الذي ينتاب المرء جراء مصيبة ألمت به، فهذا يصعب تجنبه أو التحرز عنه،

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب اسم الحزن.
2. عمدة القاري، 22 /208.

فالنبي، صلى الله عليه وسلم، حزن ضمن هذا الإطار في مواضع عديدة، منها حزنه لموت ابنه إبراهيم، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (دَخَلْنَا مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، على أبي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وكان ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ، عليه السَّلام، فَأَخَذَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إبراهيم، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عليه بَعْدَ ذلك، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، تَذْرِفَانِ، فقال له عبد الرحمن بن عَوْفٍ، رضي الله عنه، وَأَنْتَ يا رَسُولَ اللَّهِ، فقال: يا ابن عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فقال صلى الله عليه وسلم: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ) [1]

وحزن عليه الصلاة والسلام، كذلك لمقتل القراء، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (قَنَتَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، شَهْرًا حين قُتِلَ الْقُرَّاءُ، فما رأيت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، حَزِنَ حُزْنًا قَطُّ أَشَدَّ منه) [2]

وحزن صلى الله عليه وسلم، لاستشهاد قادة مؤتة، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (لَمَّا جاء النبي، صلى الله عليه وسلم، قَتْلُ ابن حَارِثَةَ، وَجَعْفَرٍ، وابن رَوَاحَةَ، جَلَسَ يُعْرَفُ فيه الْحُزْنُ، وأنا أَنْظُرُ من صَائِرِ البَابِ -شَقِّ الْبَابِ- فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فقال: إِنَّ نِسَاءَ جَعْفَرٍ، وَذَكَرَ بُكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْهَاهُنَّ، فَذَهَبَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، لم يُطِعْنَهُ، فقال: انْهَهُنَّ، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، قال: واللَّهِ غَلَبْنَنَا يا رَسُولَ اللَّهِ، فَزَعَمَتْ أَنَّهُ قال: فَاحْثُ في أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ، فقلت: أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَكَ، لم تَفْعَلْ ما أَمَرَكَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ولم تَتْرُكْ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، من الْعَنَاءِ) [3]

وحزن صلى الله عليه وسلم، لما انقطع عنه الوحي لفترة في بداية عهده بالبعثة والرسالة،

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: إنا بك لمحزنون.
2. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من جلس عند المصيبة يعرف فيه الحزن.
3. التخريج نفسه .

ففي الحديث الصحيح: (وفتر الوحي فَتْرَةً حتى حَزِنَ النبي، صلى الله عليه وسلم)[1]

وفي فتح الباري، أن الاعتدال في الأحوال هو المسلك الأقوم، فمن أصيب بمصيبة عظيمة لا يفرط في الحزن حتى يقع في المحذور؛ من اللطم والشق والنوح وغيرها، ولا يفرط في التجلد حتى يفضي إلى القسوة.[2]

طمأنة المؤمنين:

إلى جانب النهي عن الحزن المحبط، أو المفرط، أو السلبي، جاء القرآن الكريم بمعززات للجلد، كطمأنة قلوب المؤمنين على الرغم مما يواجههم من أذى ومصاعب وابتلاء، في مثل قوله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}[3]، وقوله جل شأنه: {يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}[4]، ووردت الطمأنة لأم موسى، عليه السلام، من خلال نهيها عن الحزن في ثلاثة مواضع قرآنية، اثنان في سورة القصص، وواحد في سورة طه، فيقول عز وجل: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}[5]، ويقول تعالى: {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[6]

وفي سورة طه يقول تعالى:{إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}[7]

1. صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الوحي الرؤيا الصالحة.
2. فتح الباري، 3 /167.
3. فصلت: 30.
4. الزخرف: 68.
5. القصص: 7.
6. القصص: 13.
7. طه: 40.

ومن طمأنة المؤمنين حيال ما ينتابهم من ابتلاءات، أن يعلموا أنها تأتي أحياناً لفوائد، كما حصل لهم يوم أحد، حيث كان الغم مزيلاً للحزن، مصداقاً لقوله تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.[1]

جاء في تفسير القرطبي، أن الغم في اللغة التغطية، غممت الشيء غطيته، ويوم غم وليلة غمة، إذا كانا مظلمين، ومنه غم الهلال إذا لم يُرَ، قال مجاهد وقتادة وغيرهما الغم الأول القتل والجراح، والغم الثاني الإرجاف بقتل النبي، صلى الله عليه وسلم، إذ صاح به الشيطان، وقيل: الغم الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني: ما أصابهم من القتل والهزيمة، وقيل: الغم الأول الهزيمة، والثاني: إشراف أبي سفيان وخالد عليهم في الجبل، فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك، وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم، فأنساهم هذا ما نالهم.[2]

ومن الفوائد العظيمة للابتلاءات أن الذنوب بها تمحى وتزال، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم ، قال: (ما يُصِيبُ المُسْلِمَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حُزْنٍ، ولا أَذًى، ولا غَمٍّ، حتى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ الله بها من خَطَايَاهُ)[3]

ومن طمأنة المؤمنين كذلك، تعهد الله بأن يعصمهم ودينهم من شر الناس، مصداقاً لقوله جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[4]

وقد أيد الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، بجنده ونصره، وأنزل السكينة عليه، وهزم

1. آل عمران: 153.
2. تفسير القرطبي، 4/ 240.
3. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض.
4 المائدة: 67.

عدوه، فقال تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[1]

وفي ظل ما يعانيه المسلمون اليوم جراء المصاعب التي تعترض حياتهم، والأخطار المحدقة بهم، فإن السيل بلغ الزبى، والقلوب بلغت الحناجر، وضاقت بكثير منهم الدنيا بما رحبت، كل ذلك صحيح، لكن المطلوب من المؤمنين المبتلين ألا يستسلموا للأحزان والمصائب والويلات، بل عليهم الصبر والجلد تجاه ما يواجههم من مصاعب وابتلاءات ومحن، سواء ما كان من ذلك مادي ملموس، أم معنوي، وخير ما يطلب التسلح به في مثل هذه الأوضاع والظروف هو التحلي بالصبر، فهو مفتاح الفرج، والله تعالى يقول: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}[2]، قدوتهم في هذا والشأن كله الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التوبة: 40.
2 النحل: 127.

لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟
أجابهم سبحانه بأنه قريب
الحلقة الأولى

يقول الله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}[1]

جاء في تفسير السعدي، أن الله تعالى يخبر في هذه الآية الكريمة، أنه لا بد من أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة، كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه، لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبالِ بالمكاره الواقفة في سبيله فهو الصادق، ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه.[2]

التعرض للغاية القصوى من الشدة:

تتعرض أمة الإسلام اليوم إلى مصائب وويلات من شتى الصنوف، ومختلف المستويات، وبخاصة تلك المحن العصيبة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني، جراء الاحتلال البغيض، المتسلط على البلاد والعباد، حيث بلغت الشدائد الزبى، وضاقت بالكثيرين من أبنائه الأرض بما رحبت، وبالتأكيد أن تشوق المكروب إلى الفرج يكون شديداً، والتطلع إلى

1- البقرة:214.
2- تفسير السعدي، 1 /96.

النصر يتعاظم مع تفاقم الأزمات، وفي ظل هذه الأجواء، يحسن الرجوع إلى كتاب الله العظيم، وسنة خاتم النبيين والمرسلين، لاستلهام الدروس والعبر، واستنباط التوجيهات الحكيمة، التي تشفي العليل إن أُحسن فهمها، وأُتقن العمل بموجبها، كما الدواء الناجع الذي يلائم معالجة أمراض شخصت بدقة، فيقضي على الأسقام، ويعيد للأجساد عافيتها.

والآية الكريمة المذكورة سالفاً، ذات صلة بواقع شبيه بما ينتاب المبتلين من المحن اليوم، فهي تثبت حقيقة أن من استحقاقات نيل الجنة، ودخولها الثبات على المبادئ أمام المحن الشديدة، كما كان من صالحي السابقين الذين مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ، ومن شدة ما مسهم تضرعوا إلى الله ربهم، سائلين النصر، فكان جوابه جل في علاه: {... أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}

وجاء في التفسير الكبير، أن في الكلام حذفاً، تقديره مثل محنة الذين من قبلكم، وقوله: {مَسَّتْهُمْ} بيان للمثل، وهو استئناف، كأنَّ قائلاً قال: فكيف كان ذلك المثل؟ فقال: {مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ}، و{الْبَأْسَاء} اسم من البؤس، بمعنى الشدة، وهو الفقر والمسكنة، ومنه يقال فلان في بؤس وشدة، وأما {الضَّرَّاء} فالأقرب فيه أنه ورود المضار عليه من الآلام والأوجاع وضروب الخوف، ويرى الرازي أن البأساء عبارة عن تضييق جهات الخير والمنفعة عليه، والضراء عبارة عن انفتاح جهات الشر والآفة والألم عليه.

وأما قوله: {وَزُلْزِلُواْ} أي حركوا بأنواع البلايا والرزايا، قال الزجاج: أصل الزلزلة في اللغة من أزال الشيء عن مكانه، فإذا قلت زلزلته، فتأويله أنك كررت تلك الإزالة، فضوعف لفظه بمضاعفة معناه، وكل ما كان فيه تكرير، كررت فيه فاء الفعل، نحو صر وصرصر، وكف وكفكف، وفسر بعضهم {زلزلوا} هاهنا بخوفوا، وحقيقته غير ما ذكر آنفاً، وذلك لأن الخائف لا يستقر، بل يضطرب قلبه، ولذلك لا يقال ذلك إلا في الخوف المقيم المقعد،

لأنه يذهب السكون، فيجب أن يكون زلزلوا هاهنا مجازاً، والمراد خوفوا، ويجوز أن يكونوا مضطربين، لا يستقرون؛ لما في قلوبهم من الجزع والخوف.

والله تعالى بعد ذكر هذه الأشياء ذكر شيئاً آخر، وهو النهاية في الدلالة على كمال الضر والبؤس والمحنة، فقال: {وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءامَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ} وذلك لأن الرسل، عليهم السلام، يكونون في غاية الثبات والصبر، وضبط النفس عند نزول البلاء، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا، كان ذلك هو الغاية القصوى في الشدة.[1]

الصحابة يطلبون النصرة:

لم يقتصر طلب النصر على ظروف تفاقمت فيها المحن، وتعاظمت بسببها المعاناة، نتيجة البأساء والضراء، على الأنبياء السابقين، عليهم السلام، وأتباعهم، بل بادر الصحابة، رضي الله عنهم وأرضاهم، إلى ذلك، لما تعرضوا لصنوف الأذى من المتغطرسين والظالمين والأعداء، وكان رد الرسول، صلى الله عليه وسلم ، على شكواهم يتماشى مع ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في مثل هذه الظروف، من حيث الصبر، والجلد، والثبات على الحق، فعن خَبَّابِ بن الأَرَتِّ، قال: (شَكَوْنَا إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا؟! ألا تَدْعُو اللَّهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللَّهَ، أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)[2]

التأكيد الصادر عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف بحتمية انتصار الإسلام، وعلو شأنه، جاء في موقف صعب للغاية، عبر عنه المشتكون من خلال

1. التفسير الكبير، 6/ 17 - 18.
2. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

سؤالهم دعاءه عليه الصلاة والسلام، النصر من الله تعالى.

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، استخدم أسلوبين فاعلين في تهدئة روع المتضررين من صعوبة الشدائد التي كانت تعصف بهم، تمثل أحدهما بضرب المثل بمن تعرضوا لأصعب بكثير مما يتعرض له الشاكون إليه، والثاني ببعث الأمل في نفوس الشاكين وغيرهم من المؤمنين بأن نصرهم أكيد، ولم يقتصر الأمر على مجرد الإخبار عن حقيقة مستقبلية، ستحدث فحسب، بل لجأ عليه الصلاة والسلام، إلى مزيد من تأكيد الثقة بحدوث ما أخبر عنه، من خلال استخدامه القسم بقوله: (والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ، حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللَّهَ، أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ)، فمن المهم جداً اليقين بحقيقة النصر الموعود، حتى تبقى العزائم قوية، ويبقى الأمل مشعاً، ولو بلغت الظروف ما بلغت من الشدة والظلمة، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، جاء بهذا المثل لأناس يشكون القسوة، لا لمتمتعين بالرغد والرخاء والرفاهية.

{أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}:

لما بلغت بالذين من قبلنا الشدة إلى درجة عظيمة، دفعتهم إلى السؤال عن موعد نصر الله، من خلال قولهم: {مَتَى نَصْرُ اللهِ}رد العلي القدير ذو القوة المتين، بقوله تعالى: {أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} وفي ذلك إجابة عن سؤالهم، فتقدير الآية، هكذا كانت حالهم إلى أن أتاهم نصر الله، ولم يغيرهم طول البلاء عن دينهم، وأنتم يا معشر المسلمين كونوا على ذلك، وتحملوا الأذى والمشقة في طلب الحق، فإن نصر الله قريب؛ لأنه آت، وكل ما هو آت قريب، وهذه الآية مثل قوله تعالى في فاتحة سورة العنكبوت، حيث يقول جل شأنه: { الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ{ [1]

والمقصود من هذه الآية أن أصحاب الرسول، عليه الصلاة والسلام، كان ينالهم الأمر العظيم من البأساء والضراء من المشركين والمنافقين واليهود، ولما أذن لهم في القتال نالهم من الجراح، وذهاب الأموال، والنفوس ما لا يخفى، فعزاهم الله في ذلك، وبين أن حال من قبلهم في طلب الدين كان كذلك، وذكر الله من قصة إبراهيم، عليه السلام، وإلقائه في النار، ومن أمر أيوب، عليه السلام، وما ابتلاه الله به، ومن أمر سائر الأنبياء، عليهم السلام، في مصابرتهم على أنواع البلاء، ما صار ذلك في سلوة المؤمنين.[2]

راجين من الله أن ييسر متابعة الحديث في الحلقة القادمة عن مزيد من جوانب إجابته سبحانه عن سؤال: متى نصر الله؟ الذي طرحه المؤمنون والرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- العنكبوت: 1 - 3.
2- التفسير الكبير، 6/ 17 - 18.

لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟
أجابهم سبحانه بأنه قريب
الحلقة الثانية

عن البَرَاءِ، رضي الله عنه، قال: (رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم الخَنْدَقِ، وهو يَنْقُلُ التُّرَابَ، حتى وَارَى التُّرَابُ شَعَرَ صَدْرِهِ -وكان رَجُلاً كَثِيرَ الشَّعَرِ- وهو يَرْتَجِزُ بِرَجَزِ عبد اللَّهِ:

اللهم لَوْلا أنت ما اهْتَدَيْنَا ... ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إن لَاقَيْنَا

إِنَّ الأَعْدَاءَ قد بَغَوْا عَلَيْنَا ... إذا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يَرْفَعُ بها صَوْتَهُ) (*)

لم يغب عن ذهن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وقلبه ولسانه، ولا عن أصحابه الغر الميامين، الإيمان، بلزوم توثيق الصلة بالله عز وجل، وذلك في كل أحوالهم، وبخاصة في ساعات الشدة، التي بلغت بهم ذروتها في ظروف كثيرة، فتوجهوا إلى الله طالبين النصر، أو سائلين عن موعده، وفي الحديث أعلاه بيان عقائدي عبرت عنه أبيات شعرية، تؤكد معانيها عمق الإيمان بقدرة الله، واليقين بنصره، ولزوم التوكل عليه، إلى جانب الإفصاح عن شكر آلائه، المتمثلة في الهداية، والتوفيق لأداء الصلاة والصدقات، وسؤاله سبحانه السكينة، وتثبيت الأقدام في الملمات، وأمام الشدائد والصعاب. ويأتي استهلال هذا المقال بهذا الحديث الشريف، تواصلاً مع ما جاء في الحلقة السابقة، التي وقفت عند مسألة التعرض للغاية القصوى من الشدة، في سياق الابتلاء والمحن التي تجتاح بعض الناس، وتم

* صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الرجز في الحرب ورفع الصوت في حفر الخندق.

ضرب المثل بصبر الشعب الفلسطيني، أمام المحن العصيبة التي تواجهه، مع التذكير بأبرز التوجيهات الشرعية للمؤمنين المبتلين، للتحلي بالصبر، واليقين بنصر الله وفرجه، حيث بشر سبحانه عباده المؤمنين بنصره القريب، وبينت الحلقة السابقة كذلك، أن لجوء من يتعرضون لحالة الاستضعاف إلى طلب النصرة ممن يملك القوة وأدواتها سنة جارية، فالصحابة لما اشتدت بهم الأزمات، هرعوا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، طالبين دعاءه، ليفرج الله كربهم، وينصرهم على من عاداهم، ولما سألوا والرسول، صلى الله عليه وسلم، متى نصر الله؟ جاءهم الرد الرباني الفوري والحاسم: ألا إن نصر الله قريب، وفيما يأتي وقفات أخرى عند بعض القضايا ذات الصلة باليقين، النابع من إيمان راسخ بتحقق نصر الله الموعود لعباده المبتلين في سبيله.

حتمية انتصار الحق وبقائه

كثيرة هي الآيات القرآنية التي تبشر بنصر الله القريب لعباده الذين قدموا لله ما طلب منهم، من أنفسهم وأموالهم، فالنصر الأكيد ييسره الله بقدرته لمن شاء من عباده، وأي قوة في الدنيا مهما تعاظمت قدراتها، فإنها ستعجز عن الانتصار في معركة يؤيد الله فيها خصمها، وفي سياق الإخبار عن هذه الحقيقة، يقول تعالى:{إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[1]، ويقول جل شأنه:{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ}[2] فالبصير يسأل الله حاجاته كلها، لأنه متيقن بأن الخلق إنسهم وجنهم لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله له، وَلَوْ اجْتَمَعُوا على أَنْ يَضُرُّوه بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوه إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْه.

1. آل عمران:160.
2. الملك:20.

والله نصر الرسل، عليهم السلام، بعدما أصابتهم الشدائد والصعاب، وبلغت بهم مبلغاً عظيماً، فجاءهم بنصره المؤزر، وصدقهم وعده، مصداقاً لقوله عز وجل: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ}[1]، والله لا يخلف وعده، لا للرسل، عليهم السلام، ولا لغيرهم من الخلق، وهو القائل جل شأنه: {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[2]، ولن يخلف الله وعده لنا كذلك، نحن القابضون على جمر الاحتلال، وظلمه وغطرسته، ما استقمنا على دينه ونصرناه، تحقيقاً لمتطلبات النصر التي اشترطها جل في علاه، حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}[3]، مع التنبيه إلى أن مثل هذا الوعد، جاء مقترناً مع الأمر بقتال أعداء الله، كما في قوله عز وجل: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ}.[4]

وفي مقابل تبشير المؤمنين بالنصر، فإن توعد الظالمين بالهلاك، وإسكان المؤمنين الأرض من بعدهم، يبقى قائماً إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، مصداقاً لقوله عز وجل:{وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}[5]، فالغلبة والنصر لكم عباد الله المخلصين، وعدكم الله إياهما، ما دمتم على العهد معه، مستقيمين على دينه، وهو القائل جل ذكره:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[6]

1. الأنبياء: 9.
2. إبراهيم:47.
3. محمد:7.
4. التوبة:14.
5. إبراهيم:14.
6. الصافات: 171 - 173.

التساؤل القرآني بلفظ: أم حسبتم ؟

تكرر التساؤل المطروح من رب العزة في القرآن الكريم، بلفظ {أم حسبتم؟} ثلاث مرات، وذلك في قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}[1]، وقوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}[2] وقوله جل ذكره: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[3]، ومن أقوال العلماء في تفسير هذا التكرار، أن الأول للنبي، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، والثاني للمؤمنين، والثالث للمخاطبين جميعاً.[4]

وفي سورة العنكبوت جاء مثل هذا التساؤل، بلفظ {أحسب}، وكان موجهاً للناس، فقال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[5]

من الواضح أن هذه الآيات نزلت في ظروف مفعمة بالشدة والضيق، فدلت على أن الابتلاءات والفتن محكات لا بدَّ منها، ليميز الله الخبيث من الطيب، ويظهر الصادقين من غيرهم، فجنته غالية، وعدها الذين اشترى منهم أنفسهم، وأموالهم مقابلها، عسى أن نكون منهم.

متى فرج الله ونصره ؟

يسأل كثير من الناس، وبخاصة المبتلين بالصعاب، عن الفرج، متى هو؟ وعن النصر القريب، متى يكون؟ والإجابة الجازمة المحددة للمواقيت الزمانية عن مثل هذين السؤالين،

1- البقرة:214.
2- آل عمران:142.
3- التوبة:16.
4- أسرار التكرار في القرآن، 1 /42.
5- العنكبوت:2.

لا يملكها إلا الله جل في علاه، فهو المختص بالقدرة على كل شيء، وبيده ملكوت السماوات والأرض، والأيام تجري بأمره دُولاً، يسر بعضها أناساً، ويُحزن آخرين، لكن شتان بين الذين يستقيمون على أمر الله، ويصبرون على ما يجدون في سبيل ذلك، ويحتسبون الجزاء من لدن عزيز حميد، فعّال لما يريد، وبين التائهين عن أمر الله، المتغطرسين في الغي والظلم، المنخدعين بسراب القوة التي يملكون، على درب فرعون وهامان وقارون، وأقوام نوح وهود وصالح، وأبي جهل وأبي لهب، ومن كان على شاكلتهم من الغابرين والحاضرين، الفرق بين الفريقين كبير، والبون بينهما شاسع، فرق بين من يؤمن بعاقبة فيها جنان، تجري من تحتها الأنهار، وبين راكبي قطار جهنم التي نارها تلظى، كلما خبت زدناهم سعيراً.

والمؤمنون بالله رباً، وباليوم الآخر وما فيه، لن يجدوا معضلة تحول دون توصلهم لإجابة شافية عن السؤالين المطروحين آنفاً، فالنصر قريب، والفرج آت، ولن يرتاب مؤمن في حتميتهما، لكن بعض الناس يستعجلون، أو يضيقون ذرعاً بالصعاب، والله لا يعجل باستعجال الخلق، وإنما كل شيء عنده بقدر، وهو القائل سبحانه: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}(*)، فالصبر الصبر، والثبات الثبات على الحق، فالعاقبة للمتقين، ونصر الله العزيز لهم، وإن استبطأه بعض الناس، ممن ضاقت بهم الأرض بما رحبت، وظنوا بالله الظنونا.

سائلين الله العلي القدير أن يهيئ السبيل القويم، لمتابعة الوقوف عند مزيد من المحطات الخاصة بتعزيز الإيمان بحقيقة قرب تحقق نصر الله لعباده المؤمنين، المرابطين الصابرين المصابرين، على درب خاتم النبيين والمرسلين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* الحجر:21.

لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟
أجابهم سبحانه بأنه قريب
الحلقة الثالثة

عن مُعَاوِيَة، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لا يَزَالُ من أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، ما يَضُرُّهُمْ من كَذَّبَهُمْ، ولا من خَالَفَهُمْ، حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ على ذلك).(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى حقيقة عقائدية، تتعلق بحتمية انتصار الحق وبقائه، فكثيرة هي الآيات القرآنية التي تبشر بنصر الله القريب لعباده الذين قدموا لله ما طلب منهم، من أنفسهم وأموالهم، وأي قوة في الدنيا مهما تعاظمت قدراتها، ستعجز عن الانتصار في معركة يؤيد الله فيها خصمها، والله نصر الرسل، عليهم السلام، بعدما أصابتهم الشدائد والصعاب، وبلغت بهم مبلغاً عظيماً، فجاءهم بنصره المؤزر، وصدقهم وعده، والله لن يخلفنا وعده كذلك، نحن القابضون على جمر الاحتلال، وظلمه وغطرسته، ما استقمنا على دينه ونصرناه، وتم الوقوف في تلك الحلقة عند إجابة السؤال عن موعد نصر الله وفرجه، الذي يطرحه كثير من الناس، وبخاصة المبتلين بالصعاب، وتم التأكيد على أن الإجابة الجازمة المحددة للمواقيت الزمانية عن هذا السؤال، لا يملكها إلا الله جل في علاه، المختص بالقدرة على كل شيء، مع التنبيه إلى أن الأيام تجري بأمر الله دُولاً، يسر بعضها أناساً، ويُحزن آخرين، لكن شتان بين الذين يستقيمون على أمر الله، ويصبرون على ما يجدون في سبيل ذلك، ويحتسبون الجزاء من لدن عزيز حميد، فعّال لما يريد، وبين التائهين عن أمر

* صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} (النحل: 40).

الله، المتغطرسين في الغي والظلم، المنخدعين بسراب القوة التي يملكون.

والحديث الشريف المثبت نصه أعلاه، يؤكد هذه الحقائق الإيمانية، فعلى الرغم مما يواجه المسلمين من شتى صنوف الاضطهاد والقهر والظلم والتربص، فإنهم لن يندثروا عن كوكب الأرض، بل سيبقون عليها ما داموا على الحق، رغم أنف الكارهين، فهذا الحديث يعزز الأمل المستوحى من إجابة الله جل في علاه عن سؤال متى نصر الله؟ فنصر الله القريب يضافره الوعد ببقاء أمة الإسلام ظاهرة بحقها، في ترسيخ معنى الأمل بالفرج، مما نحن فيه من شدائد ومحن، ووردت مثل هذه البشرى في سياق وعود عديدة، منها:

التبشير بفتوحات قادمة:

أخبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين عن فتوحات مستقبلية لم تكن تخطر ببالهم، فأخبرهم عن فتح الشام واليمن والعراق، في وقت لم تكن فيه هذه البلاد قد انتشر فيها الإسلام بعد، فعن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (تُفْتَحُ الشَّامُ، فَيَخْرُجُ من المَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ يَبُسُّونَ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لهم، لو كَانُوا يَعْلَمُونَ، ثُمَّ تُفْتَحُ اليَمَنُ، فَيَخْرُجُ من المَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ يَبُسُّونَ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لهم لو كَانُوا يَعْلَمُونَ، ثُمَّ تُفْتَحُ العِرَاقُ، فَيَخْرُجُ من المَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ يَبُسُّونَ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لهم لو كَانُوا يَعْلَمُونَ)(*)، وقد شهد المسلمون من بعد هذا الإخبار الصادق تحقق ما أنبأ عنه الصادق المصدوق، عليه الصلاة والسلام، مما يعزز الثقة بتحقق ما وعدنا به من نصر قريب، ما دمنا على العهد مع الله، ننصر من نصره، ونبرأ إليه سبحانه ممن عاداه، وفجر، وكفر، وفسق من العالمين.

التبشير بالكنزيْن وباتساع ملك أمة الإسلام:

من الوعود المطمئنة لقلوب المؤمنين، سواء أكانوا في حال الاستضعاف، أم في حال

* صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار.

القوة، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعدهم باتساع رقعة البلاد التي ستخضع لأمر الله، وشريعة الإسلام، فقد حدَّث عليه الصلاة والسلام الصحابة عن سيطرة للمسلمين ستكون على ملك أعظم دولتين آنذاك، الفرس والروم، فقال: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زوي لي منها، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ؛ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قال: يا محمد، إني إذا قَضَيْتُ قَضَاءً، فإنه لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عليهم من بِأَقْطَارِهَا، أو قال من بين أَقْطَارِهَا، حتى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا).(*)

ومما جاء في شرح معاني هذا الحديث، ما أورده صاحب تحفة الأحوذي، أن قوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الأَرْضَ)؛ أي جمعها لأجلي، يريد به تقريب البعيد منها، حتى اطلع عليه، إطلاعي على القريب منها، (فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا) أي جميعها، (وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زُوِي لِي منها)؛ أي أن الأرض زويت لي جملتها مرة واحدة، فرأيت مشارقها ومغاربها، ثم هي تفتح لأمتي جزءاً فجزءاً، حتى يصل ملكها إلى كل أجزائها، وقوله: (وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ)؛ أي خزائن كسرى وقيصر، وقوله: (أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ)؛ أي بقحط شائع لجميع بلاد المسلمين، (وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا)، أراد عدواً يستأصلهم، ويهلكهم جميعهم، (فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ)، قيل: أراد إذا أهلك أصل البيضة كان هلاك كل ما فيها؛ من طعم أو فرخ، وقيل: أراد بالبيضة الخوذة، فكأنه شبه مكان اجتماعهم والتآمهم ببيضة الحديد.

* صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.

وقوله: (إذا قَضَيْتُ قَضَاءً)؛ أي حكمت حكماً مبرماً، (فإنه لا يُرَدُّ)؛ أي بشيء، بخلاف الحكم المعلق بشرط وجود شيء، أو عدمه، (وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ)؛ أي عهدي وميثاقي، (لأُمَّتِكَ)؛ أي لأجل أمتك، (أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ)؛ أي بحيث لا يعمهم القحط، ويهلكهم بالكلية، قال الطيبي: اللام في لأمتك، هي التي في قوله سابقاً: (سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي)، أي أعطيت سؤالك لدعائك لأمتك، وقوله: (وَلَوْ اجْتَمَعَ عليهم من بِأَقْطَارِهَا)؛ أي الذين هم بأقطارها؛ أي بأطرافها، والأقطار جمع قطر، وهو الجانب والناحية، والمعنى: فلا يستبيح عدو من الكفار بيضتهم، ولو اجتمع على محاربتهم من أطراف بيضتهم، وقوله: (حتى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا) قال الطيبي: حتى بمعنى كي، أي لكي يكون بعض أمتك يهلك بعضاً، وقوله: (إِنِّي إذا قَضَيْتُ قَضَاءً، فإنه لا يُرَدُّ)، يتعلق بقضاء الله في خلقه، والذي هو نوعان، مبرم ومعلق بفعل، من قبيل ما يتطرق إليه المحو والإثبات، كما قال تعالى في محكم كتابه: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}[1]، وأما القضاء المبرم، فهو عبارة عما قدره سبحانه في الأزل، من غير أن يعلقه بفعل، فهو في الوقوع نافذ غاية النفاذ، بحيث لا يتغير بحال، ولا يتوقف على المقضى عليه، ولا المقضي له؛ لأنه من علمه بما كان، وما يكون، وهذا من قبيل ما لا يتطرق إليه المحو والإثبات، قال تعالى: {...وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[2]، فقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا قَضَيْتُ قَضَاءً، فإنه لا يُرَدُّ) هو من قبيل القضاء المبرم، ولذلك لم يجب إليه، وفيه أن الأنبياء مستجابو الدعوة، إلا في مثل هذا. [3]

1- الرعد:39.
2- الرعد:41.
3- تحفة الأحوذي، 6/ 332 - 333، بتصرف.

فبقاء طائفة من أمة الإسلام إلى أن يأتي أمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من كذبهم، ولا من تآمر عليهم، إلى جانب الإخبار عن فتوحات قادمة لمعاقل الكفر التي يقطنها أصحاب السيطرة والقوة والنفوذ، هي بشائر تعاضد البشرى بقرب نصر الله، الذي يتشغف إليه المسلمون، وبخاصة المستضعفين منهم، وفي هذا نفحات أمل يستشعرها كل مؤمن يتدبر فيها حق التدبر، فتلك البشائر سيقت من قبل جهة مصداقة لأناس يعانون، ومن لا يصدق خبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وما جاء به القرآن الكريم، فليس له من الإيمان، أو الإسلام نصيب، سائلين الله العلي القدير أن ييسر متابعة الوقوف عند مزيد من محطات تعزيز الأمل بتحقق نصر الله القريب لسائليه من المسلمين الصابرين والمرابطين والمحتسبين، وأن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، ممن تأسوا بنهج خاتم النبيين والمرسلين، محمد وسيرته، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟
أجابهم سبحانه بأنه قريب
الحلقة الرابعة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، كان يقول: (لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فلا شَيْءَ بَعْدَهُ).(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى حقيقة عقائدية، تتعلق بحتمية انتصار الحق وبقائه، ووقفت عند بعض المبشرات بذلك، التي منها التبشير بفتوحات قادمة، فلطمأنة المؤمنين، سواء أكانوا في حال الاستضعاف، أم في حال القوة، كان الوعد باتساع رقعة البلاد التي ستخضع لأمر الله، وشريعة الإسلام، فقد حدَّث عليه الصلاة والسلام، عن سيطرة للمسلمين ستكون على ملك أعظم دولتين آنذاك، الفرس والروم، فقال: (وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ، الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ)، ومن الدلالات المعززة لليقين بقرب نصر الله لعباده المخلصين، أن الرسل، عليهم السلام، لما كُذبوا وأوذوا في سبيل الله، هم ومن معهم من المؤمنين، جاءهم نصر الله، الذي نجى الله به من شاء، وأصاب بأسه القوم المجرمين.

نموذج للأمل بالفرج في ساعات الشدة:

في معترك الأزمات وحدتها، وعسر الأحوال، يحتاج المتأزمون إلى نفحات أمل تهدئ من روعهم، وتطمئن قلوبهم، ومن الشواهد لذلك، ما حصل للمسلمين يوم الخندق، حين تحزب الأحزاب لاقتلاعهم، وأروع وصف لحالهم جاء في قوله تعالى: {إِذْ جَاءوكُم مِّن

* صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً}. [1] وعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان ذَاكَ يوم الخَنْدَقِ) [2]

فزيغ الأبصار، وبلوغ القلوب الحناجر ليس جديداً على المسلمين، فها هو حصل لهم والرسول، عليه الصلاة والسلام، بين ظهرانيهم، لكنه لم يرضخ لهذا البلاء، ولم يتهاون، بل كان يشارك أصحابه المخاطر، ومواجهة الصعاب، فعن سَهْل بن سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ، قال: (كنا مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، في الخَنْدَقِ وهو يَحْفِرُ، وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ، ويمر بِنَا، فقال: اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَة) [3]

والحديث أعلاه يشير إلى يقينه، صلى الله عليه وسلم، بقدرة الله تعالى على تحقيق النصر المؤزر للمؤمنين، فالله سبحانه له القدرة على إنجاز وعوده، وإعزاز جنده، وهزم أحزاب الظلام التي تضافرت على شن الحرب على معسكر الحق، فأعز جنده، ونصر رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، وغلب الأحزاب الذين جاؤوا من أهل مكة وغيرهم يوم الخندق، وقوله: (فلا شيء بعده)؛ أي جميع الأشياء بالنسبة إلى وجوده كالعدم، أو بمعنى كل شيء يفنى، وهو الباقي بعد كل شيء، فلا شيء بعد، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}. [4]

ووفق العيني بين السجع الظاهر في هذا الحديث الشريف، وبين ذم النبي، صلى الله عليه وسلم، السجع، كما جاء في الحديث الصحيح عن المُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ، قال: (ضَرَبَتْ امْرَأَةٌ

1. الأحزاب:10 - 12.
2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة.
4. القصص:88.

ضَرَّتَهَا بِعَمُودِ فُسْطَاطٍ، وهي حُبْلَى، فَقَتَلَتْهَا، قال: وَإِحْدَاهُمَا لِحْيَانِيَّةٌ، قال: فَجَعَلَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، دِيَةَ الْمَقْتُولَةِ على عَصَبَةِ الْقَاتِلَةِ، وَغُرَّةً لِمَا في بَطْنِهَا، فقال رَجُلٌ من عَصَبَةِ الْقَاتِلَةِ: أَنَغْرَمُ دِيَةَ من لا أَكَلَ ولا شَرِبَ ولا اسْتَهَلَّ؟! فَمِثْلُ ذلك يُطَلُّ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الأَعْرَابِ، قال: وَجَعَلَ عليهم الدِّيَةَ)[1]، حيث قال العيني: إن المنكر والمذموم السجع الذي يأتي بالتكلف، وبالتزام ما لا يلزم، وسجعه صلى الله عليه وسلم، من السجع المحمود؛ لأنه جاء بانسجام، واتفاق على مقتضى السجية، وكذلك وقع منه في أدعية كثيرة من غير قصد لذلك، ولا اعتماد إلى وقوعه موزوناً مقفًى بقصده إلى القافية.[2]

الدعاء بهزم الأعداء وزلزلتهم:

من الأساليب المستخدمة للتعبير عن اليقين بنصر الله، الدعاء الذي يوجهه المؤمنون إلى الله، طالبين مدده وعونه سبحانه، بأن يعينهم على هزم عدوهم، ونصرهم عليه، فقد دَعَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يوم الأَحْزَابِ على الْمُشْرِكِينَ، فقال: (اللهم مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اللهم اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللهم اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ)[3]

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (سَرِيعَ الحِسَابِ) يعني يا سريع الحساب، إما أن يراد به أنه سريع حسابه بمجيء وقته، وإما أنه سريع في الحساب.

وقوله: (اهْزِمْهُمْ)؛ أي اكسرهم، وبدد شملهم، ويقال قوله: اهزمهم وزلزلهم، دعاء عليهم، أن لا يسكنوا، ولا يستقروا، ولا يأخذهم قرار، وقال الداودي: أراد أن تطيش عقولهم، وترعد أقدامهم عند اللقاء، فلا يثبتون.[4]

1. صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني.
2. عمدة القاري، 17 /188.
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة.
4. عمدة القاري، 14 /204.

نصر الرسل، ومتى استيأسوا ؟

الشواهد الدالة على حتمية تحقق النصر الرباني للمؤمنين كثيرة، منها تأكيد الباري سبحانه على تأييده للرسل، عليهم السلام، وللذين آمنوا معهم بنصره المنجي لهم، والممحق لأعدائهم، حيث يقول الله تعالى:{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ}[1]

يرى صاحب التسهيل لعلوم التنزيل، أن يأس الرسل يحتمل أن يكون من إيمان قومهم، أو من النصر، والأول أحسن، وقوله تعالى: {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ}قرئ بتشديد الذال، وتخفيفها، فأما التشديد، فالضمير في ظنوا وكذبوا للرسل، والظن يحتمل أن يكون على بابه، أو بمعنى اليقين؛ أي علم الرسل أن قومهم قد كذبوهم، فيئسوا من إيمانهم، وأما التخفيف، فالضميران فيه للقوم المرسل إليهم؛ أي ظنوا أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من الرسالة، أو من النصرة عليهم.[2]

جاء في صحيح البخاري، بَاب قَوْلِهِ: {حتى إذا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} وفيه، عن عُرْوَة بن الزُّبَيْرِ، عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت له، وهو يَسْأَلُهَا عن قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {حتى إذا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} قال: (قلت: أَكُذِبُوا أَمْ كُذِّبُوا؟ قالت عَائِشَةُ: كُذِّبُوا. قلت: فَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ، فما هو بِالظَّنِّ، قالت: أَجَلْ لَعَمْرِي، لقد اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ، فقلت لها: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قد كُذِبُوا؟ قالت: مَعَاذَ اللَّهِ، لم تَكُنْ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذلك بِرَبِّهَا، قلت: فما هذه الآيَةُ؟ قالت: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ، وَصَدَّقُوهُمْ، فَطَالَ عليهم الْبَلَاءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ، حتى إذا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ من قَوْمِهِمْ، وَظَنَّتِ الرُّسُلُ، أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قد كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذلك). [3]

1. يوسف:110.
2. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 129.
3. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة يوسف، باب قوله: {حتى إذا استيأس الرسل}(يوسف: 110)

ويأتي لفظ اسْتَيْأَس بمعنى يَئِسَ(*)، واليأس هو فقد الأمل، والتعبير القرآني بهذا اللفظ له من الدلالة ما له، على تفاقم أزمة الرسل، عليهم السلام، مع أعدائهم، وخلال قيامهم بأداء ما أنيط بهم من دعوة إلى الله على بصيرة، مما يعني لزوم التأسي بصبرهم، وجلدهم، وثباتهم على الحق، فمهما اشتد ظلام الليل بنا، فإن نور الفجر الساطع سيأتينا، كما أتى الذين جَاءهُمْ نَصْر الله من قبلنا، وما ذلك على الله بعزيز.

فينبغي التركيز في المناسبات جميعها على بث روح الأمل بالفرج والنصر في نفوس المؤمنين؛ لأن من أخطر أشكال الهزيمة تلك التي تعشش في النفوس والقلوب، فتحدث ضعفاً في البنية، وصغاراً في المواقف، مما يتيح للمتربصين أن ينالوا منها ما شاءوا.

فمع المحفزات الإيمانية على الجلد والصبر، المحفوفة بالتأكيد على حتمية انتصار الحق مهما طال أمد ليل الباطل، ينبغي أن نعمل دائماً، لنكون من الصابرين والمصابرين، حتى نوفى الأجور بغير حساب، ومن المحافظين على الثغور التي نرابط عليها، عمادنا التقوى، عسى أن نكون من المفلحين، الذين بشرهم الله بنصره القريب، آملين أن ييسر الله الوقوف عند مزيد من محطات تعزيز الأمل بتحقق نصر الله القريب لسائليه من المسلمين الصابرين والمرابطين والمحتسبين، وأن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، ممن تأسوا بنهج خاتم النبيين والمرسلين محمد وسيرته، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* لسان العرب، 15 /306.

لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟
أجابهم سبحانه بأنه قريب
الحلقة الخامسة

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ على العَدُوِّ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَبَيْنَمَا أنا نَائِمٌ، أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأرض، فَوُضِعَتْ في يَدَيَّ)(*)

وقفت الحلقة السابقة عند بعض معززات اليقين بنصر الله القريب، فعرضت نموذجاً للأمل بالفرج في ساعات الشدة، تمثل بما حصل للمسلمين وأعدائهم يوم الخندق، حين تحزب الأحزاب لاقتلاع المسلمين من دارهم، مبينة أنه في معترك الأزمات وحدتها، وعسر الأحوال، يحتاج المتأزمون إلى نفحات أمل تهدئ من روعهم، وتطمئن قلوبهم، ومن ذلك التوجه إلى الله عز وجل بالدعاء بهزم الأعداء وزلزلتهم، حيث إن من الأساليب المستخدمة للتعبير عن اليقين بنصر الله، الدعاء الذي يوجهه المؤمنون إلى الله، طالبين مدده وعونه سبحانه، بأن يعينهم على هزم عدوهم، ونصرهم عليه، ومن الشواهد الدالة على حتمية تحقق النصر الرباني للمؤمنين الكثيرة، تأكيد الباري سبحانه على تأييده للرسل، عليهم السلام، وللذين آمنوا معهم بنصره المنجي لهم، والممحق لأعدائهم، حيث جاء الاستدلال بهذا الشاهد في سياق تفسير المراد بنصر الرسل، لما استيأسوا، وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ، فَجَاءهُمْ نَصْرُ الله الذي نجا به مَن شَاء من عباده، مع التأكيد على أن بأسه لاَ يُرَدُّ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ، وذلك حسب دلالات الآية 110 من سورة يوسف.

* صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً

إلقاء الرعب وقذفه في قلوب أعداء المسلمين:

في الحديث الشريف سالف الذكر تأكيد من النبي، صلى الله عليه وسلم، على تحقق نصر الله له بخارق نفسي، أصاب قلوب أعدائه من خلال الرعب الذي انتابها، وقد عني القرآن الكريم بإبراز هذا الجانب في معارك الحق والباطل، التي يخوضها أهل كليهما، فوعد الله في أكثر من سورة قرآنية بأن يلقي في قلوب الكافرين الرعب، فقال جل شأنه: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ}[1]

تشير هذه الآية الكريمة إلى ما حدث لأعداء المسلمين في أعقاب غزوة أحد، مع التذكير إلى أن معنى الآية لا ينحصر بهذا الحدث فحسب، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والرُّعْبُ في اللغة: الفَزَع والخَوْفُ.[2]

وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ وَالْمُشْرِكِينَ لَمَّا ارْتَحَلُوا يَوْمَ أُحُدٍ مُتَوَجِّهِينَ نَحْوَ مَكَّةَ، انْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بَعْضَ الطَّرِيقِ، نَدِمُوا، وَقَالُوا: بِئْسَ مَا صَنَعْنَا، قَتَلْنَاهُمْ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلا الشَّرِيدُ تَرَكْنَاهُمُ، ارْجِعُوا فَاسْتَأْصِلُوهُمْ، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ.[3]

وورد الحديث عن إلقاء الرعب في قلوب الكافرين، في قوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}.[4]

يلاحظ أن الرعب في هاتين الآيتين ألقي في قلوب الكافرين، بينما في مواضع أخرى

1. آل عمران: 151.
2. لسان العرب، 6 /171.
3. تفسير البغوي، 1 /521.
4. الأنفال: 12.

قُذف قذفاً، فقال تعالى: {...وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً}.[1]
ومعنى {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} أي دبَّ الخوف الشديد في قلوبهم، بحيث أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وأولادهم للأسر، حسبما ينطق به قوله تعالى: {فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً} من غير أن يكون من جهتهم حراك، فضلاً عن المخالفة والاستعصاء.[2]
يرى بعض العلماء أن فعل القذف استعير لحصول الرعب بسرعة في قلوبهم دفعة واحدة، دون سابق تأمل، وبلا سبب، واستعير فعل الإلقاء لجعل الرعب في قلوب الذين كفروا مستقبلاً، ولهذا قال تعالى: سنلقي، بالسين الدالة على المستقبل القريب، والتأكيد بحصول الرعب في قلوب الذين كفروا، ولو قيل: سنقذف أو سنضع، لكان خلفًا من الكلام، لا يتناسب مع بلاغة القرآن وبيانه، والله تعالى أعلم.[3]
ويقول تعالى: {... فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[4] نزلت هذه الآية الكريمة معقبة على غزوة بني النضير، حيث أثبت الله في قلوبهم الخوف الذي يرعبهم.
والرسول، صلى الله عليه وسلم، أكد على أنه أُيد بالرعب، الذي سلطه الله على قلوب أعدائه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَبَيْنَا أنا نَائِمٌ، أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأرض، فَوُضِعَتْ في يَدِي، قال أبو هُرَيْرَةَ، وقد ذَهَبَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَأَنْتُمْ تَنْتَثِلُونَهَا)[5]
ومعنى (تَنْتَثِلُونَهَا): أي تستخرجون مافيها، يعني خزائن الأرض، وما فتح على المسلمين من الدنيا[6]

1- الأحزاب: 26..
2- تفسير أبي السعود، 7/ 100.
3- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن، www.quran-m.com/?/quran/article/2402.
4- الحشر: 2.
5-صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (نصرت بالرعب مسيرة شهر).
6- صحيح مسلم بشرح النووي،5/5.

وعن جَابِرِ بن عبد اللَّهِ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم:(أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ من الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي؛ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى الناس كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ)[1]

وعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ).[2]

والصبا هي الريح الشرقية، والدبور هي الريح الغربية.[3]

نصر الله القريب

بشر الله المؤمنين بنصره القريب، في مواضع قرآنية عديدة، وفي مناسبات مختلفة، ففي سورة الصف، دل الله تعالى المؤمنين على تجارة تنجيهم من عذاب أليم، طلب منهم فيها أن يؤمنوا بالله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، ويجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وضم سبحانه إلى جزائهم، إضافة إلى وعدهم بمغفرة ذنوبهم، وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة في جنات عدن، وعدهم سبحانه بمثوبة أخرى يحبونها، هي نصر من عنده سبحانه، وفتح قريب، فقال تعالى: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}.[4]

جاء في التفسير الكبير، أن قوله تعالى: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا}؛ أي تجارة أخرى في العاجل، مع ثواب الآجل، قال الفراء: وخصلة أخرى تحبونها في الدنيا، مع ثواب الآخرة، وقوله تعالى: {نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ} هو مفسر للأخرى؛ لأنه يحسن أن يكون نَصْرٌ مِّن اللَّهِ مفسراً للتجارة، إذ النصر

1-صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً).
2- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله: {وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته}(الفرقان: 48).
3- فتح الباري، 7 /402.
4- الصف:13.

لا يكون تجارة لنا، بل هو ربح للتجارة، وقوله تعالى: {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}؛ أي عاجل، وهو فتح مكة، وقال الحسن: هو فتح فارس والروم، وفي {تُحِبُّونَهَا} شيء من التوبيخ على محبة العاجل.[1]

فالنصر المتمثل بالفتح وغيره قريب، وهو لا يكون للمؤمنين إلا من الله، الذي وعدهم إياه، في مواضع قرآنية عديدة، وبخاصة في سياق التعقيب على نتائج لقاءاتهم الحاسمة مع أعدائهم، ففي أعقاب الحديث عن مجريات غزوة بدر ونصر المؤمنين فيها، قال تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[2]

وقد أكد الله عز وجل هذه الحقيقة الإيمانية، ليبقى المسلمون على ثقة ويقين بأن النصر لن يكون حليفهم إلا إذا ساقه الله العلي القدير إليهم، ووفق وعوده سبحانه، فإن ذلك قريب منهم، ولو أن بعض الناس يرونه بعيداً، فصبراً صبراً معشر المؤمنين والمرابطين، لأن وعد الله آت آت، مصداقاً لقوله تعالى:{فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً* إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً* وَنَرَاهُ قَرِيباً}[3]، ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً؟!!!

آملين أن ييسر الله الوقوف عند مزيد من الشواهد القرآنية الدالة على أن نصر الله قريب، وهو لا يكون إلا من عنده جل في علاه، سائلينه سبحانه أن يزيدنا يقيناً بذلك، وأن يهدينا صراطه المستقيم، صراط خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- التفسير الكبير، 29 /276.
2- آل عمران: 126.
3- المعارج:5 - 7.

لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟
أجابهم سبحانه بأنه قريب
الحلقة السادسة والأخيرة

عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد اللَّهِ بن عُتْبَةَ، عن عبد اللَّهِ بن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ أخبره: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، كَتَبَ إلى قَيْصَرَ يَدْعُوهُ إلى الإِسْلامِ، وَبَعَثَ بِكِتَابِهِ إليه مع دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، وَأَمَرَهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنْ يَدْفَعَهُ إلى عَظِيمِ بُصْرَى؛ لِيَدْفَعَهُ إلى قَيْصَرَ، وكان قَيْصَرُ لَمَّا كَشَفَ الله عنه جُنُودَ فَارِسَ، مَشَى من حِمْصَ إلى إِيلِيَاءَ؛ شُكْرًا لِمَا أَبْلاهُ الله، فلما جاء قَيْصَرَ كِتَابُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال حين قَرَأَهُ: الْتَمِسُوا لي هَا هُنَا أَحَدًا من قَوْمِهِ، لأَسْأَلَهُمْ عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال ابن عَبَّاسٍ: فَأَخْبَرَنِي أبو سُفْيَانَ بن حرب، أَنَّهُ كان بالشأمِ في رِجَالٍ من قُرَيْشٍ، قَدِمُوا تجَارًا، في المُدَّةِ التي كانت بين رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قال أبو سُفْيَانَ: فَوَجَدَنَا رسول قَيْصَرَ بِبَعْضِ الشأم، فانْطلقَ بِي وَبِأَصْحَابِي حتى قَدِمْنَا إِيلِيَاءَ، فَأُدْخِلْنَا عليه، فإذا هو جَالِسٌ في مَجْلِسِ مُلْكِهِ، وَعَلَيْهِ التَّاجُ، وإذا حَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ - وهنا يذكر أبو سفيان أن قيصر سأله عن أمور تتعلق بالرسول، صلى الله عليه وسلم، ورسالته، وكان من بين الحوار الذي دار بينهما- قال: (فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أو قَاتَلَكُمْ؟ قلت: نعم، قال: فَكَيْفَ كانت حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟ قلت: كانت دُوَلاً وَسِجَالاً، يُدَالُ عَلَيْنَا المَرَّةَ، وَنُدَالُ عليه الْأُخْرَى).

ولما عقب قيصر على إجابات أبي سفيان، كان مما قال: (وَسَأَلْتُكَ هل قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ قد فَعَلَ، وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبَهُ تَكُونُ دُوَلًا، وَيُدَالُ عَلَيْكُمُ المَرَّةَ، وَتُدَالُونَ عليه

الأُخْرَى، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ لها الْعَاقِبَةُ...) [1]

تعرضت الحلقات السابقة، إلى مسألة إلقاء الرعب، وقذفه في قلوب أعداء المسلمين، وتأكيد النبي، صلى الله عليه وسلم، على تحقق نصر الله له بخارق نفسي، أصاب قلوب أعدائه من خلال الرعب الذي انتابها، فألقى الله الهيبة في قلوب المشركين، فانهزموا، بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم، جاء ذلك في سياق الحديث عن الوعد بنصر الله القريب، الذي بشر الله به المؤمنين، في مواضع قرآنية عدة، وفي مناسبات مختلفة، فالنصر المتمثل بالفتح وغيره قريب، وهو لا يكون إلا من الله، الذي وعد المؤمنين به، في مواضع قرآنية عدة، وبخاصة في سياق التعقيب على نتائج لقاءاتهم الحاسمة مع أعدائهم، وقد أكد الله عز وجل هذه الحقيقة الإيمانية، ليبقى المسلمون على ثقة ويقين بأن النصر لن يكون حليفهم، إلا إذا ساقه الله العلي القدير إليهم، ووفق وعوده سبحانه، فإن ذلك قريب منهم، ولو أن بعض الناس يرونه بعيداً، فصبراً صبراً معشر المؤمنين والمرابطين؛ لأن وعد الله آت آت.

حسن العاقبة للرسل، عليهم السلام، ومن والاهم:

حسب المقطع من الحديث الصحيح المذكور أعلاه عن ابن عباس عن أبي سفيان، الذي بيّن فيه عظيم الروم قيصر ما بين، انطلاقاً من خلفيات علم الكتاب الذي لديه، خلال تعقيبه على إجابات أبي سفيان، حيث قال لأبي سفيان: (وَسَأَلْتُكَ: هل قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ قد فَعَلَ، وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبَهُ، تَكُونُ دُوَلاً، وَيُدَالُ عَلَيْكُمُ الْمَرَّةَ، وَتُدَالُونَ عليه الأُخْرَى، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، وَتَكُونُ لها الْعَاقِبَةُ...) [2]

فابتلاء الرسل، عليهم السلام، بالصعاب، واستقواء أعدائهم عليهم، أمر ممكن الحدوث،

1- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، الناس إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.
2- التخريج نفسه.

بل هو حتمي الوقوع، وفق سنن الله التي أقرها في خلقه، والتي منها أن المآلات والعاقبة للمتقين، غير أن كثيراً من الناس لا يفقهون، وتعمي أبصارهم المظاهر الآنية، فبريق القوة ومن يملكها في بعض المراحل يخدع كثيراً من الناس، فيظنون أن من يملك القوة يملك المصير، ويحكم الواقع، دون صبر لانتظار العواقب التي يقطف ثمارها وفق سنة الله الصابرون، المتشبثون بالحق، رغم الصعاب التي تواجههم، والشواهد لهذه الحقيقة العقائدية عديدة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[1]، وبعد سرد جوانب من قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وجه الله نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، إلى التحلي بالصبر على درب انتظار العاقبة الموعودة، فقال تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}[2]، وتعدد مثل هذا التوجيه في مواضع قرآنية عدة، كقوله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}[3]، وقوله تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[4]، فالعاقبة للمتقين بأمر رب العالمين، ومنطوق وعوده، وعِبَر السالفين شاهدة بذلك، فأين قوم عاد وثمود وفرعون وقارون؟ بينما دين الله وتوحيده باق خالد في ربوع العالمين.

تحقق وعد اللّه:

نبه الله جلَّ في علاه بكلامه الكريم، إضافة إلى فعله المبين، إلى أن وعده حق، وهو متحقق لا محالة، ومن ضمن ذلك نصره القريب للمؤمنين ورسله، عليهم السلام، ومن

1. الأعراف: 128.
2. هود: 49.
3. طه:132.
4. القصص:83.

شواهد هذا التنبيه، ما جاء في قوله الكريم: {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[1]

يقول الرازي في التفسير الكبير، عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: اعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ}[2]، وقال في هذه الآية: {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ...}، والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم يقم القيامة، ولم ينتقم للمظلومين من الظالمين، لزم إما كونه غافلاً، وإما كونه مخلفاً في الوعد، ولما تقرر في العقول السليمة أن كل ذلك محال، كان القول بأنه لا يقيم القيامة باطلاً، وقوله: {مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} يعني قوله: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا}[3]، وقوله: {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي}[4]، فإن قيل: هلا قيل مخلف رسله وعده، ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟ أجاب الرازي: ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً، إن الله لا يخلف الميعاد، ثم قال: {رُسُلَهُ} ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحداً، وليس من شأنه إخلاف المواعيد، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، ثم قال: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ}؛ أي غالب، لا يماكر، ذو انتقام لأوليائه. [5]

خاتمة:

في ضوء ما تمَّ الوقوف عنده مما تيسر من شواهد داعمة للإجابة الربانية عن تساؤل الرسل، عليهم السلام، والمؤمنين، الذي صدر عنهم في أجواء حالكة، وظروف معقدة وصعبة، بلغت بسبب بعضها في أحوال معينة قلوب بعضهم الحناجر، وزاغت أبصار أصحابها، وظن بعضهم في الله الظنونا، فقد تبين أن الرد الرباني الحاسم بقرب نصر الله، له مؤيداته الكثيرة، بل إن القرآن الكريم يحفل بدعم هذه الحقيقة الإيمانية ومعاضدتها، وقد احتاج

1- إبراهيم:47.
2- إبراهيم: 42.
3- غافر: 51.
4- المجادلة: 21.
5- التفسير الكبير، 19/ 115.

إلى الطمأنة بها الرسل، عليهم السلام وأتباعهم، فيما مضى من زمان، ونحن القابضون على الجمر من بعدهم، نتلمس نفحاتها، لتطمئن قلوبنا أكثر، ويهدأ روع نفوسنا، ومن أراد المزيد من الشواهد لهذه القضية، يجد ضالته في السور القرآنية، وبخاصة المكية منها، ففيها قصص السالفين، ومعززات الصبر ودواعيه، التي يحتاج إلى الاتعاظ بها أمثالنا في هذا الوطن الجريح، فقد بلغ السيل الزبى، وتجاوز الظالمون المدى، وليس لنا إلا الله، نلجأ إليه ونناجيه، بقول خيارنا: اللهم إليك نشكو ضعف قوتنا، وقلة حيلتنا، اللهم إن لم يكن بك علينا غضب فلا نبالي، سائلين الله العلي القدير أن يثبت قلوبنا على اليقين بالحق، وأن لا يزغها بعد إذ هداها، حتى نلقاه رافعي الهامات بإيماننا، وصبرنا، ومصابرتنا، ورباطنا على درب الأبرار من عباده ورسله، عليهم السلام، وخاتمهم نبينا محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

لن تهلك أمته بسنة ولا قحط

عن ثَوْبَانَ قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زوي لي منها، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قال: يا محمد، إني إذا قَضَيْتُ قَضَاءً فإنه لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عليهم من بِأَقْطَارِهَا، أو قال من بين أَقْطَارِهَا، حتى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا) (*)

في ظل الأخبار المتعلقة بالزلازل الخفيفة العديدة التي ضربت بلادنا مؤخراً، وتوقعات علماء الجيولوجيا بأن زلزلة قوية قادمة لا محالة على منطقتنا، وأنها ستكون مدمرة، حتى إن بعضهم تحدث بالأرقام عن مستوى الدمار وآثاره التي ستقع عقب وقوع الزلزلة الحتمية القادمة، وبعيداً عن تصديق هذه التوقعات أو تكذيبها، أو الشك في مصداقيتها، يحسن الوقوف عند بعض القضايا الشرعية ذات الصلة، والتي تأتي دلالة الحديث النبوي أعلاه في سياقها، ومن أبرز ما تشمله تلك الدلالة بخصوص مسألة البحث ما يأتي:

الرسول، صلى الله عليه وسلم، سأل الله لأمته أن لا يهلكها بسنة عامة، والمراد بالسنة هنا القحط والجدب.

وسأل الرسول، صلى الله عليه وسلم، لأمته كذلك أن لا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم.

قوله: (من سوى أنفسهم) صفة، عدواً، أي كائناً من سوى أنفسهم، فيستبيح - أي

* صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.

العدو- وهو مما يستوي فيه الجمع والمفرد، أي يستأصل بيضتهم، قال الجزري في النهاية: أي مجتمعهم، وموضع سلطانهم، ومستقر دعوتهم، وبيضة الدار وسطها.[1] والله من جانبه سبحانه وتعالى تضمن رده على سؤالي النبي، صلى الله عليه وسلم، ما يأتي:

التأكيد على نفاذ قضاء الله وقدره، حيث قال سبحانه: (إني إذا قَضَيْتُ قَضَاءً فإنه لَا يُرَدُّ) ومعنى (إذا قَضَيْتُ قَضَاءً) أي حكمت حكماً مبرماً، (فإنه لَا يُرَدُّ)؛ أي بشيء، بخلاف الحكم المعلق بشرط وجود شيء أو عدمه.[2]

(وإني أعطيتك)؛ عهدي وميثاقي، (لأمتك) لأجل أمة إجابتك، (أن لا أهلكهم بسنة عامة)؛ أي بحيث يعمهم القحط، ويهلكهم بالكلية، وقوله: (ولو اجتمع عليهم من) أي الذين هم (بأقطارها) أي بأطرافها، جمع قطر، وهو الجانب والناحية، والمعنى فلا يستبيح عدو من الكفار بيضتهم، ولو اجتمع على محاربتهم من أطراف بيضتهم.

قوله: (حتى يَكُونَ بَعْضُهُمْ) قال الطيبي: حتى بمعنى كي، أي لكي يكون بعض أمتك يهلك بعضاً، فقوله: (إني إذا قضيت قضاء فلا يرد) توطئة لهذا المعنى.

قال المظهر: اعلم أن في خلق الله قضاءين، مبرماً ومعلقاً بفعل، كما قال تعالى:{يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}[3]

والقضاء المبرم، هو الذي قدره سبحانه في الأزل، من غير أن يعلقه بفعل، فهو في الوقوع نافذ غاية النفاذ، فلا يتغير بحال، ولا يتوقف على المقضي عليه، ولا المقضي له؛ لأنه من علمه بما كان، وما يكون، وخلاف معلومه مستحيل قطعاً، وهذا من قبيل ما لا يتطرق إليه المحو والإثبات، قال تعالى:{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[4] ، وقوله: (إذا قضيت قضاء فلا يرد) من القبيل

1- تحفة الأحوذي، 6/ 332.
2- تحفة الأحوذي، 6 /333.
3- الرعد:39.
4- الرعد: 41.

الثاني، ولذلك لم يجب إليه.[1]

أمة الإسلام لن تنقرض:

مسألة انقراض أمة الإسلام عن الوجود حسم أمر نفيها، فلن يحدث لها ذلك لا بزلازل ولا بغيرها، إذ إن بقاءها ضمنه الله تعالى بحرزه وكفالته، وأكد ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (لا يزال طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ)[2]

وهذا لا يعني ضمان سلامة بعض الأمة من التعرض للكوارث والزلازل الطبيعية التي تلحق بالناس؛ صالحهم وطالحهم، في بعض الظروف والأحوال، ومثل هذا التعرض لا يناقض الضمان الرباني لأمة الإسلام من الانقراض بقحط، أو هلاك بجدب، أو كوارث، فلن يحصل لها هذا بإذن الله ورعايته وحفظه سبحانه، مما يعني طمأنة المسلمين في الزمان كله حيال هذه الحقيقة، فكيف إذا ما أضيف إليها ضمان رباني آخر، من مثل ما يتضمنه قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[3]

وهذه الطمأنة لا تعني إهمال الأخذ بأسباب البقاء، ووسائل الوقاية من الكوارث والزلازل وغيرها من المهلكات، فالمسألة برمتها يمكن الوقوف منها وقوفاً يتماشى مع روح الإيمان بالقضاء والقدر، بالتوازي مع ضرورة الأخذ بأسباب النجاة من المهلكات، والوقاية من الكوارث.

سائلين الله العلي القدير أن يلطف بنا، وأن ينجينا من الشر والضر، إنه سبحانه خير حافظ، ونعم المولى والنصير، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- تحفة الأحوذي، 6/ 333.

2- صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم، «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق.» وهم أهل العلم

3- يونس: 62.

أخبر أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد أو وفاته

الحلقة الأولى

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أنها قالت: (خَسَفَت الشَّمْسُ في عَهْدِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَصَلَّى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِالنَّاسِ، فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ قام فَأَطَالَ الْقِيَامَ، وهو دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، وهو دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ، ثُمَّ فَعَلَ في الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ ما فَعَلَ في الأُولَى، ثُمَّ انْصَرَفَ، وقد انْجَلَتْ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ الناس، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ من آيَاتِ اللَّهِ لا يخسفان لِمَوْتِ أَحَدٍ ولا لِحَيَاتِهِ، فإذا رَأَيْتُمْ ذلك فَادْعُوا اللَّهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا، ثُمَ قال: يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، واللَّهِ ما من أَحَدٍ أَغْيَرُ من اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أو تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، واللَّهِ لو تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) (*)

عطفاً على حادثة الخسوف الكلي للقمر، حيث بدأت هذه الحادثة الكونية عندما قاربت الساعة الثامنة والنصف قبيل موعد أذان عشاء يوم 27 /7 /2018م، وانتهت عند الساعة الثانية والنصف قبيل فجر يوم السبت التالي، ومكثت هذه الحادثة خلال مراحلها المتعددة ما يقارب (103) دقائق، وهي أطول فترة لحادثة خسوف للقمر تحدث منذ ثلاثة وثمانين عاماً، حسب تصريحات جهات فلكية متابعة. شكلت هذه الحادثة من حيث الظاهر تغيراً طرأ على شكل القمر، حتى عاد في نهايتها إلى وضعه الطبيعي، بدراً يعكس نوراً ساطعاً يضيء مساحات

* صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف.

شاسعة من الأرض، التي أخفى ظلها هذا النور خلال حادثة الخسوف. فالظاهرة الكونية كشفت عنها حسبة فلكية دقيقة، فلفتت الأنظار، وأخذت العقول، واستشعر الخلق منزلة العلماء الذين حددوا بدقة متناهية مراحل تطورها، منذ ساعة البدء وحتى لحظة الانتهاء، ومما لا ريب فيه أن الله الذي خلق هذا النظام، وأحسن تدبيره بهذه الدقة المتناهية، أولى بالإقرار له سبحانه بالعظمة، فالعلماء اكتشفوا جزءاً من نظامه فكانوا عظماء، وهو سبحانه أوجد النظام الكوني الدقيق، ولفت الانتباه إلى أن تغيراً بسيطاً يجري عليه، يحدث فزعاً لدى الخلق، ويثير انتباههم إلى حالة يُكسر بها المألوف، فهي لا شك آية جديرة بالتأمل والتدبر، بهدف استشعار عظمة الله في خلقه، وما يجلبه نظامه الكوني الدقيق للخلق من منافع ومصالح، جديرة بالشكر والحمد لله خالقها.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، رفض ربط أي من ظواهر الشمس والقمر بأمور تجري على الكون في مجالات أخرى، فموت ابنه إبراهيم اعتبر في رأي بعض الناس السبب لحدوث الخسوف الذي توافق حدوثه معه، لكن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أنكر هذا الربط غير العلمي، وأرجع الأمور إلى حقائقها، فالقمر والشمس آيتان من آيات الله، لا يطرأ عليهما الخسوف والكسوف بسبب ميلاد أحد من الخلق أو موته، فلكل من الناحيتين نظام رباني دقيق، وقدر أجراه الله سبحانه، يترك للمتدبر في حركته وتغيراته مجالاً رحباً لاستشعار عظمة خلق الله، وهو القائل جل وعلا: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}(*)

الشمس والقمر آيتان:

يلفت الحديث أعلاه إلى آيتي الشمس والقمر، فالله خلقهما في أحسن تدبير، وجعل لهما منافع للكون وحركته، وعيش الكائنات المخلوقة الأخرى، وكما هو ثابت

* لقمان:11.

علمياً أن الشمس لو ارتفعت عن موقعها لتجمد الكون من البرودة، ولو دنت عن موقعها لاحترق من شدة حرارتها، وهي تبزغ يومياً وتغيب وفق نظام زماني دقيق، وضوؤها يُغني الخلق عن استخدام الإنارة، حتى إذا ما دخل الليل، احتاجوا إلى الكهرباء وغيرها من مصادر الإنارة والضوء، وفي بعض الأحيان يستخدم ما يخزن من أشعة الشمس بعد غروبها وفق آلية علمية وأدوات صناعية تعد لهذه الغاية.

وحين يحدث تغيير جذري على جهتي بزوغها وغروبها، تصبح آية عظيمة دالة على قرب قيام يوم الساعة، والله تعالى يقول: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ}[1]

والشمس ستتكور، مصداقاً لقوله تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}[2]، والسورة التي احتوت هذه الآية الكريمة سميت بالتكوير، ومن الآيات التي أحدثها الله للقمر أن شقه بناء على رغبة طالبي الآيات، فقال عز وجل بالخصوص في سورة القمر: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ}[3]

فهذه تأملات في بعض المسائل العقائدية المتعلقة بالشمس والقمر، بمناسبة الحديث عن خسوف القمر، الذي تمت مشاهدته، عسى أن ييسر الله متابعة الحديث عن بعض المسائل الفقهية المتعلقة بهذه القضية، ونسأله سبحانه أن يلهمنا الصواب، ويهدينا سبيل الرشاد، لنكون ممن يتأملون في خلقه فيتعظون ويعتبرون، على درب نبينا الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.الأنعام:158.
2. التكوير:1.
3. القمر:1.

أخبر أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد أو وفاته

الحلقة الثانية والأخيرة

عن أَسْمَاءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ، رضي الله عنهما، أنها قالت: (أَتَيْتُ عَائِشَةَ، رضي الله عنها، زَوْجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، حين خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فإذا الناس قِيَامٌ يُصَلُّونَ، وإذا هِيَ قَائِمَةٌ تُصَلِّي، فقلت: ما لِلنَّاسِ؟ فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا إلى السَّمَاءِ، وَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فقلت: آيَةٌ؟ فَأَشَارَتْ أَيْ نعم، قالت: فَقُمْتُ حتى تَجَلاني الْغَشْيُ، فَجَعَلْتُ أَصُبُّ فَوْقَ رَأْسِي الْمَاءَ، فلما انْصَرَفَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، حَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: ما من شَيْءٍ كنت لم أَرَهُ إلا قد رَأَيْتُهُ في مَقَامِي هذا، حتى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ في الْقُبُورِ مِثْلَ، أو قَرِيبًا، من فِتْنَةِ الدَّجَّالِ- لا أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قالت أَسْمَاءُ- يُؤْتَى أحدكم، فَيُقَالُ له: ما عِلْمُكَ بهذا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أو الْمُوقِنُ لا أَدْرِي أَيَّ ذلك، قالت أَسْمَاءُ: فيقول: مُحَمَّدٌ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا، وَآمَنَّا، وَاتَّبَعْنَا، فَيُقَالُ له: نَمْ صَالِحًا، فَقَدْ عَلِمْنَا إن كُنْتَ لَمُوقِنًا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أو الْمُرْتَابُ -لا أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قالت أَسْمَاءُ- فيقول: لا أَدْرِي، سمعت الناس يَقُولُونَ شيئاً، فَقُلْتُهُ) (*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى رفض الرسول، صلى الله عليه وسلم، ربط أي من ظواهر الشمس والقمر بحياة الناس أو وفاتهم، وأرجع الأمور إلى حقائقها، فالقمر والشمس آيتان من آيات الله، خلقهما في أحسن تدبير، وجعل لهما منافع للكون وحركته، وعيش الكائنات المخلوقة الأخرى، ولا يطرأ عليهما الخسوف والكسوف بسبب ميلاد أحد من

* صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب صلاة النساء مع الرجال في الكسوف.

الخلق أو موته، فلكل من الموت والحياة والكون نظام رباني دقيق تجري الأمور بشأنهما وفقه، وقد أري النبي، صلى الله عليه وسلم، خلال برهة خسوف القمر الذي شاهده الجَنَّةَ وَالنَّارَ، وأُوحِيَ إليه أَنَّا سنفتن في الْقُبُورِ، مِثْلَ أو قَرِيبًا من فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وأننا سنسأل فيها عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، والْمُؤْمِنُ أو الْمُوقِنُ يشهد بالحق، ويجازى بالمثوبة، بخلاف المرتاب والمنافق الذي يجيب حسب حاله المنتاب بالتردد والحيرة، مما يعني ضرورة التعوذ من الفتن، أعاذنا الله مما ظهر منها وما بطن، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة القبر، ومن فتنة يوم الحساب، ويسر لنا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

اللجوء إلى العبادة:

ظاهرة الخسوف أو الكسوف تخرج عن مألوف حالتي الشمس والقمر، وهي تلفت الانتباه، وتستجلب الأنظار للتأمل في هاتين الآيتين العظيمتين، مما يقود إلى التفكير في هذين المخلوقين ونظامهما، الذي من شدة إلفه لدى الناس لا يتأملونه، ولا يفكرون في دقته، وعظمة خلقه وفوائده لهم، ومما يستدعي النظر والتأمل من ناحية أخرى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وجه المسلمين ليفزعوا إلى الذكر، والصلاة، والاستغفار عند حدوث أي من ظاهرتي الخسوف والكسوف، ومارس ذلك بنفسه، فشرع لهما صلاة خاصة فيهما، بينها تشابه مع الصلوات اليومية المعتادة، واختلاف بينَّ عنها، وكأن في ذلك -والله أعلم- تماشياً مع الاختلاف الحاصل في هاتين الظاهرتين عن مسيرتي الشمس والقمر المعتادتين.

فاللجوء إلى العبادة والصلاة عند حدوث الخسوف أو الكسوف، هو سنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومن مجريات هذه السنة اللجوء إلى أداء الصلاة، والانشغال بها، وبالذكر حتى ينجلي القمر، ويعود لوضعه الطبيعي المعتاد، وكذلك بالنسبة إلى الشمس، فثبت عنه صلى الله عليه وسلم، أن صلى عند الخسوف ركعتين، في كل واحدة منهما قيامان

وركوعان، كما هو مبين في الأحاديث الصحيحة، التي منها، ما روي عن أبي مُوسَى، قال: (خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَزِعًا يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فَأَتَى المَسْجِدَ، فَصَلَّى بِأَطْوَلِ قِيَامٍ، وَرُكُوعٍ، وَسُجُودٍ، رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وقال: هذه الآيَاتُ التي يُرْسِلُ الله لا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ ولا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ، فإذا رَأَيْتُمْ شيئاً من ذلك، فَافْزَعُوا إلى ذِكْرِهِ، وَدُعَائِهِ، وَاسْتِغْفَارِهِ)[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: (...فإذا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْزَعُوا إلى الصَّلَاةِ)[2]

فالخسوف والكسوف يبعثان إلى الفزع، وتَذكر القيامة، التي تتغير فيها حركة الكون ومعالمه، وصلاتهما تكون بركوعين وقيامين، لكل من الركعتين، بالصفة المبينة في الأحاديث الصحيحة، ويُنادى إليها، ليس بإقامة، كما في غالب الصلوات الأخرى، وإنما كما ينادى لصلاة العيد، بقول: الصلاة جامعة، فعن عُرْوَةَ عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها (أَنَّ الشَّمْسَ خَسَفَتْ على عَهْدِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَبَعَثَ مُنَادِيًا بالصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَتَقَدَّمَ، فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ في رَكْعَتَيْنِ، وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ... قال الزُّهْرِيُّ: فقلت: ما صَنَعَ أَخُوكَ ذلك، عبد اللَّهِ بن الزُّبَيْرِ، ما صلى إلا رَكْعَتَيْنِ مِثْلَ الصُّبْحِ، إِذْ صلى بِالْمَدِينَةِ، قال: أَجَلْ إنه أَخْطَأَ السُّنَّةَ)[3]

فهذا ما تيسر الوقوف عنده من المسائل العقائدية والفكرية والفقهية المتعلقة بالخسوف والكسوف، سائلين الله العلي القدير أن يهدينا لحسن عبادته وطاعته، في أحوالنا كلها، على درب نبينا الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف.
2 صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب خطبة الإمام في الكسوف.
3. صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب الجهر بالقراءة في الكسوف.

طمأنه ربه عز وجل إلى عطائه وإحسانه

يخاطب الله سبحانه نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}(1)

جاء في التفسير أن المراد بالخرْجِ هنا الأجر والجزاء، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم، لا يسأل الناس أجراً في مقابل تبليغ الرسالة.(2)

وورد ذكر الخرج في القرآن الكريم بهذا المعنى في سورة الكهف، حيث يقول تعالى: {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً}.(3)

يروي ابن كثير عن ابن عباس، في معنى قوله تعالى: {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً}قال: أجراً عظيماً، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه، حتى يجعل بينه وبينهم سداً، فرد ذو القرنين بعفة وديانة، وصلاح، وقصد للخير{قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ...}(4)؛ أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين، خير لي من الذي تجمعونه، كما جاء عن سليمان، عليه السلام، في قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ}(5)(6)

فالمؤمنون، وعلى رأسهم الأنبياء، عليهم السلام، يؤمنون بما لا يدع مجالاً لأي ريب، أن عطاء الله هو الخير، وما دونه لا يقارن بحال به، فمن حاز عطاء الله استغنى عما سواه، لأن

1. المؤمنون: 72.
2. أضواء البيان، 5/ 344.
3. الكهف: 94.
4. الكهف: 95.
5. النمل: 36.
6. تفسير ابن كثير، 3 /105.

عطاء الله إن تيسر للمرء فهو الأوسع والأنفع والأبقى، من هنا يأتي دور التربية الإيمانية في ترسيخ هذا الإيمان في القلوب، ليثمر أصحابها مواقف حق ثابتة، لا تزعزعها ضغوط المغرضين، ولا تعسير المتربصين، فخراج الله خير من خرج العباد، وعطاؤه ليس له مثيل، فلم الخوف إذن على الأرزاق والمستقبل، وهما بيد الله دون سواه؟!

العمل لله طمعاً في جزائه:

من ثمرات الإيمان بأن عطاء الله خير من عطاء سواه، أن المؤمن بذلك يرجو جزاء أعماله من الله وحده، حتى حين يبذل المال من جيبه، فإنه لا ينتظر من متلقي هذا البذل جزاء ولا شكوراً، مصداقاً لقوله تعالى فيهم:{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُوراً}[1]، جاء في التفسير، أن قوله تعالى: {إنما نطعمكم لوجه الله}عبارة عن الإخلاص لله، ولذلك فسروه وأكدوه بقولهم: {لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُوراً} والشكور مصدر، كالشكر، ويحتمل أنهم قالوا هذا الكلام بألسنتهم، أو قالوه في نفوسهم، فهو عبارة عن النية والقصد. [2]

والمؤمن الغني يرى أنه مستخلف على ما في يده من ثروة، فالمال لله، وما هي إلا الأقدار الربانية، التي اقتضت أن يكون هو غني من الأغنياء، وغيرهم فقراء يتلقون منهم البر والإحسان، والله جل في علاه نبه إلى هذا الجانب خلال الحث على البذل والعطاء للفقراء، فخاطب الأغنياء قائلاً: {...وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ...}[3]

الله يغني من فضله ويسد الحاجات:

من ثمرات الإيمان بأن ما عند الله خير وأبقى، أن المؤمن بذلك لا يرتعد خوفاً من حجب الخلق الرزق عنه، لأنه يركن إلى صاحب الفضل والمنة سبحانه، الرزاق ذو القوة المتين،

1- الإنسان: 9.
2- التسهيل لعلوم التنزيل، 4/ 168.
3- النور: 33

وقد حذر الله عز وجل من التردد في الالتزام بشرعه وحكمه، جراء الخوف على الموارد الاقتصادية من أن تحجب، أو تعرقل، أو يضيق نطاقها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.[1]

جاء في التفسير، أن قوله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ} أيها المسلمون، {عَيْلَةً} أي فقراً وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، {فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ} فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجه الله الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين، وقد أنجز الله وعده، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك، وقوله: {إِن شَاء} تعليق للإغناء بالمشيئة؛ لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة، واللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.[2]

فما أحوج شعبنا الصامد المرابط، الصابر المصابر، إلى الاطمئنان إلى هذه المعاني الإيمانية، ليزداد تمسكاً بحقه، ويتعزز إصراره على نيل حقوقه المشروعة، دون أن يخضع لإملاءات زيد أو عمرو من الخلق، وله خير أسوة بذلك في المواقف الإيمانية الراسخة الواضحة التي سطرها الأنبياء، عليهم السلام، وخاتمهم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- التوبة: 28.

2- تفسير السعدي، 1 /333 - 334.

وَعْدُهُ بانتصار الإسلام حقٌ، ووعْدُ بلفور باطل ومشؤوم

الحلقة الأولى

عن خَبَّابِ بن الأَرَتِّ، قال: (شَكَوْنَا إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا؟! ألا تَدْعُو اللَّهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ، يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ، حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللَّهَ، أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ) (*)

وعد الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، المؤمنين برسالته بحتمية انتصار الإسلام، فأقسم بالله في هذا الحديث الشريف على أن الإسلام سينتصر، وسيتحقق الأمن به، جاء ذلك في سياق الرد على الشاكين من قسوة الأحوال، وصعوبة الظروف، والشاكون كانوا من صحابته، صلى الله عليه وسلم، جاءوا إليه طالبين الاستنصار بدعائه، أن يرفع الله عنهم ما بهم من بلاء وشدة، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن استحضر أمامهم مشهداً مروعاً، تجسد فيه حجم الابتلاء الذي صبر أمامه مؤمنون من الأمم السابقة، وأسند عليه الصلاة والسلام استحضار هذا المشهد المحفز على الصبر والجلد، بالتأكيد المشفع بالقسم، بأن الإسلام سينتصر، وسيعم الأمن بانتصاره.

* صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

ما أشبه اليوم بالبارحة:

ما عاناه الصحابة، رضي الله عنهم، من شدة المحن التي دفعتهم لسؤال النصر، اشتركوا فيها مع سابقيهم، ويشترك معهم فيها من جاءوا بعدهم من مضطهدي الظالمين، وما يعانيه المسلمون اليوم من قسوة الابتلاءات، يصلح شاهداً بامتياز لهذه الحقيقة التاريخية، فالابتلاء يعم جُلَّهم، وإن اختلفت مستوياته بينهم، فبعضهم أمنه مهدد، وحياته في خطر، وماله في مهب الريح، ليس لشيء، سوى لأنه ينتمي إلى دين الإسلام، فيصدق فيهم ما استنتجه أسلافهم المبتلين في سبيل تمسكهم بالحق المبين، من أمثال سحرة فرعون، الذين توعدهم بعد أن آمنوا، قائلاً: {لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ}[1]، فردوا عليهم بثبات ويقين: {قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ* وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}.[2]

وإلى جانب هذا السبب الرئيس لتكالب الأمم على المسلمين، فإن أحوالهم اليوم تساعد المتربصين بهم وبدينهم على تحقيق مزيد من تشديد الخناق عليهم، فهم منقسمون على أنفسهم أحزاباً وفرقاً متناحرة، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ومن كان هذا حاله، فالفشل سيكون من حظه ونصيبه، مصداقاً لقوله جل في علاه: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}.[3]

وعد بلفور باطل ومشؤوم:

رغم أجواء التشرذم والفشل التي تعم أوساط المسلمين اليوم، نتيجة التربص بهم،

1. الأعراف:124.
2. الأعراف:125 - 126.
3. الأنفال:46.

وبسبب سوء ما كسبت أيديهم، وسلبيات مواقفهم، إلا ما رحم الله منها، لا بدَّ من تذكيرهم بذكرى أليمة تمر اليوم بجزء مهم من بقاعهم وإخوانهم، تلكم هي ذكرى الوعد الباطل الذي منحه من لا يملك لمن لا يستحق، ففي الثاني من تشرين الثاني لعام 1917، أرسل آرثر جيمس بلفور إلى أحد الزعماء اليهود البريطانيين، ويدعى باللورد ليونيل والتر دي روتشيلد، رسالة تضمنت الإعلان عن تأييد بريطانيا لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، فكانت هذه الرسالة بمثابة وثيقة رسمية بريطانية، أسست لإقامة كيان للصهاينة على أرض فلسطين، ونتج عن هذا الوعد المشؤوم إقامة كيان غريب ظالم في فلسطين، بعد أن احتلها بالسلاح المدجج، والغطرسة البجحة، والمساندة الظالمة، والتخاذل المخزي.

الوعد القرآني بانتصار الإسلام:

وعد بلفور وما تبعه من وعود ضالة على شاكلته، لكيان الاحتلال الصهيوني بالترعرع في أرض الإسراء والمعراج، وقبلة المسلمين الأولى، لن يطول بباطله المقام، لأن المناهض الأكبر لذلك بقوة هو رب العالمين، وهو القائل جل ذكره:{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[1]، ويقول عز وجل:{يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ}[2]

وما وعده الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، للمسلمين بانتصار دينهم، وشيوع الأمن في ظلاله، يسانده الوعد الحق لهم بالنصر والتمكين، المتضمن في قول رب العالمين:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

1. التوبة:32.
2. الصف:8.

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}(*)

فهذه وقفة تأكيدية للإيمان بحتمية انتصار الإسلام بصفته دين الله الحق، وشيوع الأمن به، فالنصر الموعود قادم، رغم أنف بلفور، ومن اختار السير على دربه وشاكلته، آملين التوفيق لمتابعة الوقوف عند ما يتيسر من مجالات هذه القضية الإيمانية، في الحلقة القادمة من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*. النور: 55

الرسول الأسوة محمد ﷺ

وَعْدُهُ بانتصار الإسلام حقٌ، ووعْدُ بلفور باطل ومشؤوم

الحلقة الثانية والأخيرة

عن ثَوْبَانَ قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زوي لي منها، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ؛ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي، أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قال: يا محمد، إني إذا قَضَيْتُ قَضَاءً، فإنه لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عليهم من بِأَقْطَارِهَا، أو قال من بين أَقْطَارِهَا، حتى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا) (*)

في الحلقة السابقة تم الوقوف عند وعد الرسول، المشفوع بقسمه عليه الصلاة والسلام، بحتمية انتصار الإسلام، وتحقق الأمن به، جاء ذلك في سياق الرد على الشاكين من قسوة الأحوال، وصعوبة الظروف، التي اشتركوا فيها مع سابقيهم، ويشترك معهم فيها من جاءوا بعدهم من مضطهدي الظالمين، وأشارت الحلقة إلى وعد بلفور الذي تمر ذكراه سنوياً في الثاني من تشرين الثاني، وهو وعد باطل ومشؤوم، منحت فلسطين بموجبه ممن لا يملك لمن لا يستحق، بما أسس لإقامة كيان للصهاينة على أرض فلسطين، بعد أن احتلها بالسلاح المدجج، والغطرسة البجحة، والمساندة الظالمة، والتخاذل المخزي، ووفق إيماننا فإن هذا الكيان إلى زوال، ولن يطول بباطله المقام؛ لأن المناهض الأكبر له هو رب العالمين، الذي وعد بأن يُتِمَّ أمرَ الإسلام، وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ.

* صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.

الوعد باتساع رقعة الإسلام:

الحديث النبوي الصحيح المذكور آنفاً، يتضمن وعوداً تشجيعية للمسلمين رغم ما يمر بهم من قسوة الظروف، وضعف الأحوال، والمقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: (زَوَى لي الأَرْضَ)؛ أي جمعها لأجله، فقرب له البعيد منها، حتى اطّلع عليه إطلاعه على القريب منها، (فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا)؛ أي جميعها، (وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زوي لي منها)؛ أي إن الأرض زويت له جملتها مرة واحدة، فرأى مشارقها ومغاربها، ثم هي تفتح لأمته جزءاً جزءاً، حتى يصل ملكها إلى كل أجزائها، وقوله: (وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ؛ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ)؛ أي كنزي الذهب والفضة، وقيل: المراد بالأحمر والأبيض خزائن كسرى وقيصر، وذلك أن الغالب على نقود ممالك كسرى الدنانير، والغالب على نقود ممالك قيصر الدراهم، وقوله: (بِسَنَةٍ عَامَّةٍ)؛ أي بقحط شائع لجميع بلاد المسلمين، وقوله: (وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا) وهم الكفار، وقوله: (من سِوَى أَنْفُسِهِمْ)؛ أي عدواً من سوى أنفسهم، (فَيَسْتَبِيحَ) أي العدو، وهو مما يستوي فيه الجمع والمفرد؛ فيستأصل بيضتهم، أي مجتمعهم، وموضع سلطانهم، ومستقر دعوتهم، وبيضة الدار وسطها.[1]

فهذا وعد حق من النبي، صلى الله عليه وسلم، يطمئن المسلمون إليه، رغم حالات الضعف التي يمرون بها في بعض الظروف والأحوال، فلا خوف على اندثار إسلامهم، أو فنائهم عن الوجود، ويساند هذا الوعد القطع ببقاء طائفة من المسلمين قائمة بالحق، حيث يقول صلى الله عليه وسلم: (لا يزال طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ)[2]، وفي رواية أخرى، يقول: (لا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ، حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)[3]

1- بتصرف عن تحفة الأحوذي، 6 /332.

2- صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق). يقاتلون وهم أهل العلم.

3- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم).

اليقين بوعد الله ورسوله ،صلى الله عليه وسلم:

المؤمنون بالله رباً، وبالقرآن الكريم دستوراً، وبمحمد نبياً ورسولاً، صلى الله عليه وسلم، يثقون بالوعود القاطعة لهم بالنصر والتمكين، التي يجدونها في كتاب الله وسنة نبيه المصطفى، عليه الصلاة والسلام، دون أن يساورهم شك بها، بغض النظر عن وعود الظالمين المضادة لها، فشتان بين الوعد الحق، ووعود الباطل التي تصدر عن الظالمين والمتحيزين، وسيأتي على الناس يوم تتبدى لهم فيه الحقيقة، التي يعبر عنها قوله تعالى: {... كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ}.(1)

الأخذ بأسباب النصر والتمكين:

بالتوازي مع الإيمان بصدق الوعود الربانية والنبوية بحتمية انتصار الإسلام، والتمكين لأهله، فإن المؤمن يعتقد أن الأمور تجري في الكون وفق قضاء الله وقدره، وفي إطار مشيئته سبحانه، وأن الله جعل لكل أمر قَدَّره سبباً، ومن ذلك التمكين في الأرض والنصر، لهما أسباب مطلوب الأخذ بها، وعلى رأسها الإيمان الصادق، والتقوى والصلاح، والاستقامة على دين الله، والإخلاص لله في الأعمال والنوايا والمقاصد، والصبر على الشدائد، والمصابرة، وقد تضمنت خاتمة سورة آل عمران، جملة مهمة من هذه الأسباب، التي أمر الله المؤمنين بالأخذ بها، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(2)

سائلين الله العلي القدير أن يرفع مقته وغضبه عن المسلمين، وأن يهديهم صراطه المستقيم، وأن ينصر دينه بهم، كما نصره على يد نبيهم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1- الرعد:17.
2- آل عمران:200.

إسراؤه إلى المسجد الأقصى المبارك رسخ الارتباط العقائدي للمسلمين به

عن جَابِرَ بن عبد اللَّهِ، رضي الله عنهما، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لَمَّا كذبتني قُرَيْشٌ، قُمْتُ في الحِجْرِ، فَجَلَا الله لي بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عن آيَاتِهِ، وأنا أَنْظُرُ إليه) [1]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لقد رَأَيْتُنِي في الحِجْرِ، وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عن مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عن أَشْيَاءَ من بَيْتِ المَقْدِسِ لم أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً ما كُرِبْتُ مثله قَطُّ، قال: فَرَفَعَهُ الله لي، أَنْظُرُ إليه، ما يَسْأَلُونِي عن شَيْءٍ إلا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ...). [2]

يؤكد هذان الحديثان الشريفان حقيقة أن إسراء الله بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، كان إلى بيت المقدس، وهو مكان معروف في الشام، مما لا يدع مجالاً لتصديق المروجين لإشاعة خبر مختلق على التاريخ، حيث يقولون: إن المسجد الأقصى يقع في محيط الجزيرة العربية، وليس خارجها، فهو الأبعد فيها عن المسجد الحرام، وتلك لعمري فرية عظيمة، ينقضها خبر الحادثة، حسب الوارد في السنة النبوية، والسيرة العطرة، وتفاسير علماء الأمة الثقات، لقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [3]

1. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال.
3. الإسراء:1.

في رحاب تفسير آية الإسراء:

جاء في تفسير البغوي، أن معنى {سبحان} التنزه من كل سوء، ووصف بالبراءة من كل نقص، على طريق المبالغة، وتكون سبحان بمعنى التعجب {أَسْرَى بِعَبْدِهِ} أي سيره، وكذلك سرى به، والعبد هو محمد، صلى الله عليه وسلم،{مِّنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ} قيل: كان الإسراء من مسجد مكة؛ أي من الحرم، {إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} يعني بيت المقدس، وسمي أقصى؛ لأنه أبعد المساجد التي تزار، وقيل لبعده من المسجد الحرام، {الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} بالأنهار والأشجار والثمار، وقال مجاهد: سماه مباركاً؛ لأنه مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة والوحي، وفيه الصخرة، ومنه يحشر الناس يوم القيامة، {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}؛ أي من عجائب قدرتنا والآيات الكبرى، {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ذكر السميع لينبه على أنه المجيب لدعائه، وذكر البصير لينبه على أنه الحافظ له في ظلمة الليل.[1]

وفي تفسير ابن كثير: {ليلاً}؛ أي في جنح الليل، {إلى المسجد الأقصى} هو بيت المقدس الذي بإيلياء، معدن الأنبياء، من لدن إبراهيم الخليل، عليه السلام.[2]

وفي التسهيل لعلوم التنزيل، أن فائدة قوله {ليلاً}مع أن السري هو السير بالليل، فالجواب أنه أراد بقوله {ليلاً} بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء، وأنه أسري به في بعض الليل مسيرة أربعين ليلة، وذلك أبلغ في الأعجوبة.[3]

ويذكر الرازي الاتفاق على أن المراد بالمسجد الأقصى في آية الإسراء هو بيت المقدس، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام.[4]

1. تفسير البغوي، 3 /92.
2. تفسير ابن كثير، 3 /3.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 2 /166.
4. التفسير الكبير، 20 /117.

الأحاديث الصحيحة تؤكد أن الإسراء تم إلى بيت المقدس:

إضافة إلى النص القرآني في فاتحة سورة الإسراء على أن الله أسرى بنبيه، صلى الله عليه وسلم، إلى المسجد الأقصى، وما جاء في مصادر التفسير ومراجعه من نص صريح على أن الإسراء كان إلى بيت المقدس، فإن العديد من الأحاديث النبوية الصحيحة، نصت كذلك على هذه الحقيقة التاريخية، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: (في قَوْلِهِ تَعَالَى: {وما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا التي أَرَيْنَاكَ إلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} قال: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ، أُرِيَهَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قال: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ في الْقُرْآنِ} قال: هِيَ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ)[1]

فالإسراء بالرسول، صلى الله عليه وسلم، مصرح به بما لا يدع مجالاً للشك بأنه كان إلى بيت المقدس، وذكر في بعض الروايات أنه كان إلى (إيلياء)، ومعروف أنها اسم من أسماء القدس، حسب ما كان يطلق عليها في بعض العصور التاريخية، ففي الحديث الصحيح يقول أبو هُرَيْرَةَ: (أُتِيَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ بِإِيلِيَاءَ بِقَدَحَيْنِ من خَمْرٍ وَلَبَنٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا، فَأَخَذَ اللَّبَنَ، قال جِبْرِيلُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ، لو أَخَذْتَ الْخَمْرَ، غَوَتْ أُمَّتُكَ)[2]

فالأحاديث الصحيحة تذكر اسم بيت المقدس صراحة في نصوصها المتضمنة ذكر حادثة الإسراء، مما يؤكد أن الإسراء مرتبط بالقدس ومسجدها الأقصى المبارك، وأنه من العبث إخضاع هذه الحقيقة للتأويل أو الخلاف، اللهم إلا إذا كان الهدف منها حرف الأنظار، وصرف القلوب عن التعلق بالقدس والمسجد الأقصى المبارك، وتلك غاية تصب في سموم مخططات أعداء الإسلام ومقدساته في القدس، لكن ما رسخ في قلوب المؤمنين من

1.صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج.
2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الإسراء، باب قوله: {أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام}(الإسراء: 1).

عقيدة صافية نقية حيال الإيمان بالقدس حاضنة لمسرى الرسول، صلى الله عليه وسلم، يستحيل أن تنتابه زعزعة، أو ريب، أو اضطراب، إلا لدى من زاغت قلوبهم عن جادة الحق، واتبعوا أهواءهم في سبيل خدمة المخططات المشبوهة، التي تستهدف زعزعة ارتباط المسلمين بقدسهم، ومسجدهم الأقصى المبارك.

معززات أخرى لترسيخ الارتباط العقائدي للمسلمين بالمسجد الأقصى المبارك:

لم تكن صدفة أو عشوائية وراء الربط المقدس بين القدس ومكة، وبين المسجد الحرام فيها والمسجد الأقصى في بيت المقدس، خلال حادثة الإسراء الثابت خبرها في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، بل يدل هذا الربط بوضوح وجزم على مكانة المكانين في الإسلام، ومنزلتهما عند المسلمين السالفين والحاضرين، ومما يعزز هذا الاستنتاج مؤكدات هذا الربط التي جاءت في سياقات أخرى، ضمن قضايا تعبدية وعقائدية مميزة، فالمسجد الأقصى كان الثاني في الوجود على وجه الأرض بعد المسجد الحرام، حسب ما رواه أبو ذَرٍّ، قال: (قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأرض أَوَّلُ؟ قال: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: المَسْجِدُ الأَقْصَى، قلت: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ، فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ) [1]

والمسجد الأقصى المبارك أحد المساجد الثلاثة التي حصر تشريع شد الرحال إليها دون سواها من المساجد المنتشرة على وجه الأرض، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ، صلى الله عليه وسلم، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى) [2]

1. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
2. صحيح البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

والمسجد الأقصى سبق المسجد الحرام في استقطاب توجه المسلمين إليه في صلاتهم، حتى جاء الأمر الإلهي بتحويل القبلة منه إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، لحكمة أرادها الله جل في علاه، وعن هذا يقول تعالى:{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}[1]

وعن البَرَاءِ بن عازب، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: (كان أَوَّلَ ما قَدِمَ المَدِينَةَ، نَزَلَ على أَجْدَادِهِ، أو قال: أَخْوَالِهِ من الأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ صلى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أو سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وكان يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صلى أَوَّلَ صَلاةٍ صَلاهَا، صَلاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى معه قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صلى معه، فَمَرَّ على أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فقال: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لقد صَلَّيْتُ مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كما هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وَكَانَتْ اليَهُودُ قد أَعْجَبَهُمْ، إِذْ كان يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَأَهْلُ الكِتَابِ، فلما وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ، أَنْكَرُوا ذلك)[2]

فهذه المعززات المؤكد ثبوتها في ديننا الإسلامي تعاضد حقيقة ارتباط المسلمين عقائدياً وتعبدياً بالمسجد الأقصى المبارك، والقدس التي تحتضنه، مما يعني استحالة قبول أي عرض للمساومة على هذا الحق الأزلي، أو قبول مجرد التفكير بأي بديل عنهما، وحادثة الإسراء تنشط مكنونات المسلمين في أنحاء الدنيا تجاه مسجدهم الأقصى المبارك، الذي أسري إليه بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1- البقرة:144.

2- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

يربط قلوب مسلمي العالم وعقيدتهم وعبادتهم وتاريخهم وتراثهم بالمسجد الأقصى المبارك

الحلقة الأولى

عن أبي ذَرٍّ، قال: (قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرض أَوَّلُ؟ قال: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قلت: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ، فَصَلِّ، فَهُوَ مَسْجِدٌ).[1]

هذا الحديث النبوي الشريف، يبرز الأهمية التاريخية لوجود المسجد الأقصى، فهو ثاني المساجد وجوداً على وجه الأرض، مما يعني تمتعه بعراقة تاريخية مميزة، فمساجد الأرض كثيرة، لا تعد ولا تحصى، ولمتصدر الوجود منها لا ريب أهمية ومكانة تميزه عنها، فارتباط المسلمين بالمسجد الأقصى المبارك يسبق كثيراً تاريخ الإشادة العمرانية المقامة في باحاته، كالمسجد القبلي، ومسجد قبة الصخرة، وما يتبعهما من قباب، ومساطب، وأروقة، وغرف، وآبار، وملاحق أخرى، فهو ثاني مسجد وضع في الأرض لعبادة الله، مما يعني أن الاحتجاج بالسبق الزمني خلال معركة الصراع عليه محسومة لصالح المسلمين، ولكن كثيراً من الناس يكابرون بجهلهم وتعصبهم الأعمى وطغيانهم، من غير أن يفقهوا حقائق التاريخ، وتسلسل وجود أماكن العبادة عبره.

يذكر ابن حجر، أن هذا الحديث يفسر المراد بقوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ}[2]

1. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
2. آل عمران: 96.

ويقصد بالبيت بيت العبادة، لا مطلق البيوت، وقوله: (المَسْجِدُ الأَقْصَى) يعني مسجد بيت المقدس، قيل له الأقصى؛ لبعد المسافة بينه وبين الكعبة، وقيل: لأنه لم يكن وراءه موضع عبادة، وقيل: لبعده عن الأقذار والخبائث.[1]

وقوله: (أَرْبَعُونَ سَنَةً) أي بينهما أربعون سنة، ويجيب القرطبي عن ظاهر الإشكال المتعلق بهذا التحديد، فيقول: إن الآية الكريمة والحديث لا يدلان على أن إبراهيم وسليمان، عليهما الصلاة والسلام، ابتدآ وضعهما، بل كان تجديداً لما أسس غيرهما، وقد روي أن أول من بنى البيت آدم، وعلى هذا؛ فيجوز أن يكون غيره من ولده رفع بيت المقدس بعده بأربعين عاماً.[2]

الإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى:

لم يكن الإسراء بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، أمراً عارضاً، ولا عبثاً دون غاية مقصودة، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، حتى إن فاتحة سورة الإسراء التي نطقت بالإخبار عن حادثة الإسراء فُتحت بالتسبيح، الذي يعني التنزيه، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[3]

فالله جل في علاه منزه عن العبث والفعل العابر غير المقصود، وهو كذلك منزه عن مشابهة الحوادث والمخلوقات في صفاته وأفعاله، فلا مجال للمقارنة بين فعله وأفعالهم، فليس كمثله شيء، إذن فعل الإسراء الذي نسبه الله لنفسه، كان مقصوداً لِحِكَمٍ قدرها الله وأرادَها، وإلا كان من الأيسر لقبول البشر لو تم المعراج بالرسول، صلى الله عليه وسلم، من مكة المكرمة مباشرة إلى السماء، ولو تم ذلك على هذا النحو لانخفضت وتيرة المعارضة

1. فتح الباري، 6 /408.
2. عمدة القاري، 15 /262.
3. الإسراء: 1.

لدى الناس، الذين لم تقبل عقولهم خبر الإسراء بالرسول، صلى الله عليه وسلم، من مكة إلى القدس في ليلة واحدة، في ظروف لم تكن فيها طائرات تُقِلّ المسافرين، ولا صواريخ عابرة للقارات، ومعظم الاعتراض انْصَبَّ من هؤلاء على خبر الإسراء، وليس على خبر المعراج، إذ إن لديهم خبرة بالسفر من مكة إلى بيت المقدس، وما يتطلبه من وقت وجهد، أما السفر إلى السماوات فما عهدوه، إذن كان الإسراء بالنبي، صلى الله عليه وسلم، مقصوداً لله رب العالمين، ولو تأمل أصحاب العقول في الربط الذي تم بين المسجد الحرام في مكة والمسجد الأقصى في بيت المقدس، لوجدوا أن هذا الربط شأن رباني، وحقيقة تاريخية ثابتة، وهو كذلك حقيقة قرآنية راسخة، ولو آمن بها المسلمون الذين يدينون بدين الإسلام وحدهم حق الإيمان، للزمهم بمقتضى ذلك تجاه ما يجري للمسجد الأقصى المبارك من كيد أن يقفوا مواقف داعمة تفوق التي يقفونها الآن في المستوى والتأثير، فالمسجد الأقصى المبارك ليس أي مسجد، فهو مسرى خاتم النبيين والمرسلين، عليه الصلاة والسلام، الذي ينتسب إلى ديانته في العالم الآن ما يقارب ملياري مسلم، يقرأون سورة الإسراء ضمن تلاوتهم القرآن الكريم في تعبدهم إلى الله في صلاتهم وخارجها، مما يعني استحالة أن ينسوا قضية المسجد الأقصى المبارك، وارتباطها العقائدي في قلوبهم وإيمانهم، حتى لو بذل شياطين الإنس والجن الجهود المضنية لنزع إيمان المسلمين بحقهم التليد بالمسجد الأقصى، فإنهم لن يفلحوا، وستثبت لهم الأيام والأحداث أن أطفال المسلمين وشبابهم وشيوخهم ورجالهم ونساءهم متمسكون بهذا المسجد انطلاقاً من عقيدتهم وإيمانهم، وتعبر أفعالهم وألسنتهم عن التمسك به، بما يمكن ترجمته بلغة المقال (لبيك لبيك يا أقصى، نموت دونك، رغم أنف الكارهين، وحقد المتربصين، وغطرسة الظالمين).

قبلة المسلمين الأولى:

استقبال المسلمين بيت المقدس في صلاتهم في بداية عهدهم بالإسلام بعد بعثة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، حقيقة ثابتة في النصوص الشرعية والوقائع التاريخية، فعن الْبَرَاءِ بن عازب أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: (كان أَوَّلَ ما قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ على أَجْدَادِهِ أو قال أَخْوَالِهِ من الأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ صلى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أو سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وكان يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صلى أَوَّلَ صَلاةٍ صَلاهَا صَلاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى معه قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صلى معه، فَمَرَّ على أَهْلِ مَسْجِدٍ، وَهُمْ رَاكِعُونَ، فقال: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لقد صَلَّيْتُ مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كما هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ قد أَعْجَبَهُمْ، إِذْ كان يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فلما وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، أَنْكَرُوا ذلك).[1]

فهذا الحديث الشريف يظهر بعض متعلقات التوجه إلى القبلة الأولى، والتحول عنها إلى الثانية، ومن ذلك أن بيت المقدس كان محط اهتمام ورعاية ربانية ونبوية منذ البدايات الأولى للديانة الإسلامية التي بعث بها النبي المصطفى، صلى الله عليه وسلم، إلى العالمين، والله أخبر في قرآنه الكريم عن جوانب أخرى من تلك المتعلقات، فقال سبحانه عن بعضها: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، استقبل وصحابته بيت المقدس في صلاتهم، وكان يتطلع إلى أن تكون قبلته المسجد الحرام في مكة المكرمة، ثم كان له ما رغب، وقد أثار ذلك حفيظة

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان.
2. البقرة:144.

المتربصين من سفهاء الناس، مصداقاً لقوله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}(*)، فهل يعقل أن تكون القدس القبلة الأولى، ثم التحول عنها أمر قد تم دون هدف أو غاية مقصودة لرب العالمين؟؟ بالقطع محال ذلك عليه سبحانه، فربط صلاة المسلمين في عهد النشأة ببيت المقدس، ثم التحول إلى بيت الله الحرام في مكة، يعزز وشائج الصلة بين هذين المسجدين العظيمين، ويستثير همم المسلمين تجاه قضاياهما، وغفلة بعضهم عن هذه الحقيقة لا تلغيها.

فالمسجد الأقصى، أهمية تاريخية تضرب في أعماق تاريخ الكون، فهو ثاني المساجد وجوداً على وجه الأرض، وتتضافر مع هذا الجانب المميز في الأهمية جوانب أخرى، كالإسراء بالرسول، صلى الله عليه وسلم، إليه من جنبات المسجد الحرام في مكة المكرمة، وهو قبلة المسلمين الأولى، إضافة إلى أمور أخرى كثيرة، يؤمل أن يوفق الله لمتابعة الوقوف عند بعضها في الحلقة القادمة، من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* البقرة:142.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

يربط قلوب مسلمي العالم وعقيدتهم وعبادتهم وتاريخهم وتراثهم بالمسجد الأقصى المبارك

الحلقة الثانية والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ؛ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ، صلى الله عليه وسلم، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى)(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى الأهمية التاريخية لوجود المسجد الأقصى، فهو ثاني المساجد وجوداً على وجه الأرض، مما يعني تمتعه بعراقة تاريخية مميزة، والإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى، لم يكن أمراً عارضاً، ولا عبثاً دون غاية مقصودة، بل فيه تجلى الربط العقائدي بين المسجدين؛ الحرام في مكة المكرمة، والأقصى في بيت المقدس، ووثق هذا الربط المتين بفاتحة سورة الإسراء، التي يتعبد مسلمو الدنيا بتلاوتها في صلاتهم وخارجها، والمسجد الأقصى كان قبلة المسلمين الأولى، قبل أن تحول إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة، وفي الحديث أعلاه يتجلى وجه آخر من وجوه الربط المؤكدة بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام في مكة، حيث تم حصر التعبد إلى الله بشد الرحال إلى المساجد بهما، مضافاً إليهما المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة.

معنى شد الرحال إلى المسجد الأقصى:

الرحل للبعير كالسرج للفرس، والمراد بشد الرحل هنا التجهز للسفر، الذي يمكن أن يكون اليوم بوسائل المواصلات الأخرى.

* صحيح البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

والمقصود بنفي شد الرحال في الحديث أعلاه إلا إلى المساجد الثلاثة، هو النهي عن قصد مساجد غيرها بالسفر تقرباً إلى الله تعالى، فلا مساجد تقصد ويسافر إليها بقصد زيادة الأجر والمثوبة سواها.(*)

حكم زيارة المسلمين للأراضي الفلسطينية بعامة والمسجد الأقصى المبارك في ظل الاحتلال:

قد يكون من المفيد في مقام الحديث عن ربط قلوب مسلمي العالم وعقيدتهم وعبادتهم وتاريخهم وتراثهم بالمسجد الأقصى المبارك، التذكير بالفتوى التي صدرت عن دار الإفتاء الفلسطينية، حول حكم زيارة المسلمين للأراضي الفلسطينية بعامة، والمسجد الأقصى المبارك بخاصة، في ظل الظروف الحالية، حيث أشارت مقدمة تلك الفتوى إلى بعض مسوغات إصدارها، فجاء فيها: أنه في ظل تصاعد الهجمة الاحتلالية على مدينة القدس، سعياً لتهويدها بالكامل، ومحاولة طمس معالمها الإسلامية، ووضع اليد على المسجد الأقصى المبارك، وتدنيس رحابه يومياً باقتحام المستوطنين، وإقامتهم الشعائر والترانيم التوراتية المزعومة، بمشاركة حاخامات وقادة سياسيين تحت حماية أفراد شرطة الاحتلال، لفرض واقع جديد، وتمهيداً للتقسيم الزماني والمكاني للمسجد الأقصى المبارك بين المسلمين واليهود، إضافة إلى التهديد بهدم المسجد الأقصى؛ بهدف إقامة الهيكل المزعوم على أنقاضه، لا قدّر الله.

وحين أصدرت دار الإفتاء الفلسطينية فتواها حول المسألة المشار إليها آنفاً، أكدت على بعض المبادئ ذات الصلة، منها:

أولاً: إن رحاب المسجد الأقصى المبارك، وأسواره وأبنيته، وأفنيته، وقبابه، وأروقته، ومصاطبه، وأسفل المسجد الأقصى وأعلاه، وقف إسلامي إلى قيام الساعة، وهي بمكوناتها تلك حق خالص للمسلمين لا يشاركهم فيه أحد، فالمسجد الأقصى المبارك اسم لكل ما

* بتصرف عن عمدة القاري، 7 /252 - 253.

دار حوله السور الواقع في أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة القدس القديمة المسوّرة بدوْرها، ويشمل كلاً من قبة الصخرة المشرّفة، (ذات القبة الذهبية) والموجودةِ في موقع القلب بالنسبة إلى المسجد الأقصى، والمصلى القِبْلِي، (ذي القبة الرصاصية السوداء)، والواقعُ أقصى جنوب المسجد الأقصى، ناحية (القِبلة)، فضلاً عن نحو 200 مَعْلمٍ آخر، ما بين مصليات، ومبانٍ، وقباب، وأروقةٍ، ومدارس، وأشجار، ومحاريب، ومنابر، ومآذن، وأبواب، وآبار، ومكتبات؛ يقول مجير الدين الحنبلي في كتابه (الأنس الجليل): "إنّ المتعارف عند الناس أنّ الأقصى من جهة القِبلة الجامع المبني في صدر المسجد الذي فيه المنبر والمحراب الكبير، وحقيقة الحال أن الأقصى اسم لجميع المسجد مما دار عليه السور، فإن هذا البناء الموجود في صدر المسجد وغيره، من قبة الصخرة والأروقة وغيرها محدثة، والمراد بالأقصى ما دار عليه السور". (*)

ثانياً: إن السيادة على المسجد الأقصى المبارك والولاية عليه، حق قرره الله لهذه الأمة الإسلامية وحدها، وورثته عن نبيها، عليه الصلاة والسلام، وسلفها الصالح، وترعى هذا الحق دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس، تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية الأردنية.

ثالثاً: إن المسجد الأقصى المبارك هو جزء من عقيدة المسلمين؛ لارتباطه بمعجزة الإسراء والمعراج، وهو قبلة المسلمين الأولى، فقد صلى المسلمون قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، ثم تحولوا بأمر الله تعالى إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

رابعاً: إن المسجد الأقصى المبارك مرتبط بعبادة المسلمين؛ فقد دعا النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى شد الرحال إليه.

* الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: 1/ 20.

خامساً: إن فلسطين أرض باركها الله في كتابه العزيز، وأسرى إليها برسوله المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وأخبر الله عن ذلك.

وإن من أبرز واجبات الأمة الإسلامية أن تعمل جهدها لتحرير هذه الأرض المباركة، ومسجدها الأقصى، حتى تكون مفتوحة لمن يشد الرحال إليها، ابتغاء رضوان الله وثوابه، ومن المؤكد أن شد الرحال إلى المسجد الأقصى في ظل الاحتلال يختلف عنه في ظل الحرية والأمان، فإذا أدرك المسلمون مدى مسؤوليتهم وواجبهم نحو الأرض الفلسطينية والقدس ومقدساتها، فلا يوجد ما يمنع شرعاً من زيارتها، في إطار الضوابط الشرعية الآتية:

• رفض تكريس الوضع الاحتلالي للأرض الفلسطينية والقدس والمسجد الأقصى المبارك.

• تجنب الخوض في أي إجراء يصب في مصلحة تطبيع علاقات المسلمين مع الاحتلال، الذي يأسر أرضنا وشعبنا وقدسنا وأقصانا.

• التنسيق مع الجهات الفلسطينية المسؤولة، التي تتولى المسؤولية عن زيارات الأرض المحتلة.

• أن تكون الزيارة للأرض الفلسطينية تأكيداً لهويتها العربية والإسلامية، ورفضاً للاحتلال، وعوناً للمرابطين فيها على الصمود حتى التحرير.

وخلصت الفتوى إلى دعوة كل من يستطيع من أبناء فلسطين، وخارجها إلى وجوب شد الرحال إلى المسجد الأقصى المبارك؛ لإعماره، والصلاة فيه، وتكثير سواد المسلمين المرابطين في رحابه، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ومن دواعي التشديد على ضرورة الاهتمام بشد الرحال إلى المسجد الأقصى تبعاً لآخر الأحداث والمستجدات، ذلك القرار الأمريكي الباطل من أساسه، والذي ينزع حق العرب والمسلمين بالقدس، ويمنحها هدية لكيان الاحتلال، ذلك القرار الذي يصادم

عقيدة مسلمي العالم أجمع، إضافة إلى مصادمته الواقع والتاريخ، ودواعي السلم العالمي.

القدس والمسجد الأقصى في بؤرة اهتمام مسلمي العالم ورعايتهم:

في ضوء ما سبق، فلا مجال لأي مشكك أو مرتاب بأن يمحو من إيمان المسلمين أن القدس لهم، والمسجد الأقصى مسجدهم، شاء من شاء، وأبى من أبى، مع التنبيه إلى أن المسجد الأقصى ليس للفلسطينيين والمقدسيين وحدهم، بل هو للمسلمين جميعاً، ولا ينحصر دورهم تجاهه في نطاق حب الأفئدة المجرد، بل يتعدى ذلك إلى نطاق فعلهم ومشيهم نحوه، وترحالهم إليه تعبداً إلى الله، وطلباً لمثوبته سبحانه ورضاه.

فالثوابت الراسخة في عقيدة المسلمين وتاريخهم ووجدانهم، تشير إلى جذور الصلة بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام، مما يحتم البراءة من أي مسلم يقصر في أداء واجبه تجاه هذين المسجدين، اللذين يقبع أحدهما في أسر الظالمين وكيدهم ودائرة تربصهم واستهدافهم، ومما يشد الانتباه، ويحفز التدبر، أن المسجد الأقصى في هذه المكانة الرفيعة التي يحتلها، يتشارك مع المسجد الحرام في مكة، فهو أول مسجد وضع في الأرض لعبادة الله، تلاه المسجد الأقصى، وهو القبلة الأخيرة، والمسجد الأقصى القبلة الأولى، ومنه كان منطلق الإسراء، وإلى المسجد الأقصى كان منتهاه، وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها تعبداً، ومعه المسجد النبوي في المدينة المنورة، والمسجد الأقصى.

فهل يصدق عاقل بعد هذا أن المكانة التي يحتلها المسجد الأقصى في الإسلام يمكن أن تلغى بجرة قلم من الخلق جميعاً، ولو اجتمعوا له، ما دامت هذه المكانة قررها الله جل في علاه، وأكدها خاتم النبيين، محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الفصل الثاني

عبادات

الرسول الأسوة، محمد صلى الله عليه وسلم

.1	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الأولى	87
.2	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الثانية	92
.3	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الثالثة	97
.4	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الرابعة	102
.5	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الخامسة	107
.6	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة السادسة والأخيرة	112
.7	يحدث عن بدء الصيام وفرضه وفضله	117
.8	ينبه الصائمين والقائمين إلى أهمية العناية بالمقاصد والنوايا	122
.9	يحذر مما يضيع أجر الصيام وغيره من العبادات	127
.10	يعتكف في العشر الأواخر من رمضان ويحث على تحري ليلة القدر فيها	132
.11	هديه في العيد	137
.12	أولى الزمن عناية خاصة في الأضاحي	142
.13	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الأولى	145
.14	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الثانية	150
.15	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الثالثة	153
.16	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الرابعة	156
.17	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الخامسة والأخيرة	159
.18	كان إذا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ	162

أمره الله بالاستعاذة من الشيطان

الحلقة الأولى

يخاطب الله رسوله الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، فيقول عز وجل:{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ}. (1)

يذكر صاحب أضواء البيان في تفسير هذه الآية الكريمة، أن أظهر القولين فيها أن الكلام على حذف الإرادة، أي فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، وليس المراد أنه إذا قرأ القرآن، وفرغ من قراءته، استعاذ بالله من الشيطان، كما يفهم من ظاهر الآية، وذهب إليه بعض أهل العلم، ودليل الرأي الأول تكرر حذف الإرادة في القرآن، وفي كلام العرب، لدلالة المقام عليها، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ...}(2)، أي إذا أردتم القيام إليها، كما هو ظاهر، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ...}(3)

أي إذا أردتم أن تتناجوا، فلا تتناجوا بالإثم، لأن النهي إنما هو عن أمر مستقبل، يراد فعله، ولا يصح النهي عن فعل مضى وانقضى، كما هو واضح.

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الاستعاذة من الشيطان الرجيم واجبة عند القراءة، لأن صيغة أفعل للوجوب، كما تقرر في الأصول، وقال كثير من أهل العلم: إن الأمر في الآية للندب والاستحباب،

1. النحل:98 - 100.
2. المائدة:6.
3. المجادلة:9.

وظاهر الآية أيضاً الأمر بالاستعاذة عند القراءة في الصلاة، لعموم الآية، والله أعلم.[1]

سلطان الشيطان على من يكون؟

بيّن الله جلَّ في علاه في الآية القرآنية المذكورة أعلاه من سورة النحل، أن سلطان الشيطان وتسلطه، لا يكون على المؤمنين بالله وحده، المتوكلين عليه سبحانه، ولا يبقى له عليهم سبيل، وإنما يكون سلطان الشيطان، وتسلطه على الذين يتولونه؛ أي يجعلونه لهم ولياً، وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان، وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأزهم إلى المعاصي أزاً، وقادهم إلى النار قوداً. [2]

وقيل: إن المقصود بالسلطان هنا هو الغلبة والحجة، فالشيطان ليس له نفاذ أمر على المؤمنين بالله والمتوكلين عليه، وإنما غلبته وحجته على الذين يطيعونه من دون الله تعالى، فمن أطاعه، فقد تولاه، وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ}أي بالله. [3]

معنى الاستعاذة وماهيتها :

الاستعاذة في اللغة، من عاذ به يَعُوذُ عَوْذاً وعِياذاً ومَعاذاً: لاذ فيه، ولجأَ إليه، واعتصم. [4]

جاء في التفسير الكبير، أن الاستعاذة لا تتم إلا بعلم وحال وعمل، أما العلم، فهو كون العبد عالماً بكونه عاجزاً عن جلب المنافع الدينية والدنيوية، وعن دفع جميع المضار الدينية والدنيوية، وأن الله تعالى قادر على إيجاد جميع المنافع الدينية والدنيوية، وعلى دفع جميع المضار الدينية والدنيوية، قدرة لا يقدر أحد سواه على دفعها عنه، فإذا حصل هذا العلم في القلب، تولد عنه حصول حالة في القلب، وهي انكسار وتواضع، ويعبر عنها بالتضرع

1. أضواء البيان، 2 /443.
2. تفسير السعدي، 1 /449.
3. تفسير السمرقندي، 2 /291.
4. لسان العرب، 10 /329.

إلى الله تعالى، والخضوع له، ثم إن حصول تلك الحالة فيه، يوجب حصول صفة أخرى في القلب، وصفة في اللسان، أما الصفة الحاصلة في القلب، فهي أن يصير العبد مريداً لأن يصونه تعالى عن الآفات، ويخصه بإفاضة الخيرات والحسنات، وأما الصفة التي في اللسان، فهي أن يصير العبد طالباً لهذا المعنى بلسانه من الله تعالى، وذلك الطلب هو الاستعاذة، وهو قوله: (أعوذ بالله)

وبناء عليه، فإن الركن الأعظم في الاستعاذة هو علم المستفيد بالله، وعلمه بنفسه، وأما علمه بالله، فهو:

(1) أن يعلم كونه سبحانه وتعالى عالماً بجميع المعلومات، فإنه لو لم يكن الأمر كذلك، لجاز أن لا يكون الله عالماً به، ولا بأحواله، فعلى هذا التقدير تكون الاستعاذة به عبثاً.

(2) لا بد أن يعلم كونه قادراً على جميع الممكنات، وإلا فربما كان عاجزاً عن تحصيل مراد العبد.

(3) لا بد أن يعلم أيضاً كونه جواداً مطلقاً، إذ لو كان البخل عليه جائزاً لما كان في الاستعاذة فائدة.

(4) لا بدَّ أيضاً وأن يعلم أنه لا يقدر أحد سوى الله تعالى على أن يعينه على مقاصده، إذ لو جاز أن يكون غير الله يعينه على مقاصده، لم تكن الرغبة قوية في الاستعاذة بالله، وذلك لا يتم إلا بالتوحيد المطلق.

(5) أن يعلم أن مدبر العالم واحد، وأن يعلم أيضاً أن العبد غير مستقل بأفعال نفسه، إذ لو كان مستقلاً بأفعال نفسه، لم يكن في الاستعاذة بالغير فائدة، فثبت بما ذكر أن العبد ما لم يعرف عزة الربوبية، وذلة العبودية، لا يصح منه أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ومن الناس من يقول لا حاجة في هذا الذكر إلى العلم بهذه المقدمات، بل الإنسان إذا جوز كون الأمر كذلك، حسن منه أن يقول أعوذ بالله على سبيل الإجمال، وهذا ضعيف جداً، لأن إبراهيم، عليه السلام، عاب أباه في قوله: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً}[1]، فبتقدير أن لا يكون الإله عالماً بكل المعلومات، قادراً على جميع المقدورات، كان سؤاله سؤالاً لمن لا يسمع ولا يبصر، وكان داخلاً تحت ما جعله إبراهيم، عليه السلام، عيباً على أبيه، وأما علم العبد بحال نفسه، فلا بدَّ وأن يعلم عجزه وقصوره عن رعاية مصالح نفسه، على سبيل التمام، وأن يعلم أيضاً أنه بتقدير أن يعلم تلك المصالح بحسب الكيفية والكمية، لكنه لا يمكنه تحصيلها عند عدمها، ولا إبقاؤها عند وجودها، وبناء عليه، فإذا حصلت هذه العلوم في قلب العبد، وصار مشاهداً لها، متيقناً فيها، وجب أن يحصل في قلبه تلك الحالة المسماة بالانكسار، والخضوع، وحينئذ يحصل في قلبه الطلب، وفي لسانه اللفظ الدال على ذلك الطلب، وذلك هو قوله: {أعوذ بالله من الشيطان الرجيم}، والذي يدل على كون الإنسان عاجزاً عن تحصيل مصالح نفسه في الدنيا والآخرة، أن الصادر عن الإنسان إما العمل، وإما العلم، وهو في كلا البابين في الحقيقة في غاية العجز، أما العلم، فما أشد الحاجة في تحصيله إلى الاستعاذة بالله، وفي الاحتراز عن حصول ضده إلى الاستعاذة بالله.[2]

العداء المتأصل مع الشيطان:

عداء الشيطان للإنسان بدأ منذ أن سخطه الله بسبب تكبره عن التقيد بطاعته سبحانه، فبين تعالى أنه أمر إبليس بالخروج من الجنة، مؤكداً أنه رجيم، حسب قوله تعالى في سورة

1- مريم: 42.
2. التفسير الكبير، 1/ 62 - 63.

الحجر: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}[1]، واستجاب الله لطلبه، فأمهله إلى يوم البعث، ومن الآيات القرآنية التي تعرضت لذكر هذا العداء، وإمهال الشيطان ليوم البعث، قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ* قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ* قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ}[2]

فالشيطان للناس عدو، وينبغي لهم أن يتخذوه عدواً، وعليهم أن يتحصنوا بالاستعاذة، والبسملة، وتلاوة القرآن، والعمل بما يرضي الله، للنجاة من كيد الشيطان ومكره وإغوائه، راجين الله أن ييسر متابعة الحديث عن المزيد من أبعاد التقيد بأمر الله الخاص بالاستعاذة من الشيطان، كما كان يستعيذ رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الحجر:34.
2. الأعراف:11 - 18.

أمره الله بالاستعاذة من الشيطان

الحلقة الثانية

عن عَائِشَة، زَوْج النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ من عِنْدِهَا لَيْلًا، قالت: فَغِرْتُ عليه، فَجَاءَ فَرَأَى ما أَصْنَعُ، فقال: مالك يا عَائِشَةُ؟ أَغِرْتِ؟ فقلت: وما لي لا يَغَارُ مِثْلِي على مِثْلِكَ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: قَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ، قالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، أو مَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قال: نعم، قلت: وَمَعَ كل إِنْسَانٍ؟ قال: نعم، قلت: وَمَعَكَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: نعم، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عليه حتى أَسْلَمَ)(*)

في الحلقة السابقة، التي بُدئت بالأمر الرباني الخاص بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، عند قراءة القرآن الكريم، والذي تم التأكيد في سياقها على أن سلطان الشيطان، وتسلطه لا يكون على المؤمنين بالله وحده، المتوكلين عليه سبحانه، وإنما يكون سلطانه وتسلطه على الذين يتولونه، وفيها أيضاً تم بيان معنى الاستعاذة وماهيتها، وأن الاستعاذة لا تتم إلا بعلم وحال وعمل، أما العلم فهو كون العبد عالماً بكونه عاجزاً عن جلب المنافع الدينية والدنيوية، وعن دفع المضار الدينية والدنيوية جميعها وإيجادها، فثبت بما ذكر أن العبد ما لم يعرف عزة الربوبية، وذلة العبودية، لا يصح منه أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والذي يدل على كون الإنسان عاجزاً عن تحصيل مصالح نفسه في الدنيا والآخرة، أن الصادر عن الإنسان إما العمل، وإما العلم، وهو في كلا البابين في غاية العجز، أما العلم فما أشد الحاجة في تحصيله، وفي الاحتراز عن حصول ضده إلى الاستعاذة بالله. وتعرضت

*صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ...

الحلقة السابقة كذلك للعداء المتأصل مع الشيطان، فالعداء منه للإنسان بدأ منذ أن سخطه الله بسبب تكبره عن التقيد بطاعته سبحانه، فينبغي التحصن بالاستعاذة منه.

لكل إنسان قرينه من الجن:

يدل الحديث الشريف الصحيح أعلاه على اتساع نطاق تأثير الشيطان في الإنسان، فهو ملاصق له، متابع لسكناته وحركاته، لأقواله وأفعاله، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (فإن الشَّيْطَانَ يَجْرِي من ابن آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ)[1]

فالشيطان يعمل جهده ليغوي الإنسان عن جادة الحق والهدى، إلى الغواية والضلال والانحراف، وهذا الدور التلازمي ابتلي الناس به، ومن الأحاديث الصحيحة المؤكدة لذلك، قوله صلى الله عليه وسلم: (ما مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا وقد وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ من الجِنِّ، قالوا: وَإِيَّاكَ يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: وَإِيَّايَ، إلا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عليه، فَأَسْلَمَ، فلا يَأْمُرُنِي إلا بِخَيْرٍ)[2]

إغواء الشيطان لآدم، عليه السلام، وزوجه:

بدأ الشيطان بممارسة الإغواء للناس بما فعله مع أبيهم آدم وزوجه، والإغواء من غوى الرجل يغوي غياً، إذا فسد عليه أمره، أو فسد هو في نفسه، ومنه: {وعصى آدم ربه فغوى}؛ أي فسد عيشه في الجنة، وقال: {لأقعدن لهم}؛ أي لأجهدن في إغوائهم، حتى يفسدوا بسببي، كما فسدت بسبب تركي السجود لأبيهم.[3]

فالشيطان زين لآدم وزوجه الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها، وعن ذلك يحدث القرآن الكريم، فيقول تعالى: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه.
2. صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ...
3. فتح القدير، 2/ 192.

عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ* وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ* فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ* قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ* قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ* قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[1]

حصل الإغواء لآدم وزوجه على الرغم من التحذير الرباني منه ومن مآلاته، حيث بيّن سبحانه لهما أن الأكل من الشجرة المنهي عنها مؤداه أن يكونا من الظالمين، والخروج من الجنة، والمعاناة من الشقاء بعد ذلك، فقال جل شأنه: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}[2]

والشيطان مارس دوره الإغوائي، فكانت منه الوسوسة، التي تكون بأساليب وأشكال لا تعد ولا تحصى، فكانت هنا بتبرير المخالفة للأمر الرباني، بأمور، منها قوله: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}[3] وأقسم لهما أنه لهما ناصح أمين، وأنه يريد أن يدل آدم على شجرة الخلد، وملك لا يبلى، كما قال تعالى:{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى}[4]

وكانت النتيجة الأولية أن استجاب آدم وزوجه لهذا الإغواء، وأكلا من الشجرة، ووقعا في فعل المحظور، وانتهى الحال بهما إلى الهبوط من الجنة إلى الأرض.

وأتبع الله ما حصل لآدم وزوجه جرّاء هذا الإغواء بتحذير بنيه من بعده من إغواء

1. الأعراف: 19 - 25.
2. طه:117.
3. الأعراف: 20.
4. طه: 120.

الشيطان وفتنته، فقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}[1]

المرأة ووزر الخطيئة:

بعكس معتقدات بعض الناس من أهل الكتاب وغيرهم، ممن يُحَمِّلون زوج آدم وزر معصية الأكل من الشجرة، التي نهيا عنها، وكانت النتيجة أن أمر الله بهما، فأهبطا من الجنة، فإن الإسلام يرفض هذا المنحى بصورة قاطعة، فالقرآن الكريم لما تحدث عن تلك المعصية نسبها إلى آدم، ولم ينسبها إلى زوجه، فقال تعالى: {فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[2]

وتفسير {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} أي جهل، وقيل أخطأ، فإن الله تعالى قد أخبر بعذره بقوله:{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً}[3]، قال ابن عباس: نسي عداوة إبليس، وما عهد الله إليه من ذلك بقوله: إن هذا عدو لك ولزوجك، وقيل: نسي ذلك بما أظهر لهما، وسمي الإنسان إنساناً؛ لأنه عهد إليه فنسي، وقيل: لم يقصد المخالفة استحلالاً لها، ولكنهما اغترا بحلف.[4]

ويقول القرطبي: إن قيل لم قال عليه، ولم يقل عليهما، وحواء مشاركة له في الذنب بإجماع، وقد قال: ولا تقربا هذه الشجرة، وقالا ربنا ظلمنا أنفسنا، فالجواب أن آدم، عليه السلام، لما خوطب في أول القصة، بقوله (أسكن) خصه بالذكر في التلقي، فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضاً، فلأن المرأة حرمة ومستورة، فأراد الله الستر لها، ولذلك لم

1. الأعراف: 27.
2. طه: 121.
3. طه:115.
4. تفسير الثعالبي، 1 /51.

يذكرها في المعصية في قوله: (وعصى آدم ربه فغوى) وأيضاً، لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر، لم تذكر كما لم يذكر فتى موسى في قوله، ألم أقل لك، وقيل: إنه دل بذكر التوبة عليه، أنه تاب عليها، إذ أمرهما سواء قاله الحسن.(*)

والمتدبر في الآيات القرآنية التي تتحدث عن قضية المعصية التي وقعت من آدم، عليه السلام، وزوجه، يجد أن القرآن الكريم نسب سببها إلى وسوسة الشيطان وإغوائه، ولم يشر إلى أن زوج آدم قد أغوته، وإنما اقتصر ذكرها على مشاركة آدم في الأكل من الشجرة، وتأثرها بالنتيجة أن بدت لهما سَوْآتُهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وفي المحصلة أن ما حصل كله تم بإرادة الله وقدره.

فعداوة الشيطان الدائمة للإنسان قديمة جديدة ومستمرة، فينبغي التنبه إلى لزوم الحذر منه، والاستعاذة من شره وإغوائه، راجين الله أن ييسر متابعة الحديث عن مزيد من أبعاد التقيد بأمر الله الخاص بالاستعاذة من الشيطان، كما كان يستعيذ رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* تفسير القرطبي، 1 /325.

أمره الله بالاستعاذة من الشيطان

الحلقة الثالثة

يخاطب الله رسوله الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، بقوله عز وجل: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}(1)

في الحلقة السابقة، تم التذكير بأن لكل إنسان قرينه من الجن، مما يدل على اتساع نطاق تأثير الشيطان في الإنسان، فهو ملاصق له، متابع لسكناته وحركاته، لأقواله وأفعاله، وتم الوقوف كذلك عند قضية إغواء الشيطان لآدم، عليه السلام، وزوجه، حيث بدأ الشيطان ممارسة الإغواء للناس بما فعله معهما، فزين لهما الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها، ممارساً بذلك دوره الإغوائي، فكانت منه الوسوسة، التي تكون بأساليب وأشكال لا تعد ولا تحصى، ووقعت من الشيطان لآدم وزوجه بتبرير المخالفة للأمر الرباني، وكانت النتيجة الأولية أن استجاب آدم وزوجه لهذا الإغواء، وأكلا من الشجرة، ووقعا في فعل المحظور، وانتهى الحال بهما إلى الهبوط من الجنة إلى الأرض التي يعادي بعضهم بعضاً عليها.

نزغ الشيطان:

بالإضافة إلى الأمر المتضمن في الآية الكريمة من سورة الأعراف، التي يأمر الله تعالى فيها بالاستعاذة بالله من الشيطان عند قراءة القرآن الكريم، جاء الأمر بالاستعاذة بالله من الشيطان في الآية الكريمة المذكورة أعلاه، من سورة الأعراف نفسها، وتكرر الأمر بالاستعاذة بالله من نزغ الشيطان على هذا النحو، في سورة فصلت، فيقول تعالى: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}(2)

1. الأعراف: 200.
2. فصلت:36.

ومعنى نزغ الشيطان وسوسته بالتشكيك في الحق، والأمر بالمعاصي، أو تحريك الغضب، فأمر الله بالاستعاذة منه عند ذلك.[1]

ومن الشواهد المؤيدة لهذا المعنى، ما جاء في الحديث الصحيح، عن سُلَيْمَان بن صُرَدٍ، قال: (اسْتَبَّ رَجُلانِ عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا، قد احْمَرَّ وَجْهُهُ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: إني لأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قَالَهَا لَذَهَبَ عنه ما يَجِدُ، لو قال أَعُوذُ بِاللَّهِ من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)[2]

فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، تعالج نزغ الشيطان وتكالحه، وقد حذر رب العزة من نزغ الشيطان وعداوته للإنسان، فقال تعالى: {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً}[3]

جاء في تفسير السعدي أن هذا من لطف الله بعباده، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال، والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق، على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنه يأمر بإيثار أحسنهما، إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

وقوله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ}؛ أي يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم، فدواء هذا أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة، التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم، لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي، الذي ينبغي لهم أن

1.التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 59.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.
3. الإسراء:53.

يحاربوه، فإنه يدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير، وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم، وسعى في العداوة، فإن الحزم كل الحزم يكون بالسعي في صد عدوهم، وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء، التي يدخل الشيطان من قِبلها، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدهم.[1]

وقد أشار يوسف، عليه السلام، إلى النزغ الذي مارس الشيطان من خلاله إحداث العداء الذي كان من إخوته ضده، إلا أنه من منطلق أدبه وذوقه، ذكر أن النزغ كان بينه وبين إخوته، وترك لمتابع ذكر الحدث معرفة حقيقة من انطلى عليه النزغ، وقد ذكرت تلك الإشارة ضمن قوله جل شأنه: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[2]

ومعنى {نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي}؛ أي أفسد بيننا وأعرض، وأصله من نخس الرائض الدابة، وحملها على الجري، يقال نزغه ونسغه إذا نخسه.[3]

عداوة الشيطان للإنسان:

الشيطان عدو لدود للإنسان، وقد حذر الله من عداوته الدائمة، فقال جل ذكره:{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[4]

وفي الآية 53 من سورة الإسراء السالف ذكرها، بيّن سبحانه أن الشيطان للإنسان عدو مبين، فالشيطان بهمزاته، ونزغه ووسوسته، يمارس حربه ضد الإنسان، وهو يجري من

1. تفسير السعدي 1/ 460.
2. يوسف:100.
3. الكشاف، 2/ 477.
4. فاطر:6.

ابن آدم مجرى الدم في العروق، فعن عَلِيّ بن الْحُسَيْنِ، رضي الله عنهما، (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، في المَسْجِدِ وَعِنْدَهُ أَزْوَاجُهُ فَرُحْنَ، فقال لِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ لا تَعْجَلِي حتى أَنْصَرِفَ مَعَكِ، وكان بَيْتُهَا في دَارِ أُسَامَةَ، فَخَرَجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، مَعَهَا، فَلَقِيَهُ رَجُلانِ من الأَنْصَارِ، فَنَظَرَا إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ أَجَازَا، وقال لَهُمَا النبي، صلى الله عليه وسلم: تَعَالَيَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قالا: سُبْحَانَ اللَّهِ يا رَسُولَ اللَّهِ! قال: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي من الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ في أَنْفُسِكُمَا شيئاً)[1]

جاء في التفسير أن الشيطان يأمر الإنسان أولاً بالكفر، ويشككه في الإيمان، فإن قدر عليه، وإلا أمره بالمعاصي، فإن أطاعه، وإلا ثبطه عن الطاعة، فإن سلم من ذلك أفسدها عليه بالرياء والعجب، والقواطع عن الله أربعة؛ الشيطان، والنفس، والدنيا، والخلق، فعلاج الشيطان الاستعاذة، والمخالفة له، وعلاج النفس بالقهر، وعلاج الدنيا بالزهد، وعلاج الخلق بالانقباض والعزلة.[2]

ويعتبر الصدق من أبرز متطلبات تحقق إعاذة الله من يستعيذ به، فامرأة عمران أعاذت مريم وذريتها من الشيطان الرجيم، فقالت: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}[3]، وقد استجاب الله لدعائها، ففي الحديث الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما من مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا من نخسة الشَّيْطَانِ، إلا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، ثُمَّ قال أبو هُرَيْرَةَ: اقرؤوا إن شِئْتُمْ {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}[4]

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه.
2. التسهيل لعلوم التنزيل، 1 /30.
3. آل عمران: 36.
4. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى، عليه السلام.

الاستعاذة من همزات الشياطين:

من التعاليم الربانية القرآنية، الاستعاذة من همزات الشياطين، حيث يقول جل شأنه:{وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ}[1]

جاء في أضواء البيان، أن الهمزات جمع همزة، وهي المرة من فعل الهمز، وهو في اللغة النخس والدفع، وهَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ نخساتهم لبني آدم، ليحثوهم ويحضوهم على المعاصي، وعن هذا المنحى يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً}[2]، ويقول جل ذكره: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ* وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ* حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ}[3]

والظاهر في قوله تعالى: {وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ} أن المعنى أعوذ بك أن يحضرني الشيطان في أمر من أموري، كائناً ما كان، سواء أكان ذلك وقت تلاوة القرآن، أو عند حضور الموت، أو غير ذلك من الشؤون جميعها، في الأوقات كلها، والعلم عند الله تعالى.[4]

أعاذنا الله من الشيطان وهمزاته ونزغه، فهو لنا عدو، ونحن منه نستعيذ، راجين الله أن ييسر متابعة الحديث عن مزيد من أبعاد التقيد بأمر الله الخاص بالاستعاذة من الشيطان، كما كان يستعيذ رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. المؤمنون:97 - 98.
2. مريم:83.
3 الزخرف:36 - 38.
4. أضواء البيان، 5 /353.

أمره اللّه بالاستعاذة من الشيطان

الحلقة الرابعة

عن ابن عَبَّاسٍ، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَمَا لو أَنَّ أَحَدَهُمْ يقول حين يَأْتِي أَهْلَهُ بِاسْمِ اللَّهِ، اللهم جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ ما رَزَقْتَنَا، ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا في ذلك - أو قُضِيَ - وَلَدٌ، لم يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا) (*)

في الحلقة السابقة، تم الوقوف عند المراد بنزغ الشيطان وهمزاته، فهو يوسوس، ويزين المنكر، ويحرك الغضب، ومن التعاليم الربانية القرآنية أن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تعالج نزغ الشيطان وهمزاته وتكالفهما، والشيطان للناس عدو مبين، ينبغي لهم أن يتخذوه عدواً، وأن يستعيذوا بالله منه.

وبمناسبة يوم الأم، والذي يحلو لبعض الناس تسميته بيوم الأسرة، وحيث إن الحديث يدور هنا حول الاستعاذة من الشيطان، فقد يكون من المفيد الوقوف عند بعض القضايا الأسرية التي ورد الحث فيها على الاستعاذة من الشيطان، لحماية الأسرة وعناصرها من شره وكيده، ومنها ما يأتي:

الاستعاذة من الشيطان عند لقاءات إنجاب الأبناء:

من المجالات والأحوال التي ورد الحث فيها على الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، لتحقيق مصالح أسرية مستقبلية، تنفع الوالدين وذريتهما، الدعاء بذلك عند حصول المعاشرة بين الزوجين، فقد علّم الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأزواج دعاء يدعون به عند الجماع،

* صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله.

الذي من ثماره إبعاد شر الشيطان عن الولد الذي يرزقه الزوجان، على إثر هذا الجماع المقترن بالاستعاذة، والظاهر من الحديث المذكور أعلاه، في أن قول من يجامع امرأته: (بِاسْمِ اللَّهِ، اللهم جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ ما رَزَقْتَنَا)، يكون مع الفعل، ويمكن حمله على المجاز، حيث إن بعض الروايات دلت على أن هذا الدعاء يكون قبل الشروع بالجماع.

وقوله: (لم يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا) يعني لم يسلط عليه بالكليّة، وإلاَّ فلا يخلو من الوسوسة.[1]

ومن دلالات هذا الحث النبوي، أن التحرز من شر الشيطان مطلوب للحاضر والمستقبل، فالحديث بين أن الولد المقدر للزوجين من معاشرة مصحوبة بالاستعاذة، يتحصن بذلك من ضر الشيطان.

الابن المحصن من الشيطان يبر بوالديه ولا يعقهما :

من أشكال التحصن من الشيطان بالاستعاذة أن يشب المرء ويشيب على طاعة الله وبر والديه، انصياعاً للأوامر الربانية، حيث يقول تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً}[2]، وبالتأكيد أن المحمي من كيد الشيطان ونزغه، لا يقترف العقوق، المعتبر في ديننا الحنيف من أكبر الكبائر، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، أو قال وَشَهَادَةُ الزُّورِ)[3]

والمحصن من الشيطان لا يسب والديه، ولا يتسبب بذلك، عن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ من أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قال: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ،

1. عمدة القاري:15 /175.
2. الإسراء:23.
3. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى:{ومن أحياها}(المائدة: 32).

فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أمه) [1]

والولد المحصن من الشيطان يعرف قدر والديه، ويحسن صحبتهما، وبخاصة أمه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (جاء رَجُلٌ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، من أَحَقُّ الناس بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: أُمُّكَ، قال: ثُمَّ من؟ قال: ثُمَّ أُمُّكَ؟ قال: ثُمَّ من؟ قال: ثُمَّ أُمُّكَ، قال: ثُمَّ من؟ قال: ثُمَّ أَبُوكَ) [2]

الصالحون يعيذون أبناءهم من الشيطان:

حِرْصُ الوالدين على تحصين ذريتهما من الشيطان، له شواهده من أفعال الصالحين وأقوالهم، التي ذكرت في القرآن الكريم، ومنها أن امرأة عمران كانت تعيذ ابنتها مريم بالله من الشيطان، فقال تعالى: {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [3]

فامرأة عمران لما رزقها الله بنتاً، توجهت إلى الباري سبحانه طالبة الحماية لها وذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله دعاءها، فكان من نسل الابنة مريم المسيح عيسى، عليهما السلام، الذي كان آية للعالمين، وكان بفضل الله وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين لرب العالمين، مصداقاً لشهادة الله الخالق سبحانه: {إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [4]

ومن لطف الله ورعايته لعيسى وأمه مريم، عليهما السلام، ومن استجابته سبحانه لإعاذة امرأة عمران بالله، لمريم وذريتها مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، أن جنبها الله وابنها المسيح، عليهما السلام، وخز الشيطان، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ النبي، صلى الله عليه

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة.
3. آل عمران:36.
4. آل عمران:45.

وسلم، قال: (ما من مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حين يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا من مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إلا مَرْيَمَ وَابْنَهَا، ثُمَّ يقول أبو هُرَيْرَةَ: واقرؤوا إن شِئْتُمْ {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}) [1]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يمارس إعاذة بنيه من الشيطان، تأسياً بإبراهيم، عليه السلام، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: إِنَّ أَبَاكُمَا كان يُعَوِّذُ بها إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، من كل شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كل عَيْنٍ لَامَّةٍ) [2]

قوله (كان) يدل على أنه، صلى الله عليه وسلم، كان يكثر التعويذ بهذه الكلمات، ومعنى التعوذ اللجوء، وهو والاستعاذة والتعويذ، كلها بمعنى واحد، يعني كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يعوذ الحسن والحسين بقوله: أعوذ بكلمات الله التامة، إلى آخره، ويقول لهما: (إن أباكما كان يعوذ بها)، أي بهذه الكلمات، كان إبراهيم، عليه السلام، يعوذ ابنيه إسماعيل وإسحاق.[3]

نموذج لوقاية الأبناء العملية من كيد الشيطان وأذاه:

تحصين الأبناء من كيد الشيطان وشره وأذاه، لا يقتصر على الدعاء والاستعاذة، وإنما يشمل العمل الذي يخدم هذا الغرض كذلك، وقد علمنا الرسول، صلى الله عليه وسلم، سلوكات عديدة بهذا الصدد، منها ما جاء في الحديث الشريف، عن جَابِرِ بن عبد اللَّهِ، رضي الله عنهما، قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إذا كان جُنْحُ اللَّيْلِ، أو أَمْسَيْتُمْ، فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فإن الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فإذا ذَهَبَتْ سَاعَةٌ من اللَّيْلِ، فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فإن الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا) [4]

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة آل عمران، باب: {وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم}(آل عمران: 36).
2. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.
3. عمدة القاري:15 /265.
4. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا كان جُنْحُ اللَّيْلِ) أي أقبل، حين تغيب الشمس، والجيم في (جنح) تضم وتفتح وتكسر، ومعناه طائفة من الليل، وقيل ظلمته وظلامه، وقيل أوّله، وهو المراد هنا، (فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ) أي امنعوهم عن التردد، والخروج من البيوت، في ذلك الوقت، (فإن الشَّيَاطِينَ) أي الجن، (تَنْتَشِرُ) أي تفترق، وتنبت وتختطف حينئذ، (وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) أي حين الإغلاق، (فإن الشَّيْطَانَ) أي جنسه، (لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا) أي باباً أغلق مع ذكر اسم الله عليه.[1]

فاتخاذ الاحتياطات الوقائية المستمرة من شر الشيطان أمر مشروع، مع لفت الأنظار إلى أنه على رأس الأعمال التي تصرف عن بني آدم شر الشيطان، ذكر الله تعالى، والعمل بأوامره سبحانه، والكف عن نواهيه، والتأسي بسيرة نبيه، صلى الله عليه وسلم، فكيده ضعيف أمام قدرة الله جل في علاه، مصداقاً لقوله سبحانه: {الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً}[2]

راجين الله أن ييسر متابعة الحديث عن مزيد من صور الاستعاذة من الشيطان، حسب التوجيهات القرآنية، والسنة الصحيحة، المروية عن رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. مرقاة المفاتيح: 8/ 183.
2. النساء:76

أمره الله بالاستعاذة من الشيطان

الحلقة الخامسة

قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}(*)

الحلقة السابقة تعرضت إلى بعض القضايا الأسرية التي ورد الحث فيها على الاستعاذة من الشيطان، لحماية الأسرة وعناصرها من شره وكيده، ومن تلك القضايا، الاستعاذة من الشيطان عند لقاءات إنجاب الأبناء، فالابن المحصن من الشيطان يبر والديه ولا يعقهما، وأبرز متطلبات التحصن بالاستعاذة من الشيطان أن يشب المرء ويشيب على طاعة الله وبر والديه، انصياعاً للأوامر الربانية، وحرص الوالدين على تحصين ذريتهما من الشيطان، له شواهده من أفعال الصالحين وأقوالهم، ومن الذين ذكر القرآن الكريم عنهم ذلك، امرأة عمران التي كانت تعيذ ابنتها مريم بالله من الشيطان، وتوجهت إلى الباري سبحانه طالبة الحماية لها وذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله دعاءها، فكان من نسل الابنة مريم، عليها السلام، المسيح عيسى، عليه السلام، الذي كان آية للعالمين، وكان بفضل الله وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين لرب العالمين سبحانه، ومن لطف الله ورعايته بعيسى وأمه مريم، ومن استجابته سبحانه لإعاذة جدته امرأة عمران بالله، لأمه، وذريتها مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، أن جنبهما الله وخز الشيطان، والرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يمارس إعاذة بنيه من الشيطان، تأسياً بإبراهيم، عليه السلام، وفي ذلك نموذج لوقاية الأبناء من كيد الشيطان وأذاه.

* الأنعام: 112.

عداوة شياطين الإنس والجن:

العداوة بين الشيطان وبني آدم قائمة دائمة، وفي الآية القرآنية المذكورة آنفاً من سورة الأنعام، يبين رب العزة، أن سنته قضت بأن يجعل لكل نبي عدواً، من شياطين الإنس والجن، يوحي بعضهم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً، وهذه الآية تسلية للنبي، صلى الله عليه وسلم، بالتأسي بغيره، ومعنى{شياطين الإنس والجن}؛ أي المتمردين من الصنفين، {يوحي بعضهم إلى بعض}؛ أي يوسوس ويلقي الشر، {زخرف القول غروراً} ما يزينه من القول. (1)

ومما أورده الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة، أن الله تعالى يبين لنبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، أنه كما خلى بينه وبين أعدائه، وكذلك فعل بمن قبله من الأنبياء وأعدائهم، لم يمنعهم من العداوة؛ لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر، وكثر الثواب والأجر، وقوله تعالى: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}؛ أي يوسوس شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجنّ إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض، وعن مالك بن دينار، أن شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ؛ لأني إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجنّ عني، وشيطان الأنس يجيئني، فيجرّني إلى المعاصي عياناً، وقوله: {زُخْرُفَ الْقَوْلِ}؛ أي ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي، ويموّهه، {غُرُوراً}؛ أي خدعاً، وأخذاً على غرّة، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} ما فعلوا ذلك، أي ما عادوك، أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول، بأن يكفهم، ولا يخليهم وشأنهم. (2)

وفي موضع قرآني آخر، وصف الله تعالى أعداء الأنبياء بالمجرمين، فقال تعالى: {وَكَذَلِكَ

1. التسهيل لعلوم التنزيل، 2 /19.
2. الكشاف، 2/ 56.

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً}[1]، فدل ذلك على أن المراد بالمجرمين شياطين الإنس والجن، وذكر في هذه الآية أن من الإنس شياطين.[2]

ووصف الله بعض الناس بالشياطين، من خلال الدور الخبيث الذي يؤدونه ضد الحق والإيمان وأهلهما، وعن هذا يقول عز وجل: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [3]

الاستفزاز من الأرض للإخراج منها :

من عداوة شياطين الإنس والجن للأنبياء، أن يستفزوهم من الأرض، وفي هذا يقول عز وجل: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً* سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً} [4]

يذكر الرازي أن المراد بالأرض في قوله تعالى: {لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ} على القول الأول مكة، وعلى القول الثاني المدينة، وكثر في التنزيل ذكر الأرض، والمراد منها مكان مخصوص، كقوله تعالى: {أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأرض}[5]، يعني من مواضعهم، وقوله: {فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ}[6]، يعني الأرض التي كان قصدها لطلب الميرة، فإن قيل: قال الله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ}[7]، يعني مكة، والمراد أهلها، فذكر أنهم أخرجوه، وقال في هذه الآية: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا} فكيف يمكن الجمع بينهما، على قول من قال الأرض في هذه الآية مكة؟ وأجيب

1. الفرقان:31.
2. أضواء البيان، 1 /490.
3. البقرة:14.
4. الإسراء: 76 - 77.
5. المائدة: 33.
6. يوسف: 80.
7. محمد: 13.

عن ذلك بأنهم هموا بإخراجه، وهو عليه الصلاة والسلام ما خرج، بسبب إخراجهم، وإنما خرج بأمر الله تعالى، فزال التناقض.[1]

وقوله تعالى: {وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً}أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك بمكة إلا قليلاً، فلما خرج النبي، صلى الله عليه وسلم، مهاجراً من مكة إلى المدينة لأجل إذاية قريش له ولأصحابه، لم يبقوا بعد ذلك إلا قليلاً، وقتلوا يوم بدر.[2]

بوار المخططات الشيطانية لابتلاع أرضنا :

الدور العدائي لشياطين الإنس والجن، لا ينحصر في مجال دون سواه، أو في زمان دون غيره، وإنما يؤدوه بكل شراسة وخبث، ضد الأنبياء وأديانهم وأتباعهم، ومن صور هذا العداء ما يجده الشعب الفلسطيني من زمرة شياطين الإنس والجن، الذين يتحالفون ضده، لابتلاع أرضه ومحاولة إلغاء وجوده، وتدنيس مقدساته، وإحلال غرباء مكانه.

وأبناء الشعب الفلسطيني يجدون في تدبرهم للآية القرآنية الكريمة سالفة الذكر ما يبلسم جراحهم النازفة، فهم الذين هُجِّروا من أجزاء شاسعة من أرضهم، وما زالت يد الغصب، وآليات الابتلاع الظالم للأرض الفلسطينية، تفعل الأفاعيل الآثمة ضدها وإياهم، ومناسبة ذكرى يوم الأرض، التي أضحت مناسبة وطنية سنوية تجدد للقاصي والداني التأكيد بأن أصحاب الحق بهذه الأرض لن يفرطوا بحقهم، ولا بأرضهم، فارتباطهم بها عميق عمق جذور أشجارها، وراسخ رسوخ جبالها، ولن يدوم الحال لظالم، فالذين تآمروا على إخراج النبي، صلى الله عليه وسلم، من بلده وأرضه، دفعوا ثمناً باهظاً يوم بدر، الذي لم يبعد عن يوم التآمر كثيراً، وهكذا المتآمرون على حقوق شعبنا وأرضه، المتحالفون مع شياطين

1. التفسير الكبير، 21 /20.
2. التسهيل لعلوم التنزيل، 2 /177.

الإنس والجن سيدفعون ثمناً قريباً عاجلاً، يوم يظهر الحق، ويزهق الباطل، بإذن الملك الديان، الذي أمره بالكاف والنون، وتلك سنّته التي لن يكون لها تبديل ولا تحويل، مصداقاً لقوله تعالى: {سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً}، وهي أن يهلك كل أمة أخرجت رسولهم من بين أظهرهم، فالسنة لله تعالى، وإضافتها إلى الرسل لأنها سنت لأجلهم، على ما ينطق به قوله عز وجل: {وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً}أي تغييراً.(1)

والأمثلة التي يضربها الله في قرآنه الكريم، والقصص التي يسوقها فيه، إنما يريد منها التدبر والاتعاظ، مع علمه سبحانه المسبق أن أكثر الناس لن ينفع معهم التذكير، فيقول جل شأنه:{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً}(2)

فأكثر الناس يصرون على ما هم فيه من غواية، ويتحزبون مع الشيطان، ضد الهدى والحق والعدل، وما أيقنوا أنهم وحزبهم وقائدهم الشيطان إلى الجحيم، مصداقاً لقول منزل القرآن الكريم فيه:{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ}(3)

سائلين الله العلي القدير أن يرد المُهَجَّرين من أبناء شعبنا الباسل إلى أرضهم ظافرين، وأن ييسر ختم الحديث في الحلقة القادمة عن صور الاستعاذة من الشيطان، حسب التوجيهات القرآنية، والسنة الصحيحة المروية عن رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.تفسير أبي السعود، 5 /189.
2. الإسراء: 89.
3. المجادلة:19.

أمره الله بالاستعاذة من الشيطان

الحلقة السادسة والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ من فَضْلِهِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وإذا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ من الشَّيْطَانِ؛ فإنه رَأَى شَيْطَانًا) (*)

الحلقة السابقة تعرضت للعداوة القائمة الدائمة للأنبياء وأتباعهم، من شياطين الإنس والجن، وقد بين رب العزة سبحانه، أن سنته قضت بأن يجعل لكل نبي عدواً منهما، ووصف الله تعالى أعداء الأنبياء بالمجرمين، والمراد بهم شياطين الإنس والجن، ووصف الله بعض الناس بالشياطين، من خلال الدور الخبيث الذي يؤدونه ضد الحق والإيمان وأهلهما، ومنه استفزاز الأنبياء وأتباعهم من الأرض لإخراجهم منها، لكن الله تعالى وعد رسوله، صلى الله عليه وسلم، بأن مخرجيه من الأرض لن يلبثوا بعده فيها إلا قليلاً، وكذلك الشعب الفلسطيني الذي يجد ما يجد من زمرة شياطين الإنس والجن، الذين يتحالفون ضده، لابتلاع أرضه، ومحاولة إلغاء وجوده، وتدنيس مقدساته، وإحلال غرباء مكانه، سيمحقهم الله، كما محق الذين من قبلهم. وأبناء الشعب الفلسطيني يجدون في تدبرهم للآيات القرآنية الكريمة، ما يبلسم جراحهم النازفة، فهم الذين هُجِّروا من أجزاء شاسعة من أرضهم، وما زالت يد الغصب، وآليات الابتلاع الظالم للأرض الفلسطينية، تفعل الأفاعيل الآثمة ضدها، والمناسبة السنوية لذكرى يوم الأرض، تجدد للقاصي والداني التأكيد على أن أصحاب

* صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال.

الحق بهذه الأرض لن يفرطوا بحقهم، ولا بأرضهم، وأن جولة الظالم لن تدوم، كما لم تدم نشوة الذين أخرجوا الأنبياء، عليهم السلام، من أوطانهم بغير حق.

والحديث عن دواعي الاستعاذة من الشيطان متشعب ومجالاته طويلة، تصعب الإحاطة بها، لذا سيتم في هذه الحلقة الوقوف عند بعض تلك المجالات، مما لم يتم الحديث عنه في الحلقات الخمس السابقة، لتحقيق مزيد من النفع بالتذكير، وذلك على النحو الآتي:

التعوذ عند سماع نهيق الحمار صباحاً :

في الحديث الشريف أعلاه، يعلم الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين درساً في مجالات الاستعاذة من الشيطان، ففي الصباح قد يسمع المرء إذا كان في محيطه ديكة صياحها، فهنا يسن للسامع أن يسأل الله من فضله، حيث إنها صاحت لرؤيتها ملكاً، بينما لو سمع نهيق حمار، فيسن له أن يستعيذ بالله من الشيطان، حيث إن النهيق من الحمار، كان لرؤيته شيطاناً، وهذا يدل على أمور رئيسة، منها: أن الشيطان يتحرك بيننا، يصول ويجول لإحداث الفساد، وإيقاد نار الشر، وأنه يرى من قبل الكائنات الحية الأخرى، أو بعضها، وأن التعوذ منه مطلوب، لتفادي شره، وإحباط عمله، ورد كيده، وفي المقابل؛ فإن الملائكة أيضاً تتحرك بيننا بالخير، وإن بعض الكائنات الحية الأخرى تراها، وتتفاعل مع هذه الرؤية، فالديك يصيح صباحاً استبشاراً برؤيتها، وعند سماع صياحه يسن التوجه إلى الله بالدعاء؛ طلباً لفضله وخيره سبحانه.

ونزول الملائكة وقت الفجر ثابت، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَصَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ -وهو أَعْلَمُ بِهِمْ- كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ:

تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ) [1]

الاستعاذة من الشيطان عند الرؤيا المزعجة:

ورد في السنة النبوية المطهرة بالنسبة إلى الرؤية التي يراها النائم، إن كانت مزعجة له، أن يستعيذ بالله من الشيطان، فعن جَابِرٍ عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (إذا رَأَى أحدكم الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا، فَلْيَبْصُقْ عن يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ من الشَّيْطَانِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَحَوَّلْ عن جَنْبِهِ الذي كان عليه). [2]

فكثيراً ما يجد المرء نفسه في حال من الضيق والنكد والانزعاج، بسبب ما رأى في المنام، مما قد يضطر بعضهم إلى اللجوء لمن يفسر له ما رأى، وهنا الرسول، صلى الله عليه وسلم، يرشد إلى معالجة الأمر بسهولة ويسر، من خلال البصق -التفل- عن اليسار ثلاثاً، والاستعاذة بالله من الشيطان ثلاثاً، والتحول عن الجنب الذي كان نائماً عليه، فهذه الإجراءات الثلاثة تساعد في التخلص من تبعات الرؤية المزعجة بعون الله، بخلاف الرؤية الحسنة، فإنها مدعاة للاستبشار، مع التحذير من التحدث بالرؤيا أياً كانت إلا لمقربين يثق بهم صاحبها، فعن أبي قَتَادَةَ، عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ من اللَّهِ، وَالرُّؤْيَا السَّوْءُ من الشَّيْطَانِ، فَمَنْ رَأَى رُؤْيَا، فَكَرِهَ منها شيئاً، فَلْيَنْفُثْ عن يَسَارِهِ، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ من الشَّيْطَانِ، لا تَضُرُّهُ، ولا يُخْبِرْ بها أَحَدًا، فَإِنْ رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً، فَلْيُبْشِرْ، ولا يُخْبِرْ إلا من يُحِبُّ) [3]

الاستعاذة عند دخول مكان قضاء الحاجة:

عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: كان النبي، صلى الله عليه وسلم ، إذا دخل الخَلَاءَ، قال: (اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ) [4]

1. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة.
2. صحيح مسلم، كتاب الرؤيا.
3. التخريج نفسه.
4. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الخلاء.

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (اللهم إني أَعُوذُ بِكَ...)؛ أي ألوذ، وألتجىء، من العوذ، وقوله: (من الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ) قال الخطابي: بضم الخاء والباء، جماعة الخبيث، والخبائث جمع الخبيثة، يريد ذكران الشياطين وإناثهم، وقال ذلك؛ لأن الشياطين يحضرون الأخلية، وهي مواضع يهجر فيها ذكر الله تعالى، فقدم لها الاستعاذة احترازاً منهم.

وفي شرح السنة، الخبث الكفر، والخبائث الشياطين، وقال ابن بطال: الخبث بالضم يعم الشر، والخبائث الشياطين، وبالسكون مصدر خبث الشيء، يخبث خبثاً، وقد يجعل اسماً، وزعم ابن الأعرابي أن أصل الخبث في كلام العرب المكروه، فإن كان من الكلام، فهو الشتم، وإن كان من الملل، فهو الكفر، وإن كان من الطعام، فهو الحرام، وإن كان من الشراب، فهو الضار، وقال ابن الأنباري، وصاحب المنتهى: الخبث الكفر، ويقال الشيطان، والخبائث المعاصي، جمع خبيثة، ويقال: الخبث خلاف طيب الفعل، من فجور وغيره، والخبائث الأفعال المذمومة، والخصال الرديئة.[1]

ذكر لفظ (كان) الوارد على لسان أنس في الحديث سالف الذكر، يدل على الثبوت والدوام، وقوله: (إذا دخل الخلاء)، أي إذا أراد دخول الخلاء؛ لأن اسم الله تعالى مستحب الترك بعد الدخول، وهذا التقدير مصرح به، وهذا كما في قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}[2]، والتقدير إذا أردت قراءة القرآن، فاستعذ بالله؛ لأن الله تعالى إنما يذكر في الخلاء بالقلب، لا باللسان، وقال القشيري: المراد به ابتداء الدخول، ويرى العيني أن الأمر لا يحتاج إلى هذا التأويل، فإن المكان الذي تقضى فيه الحاجة لا يخلو، إما أن يكون معداً لذلك، كالكنف، أو لا يكون معداً، كالصحراء،

1. عمدة القاري، 2 /270.
2. النحل: 98.

فإن لم يكن معداً، فإنه يجوز ذكر الله تعالى في ذلك المكان، وإن كان معداً، ففيه خلاف للمالكية، فمن كرهه أول الدخول، بمعنى الإرادة؛ لأن لفظة دخل أقوى في الدلالة على الكنف المبنية منها على المكان البراح، أو لأنه بين في حديث آخر.

والاستعاذة من النبي، عليه الصلاة والسلام، إظهار للعبودية، وتعليم للأمة، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام، محفوظ من الجن والإنس، قالوا: ويستحب أن يقول بسم الله مع التعوذ.[1]

فهذه نماذج أخرى لمجالات ورد الحث فيها على الاستعاذة من الشيطان، عسى أن يكون في التذكير فيها، وما سبقها، حافز للبحث عن مزيد منها، من ناحية، ومنبه لأهمية الاستعاذة من شر هذا العدو اللدود، الذي يمثله أحياناً جن وبشر، أو بعض منهما، لتحقيق مأرب الشيطان الأكبر، الذي بعد الإغواء يتبرأ من أتباعه، مصداقاً لقوله تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}[2]

عافانا الله من شر الشيطان وكيده وخطواته وهمزاته ونزغه، لنبرأ منه وذرارينا قبل أن يتبرأ منّا ومنهم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. عمدة القاري 2 /270 - 272.
2. الحشر: 16.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

يحدث عن بدء الصيام وفرضه وفضله

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم قال: (صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعَدَدَ)[1]

صوم شهر رمضان فرضه الله تعالى على المسلمين، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[2]، وهو من أركان الإسلام الخمسة، حسب قوله، صلى الله عليه وسلم: (بُنِيَ الإِسْلامُ على خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)[3]

ولتنظيم أداء هذا الفرض على الوجه المشروع، حُددت له ضوابط وأحكام، من أبرزها تحديد أيامه، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يحدد في هذا الحديث الشريف الآلية المشروعة لاعتماد البدء بصيام شهر رمضان المبارك، وكذلك ختمه، ويكون ذلك بالاعتماد على رؤية هلال شهر رمضان، فحين تثبت يبدأ المسلمون بالصيام، ويستمرون به حتى تثبت رؤية هلال شهر شوال الذي يليه.

انسجام اشتراط رؤية الهلال للبدء بالشهر والانتهاء منه مع علم الفلك :

يدعو الإسلام المسلمين إلى تحري رؤية هلال رمضان مع مشارفة شهر شعبان على الانتهاء، ففي مساء يوم التاسع والعشرين من شهر شعبان من كل عام، يُدعى المسلمون

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال.
2. البقرة: 183.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس.

إلى مراقبة ظهور هلال شهر رمضان، فينظرون إلى السماء من الجهة التي يبزغ منها الهلال الجديد، وذلك بعد مغيب شمس ذاك اليوم، فإن شهد بالرؤية شاهد عدل من المسلمين، لدى الجهات المتخصصة، فإنها تبادر إلى الإعلان عن البدء بالصيام، وإلا أكملت عدة شعبان ثلاثين يوماً، قال تعالى :{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}.(1)

والمراد بشهود الشهر الوارد في الآية الكريمة، هو رؤية هلاله من قبل عدل واحد من المسلمين، فإذا شهد عدل بالرؤية عند ولي الأمر، بعد أن تقوم فيه شروط تحمل الشهادة، ويصح بمثل وصفه ضبط الرؤية، وإمكانها، فإن ولي الأمر يحكم بثبوت رؤية الهلال، وحينها يجب على المسلمين الدخول في عبادة الصيام، والدعوة إلى تحري الرؤية، توجه للمسلمين كلهم، فإذا رأى الهلال بعضهم، وجب على بقيتهم الالتزام بالصيام؛ لأن رؤية كل واحد منهم للهلال متعذرة، لسبب أو لآخر، والله تعالى لم يكلفنا إلا بما نطيق، فقال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...}.(2)

فالمطلوب الرؤية، أو إكمال عدة الشهر حين تعذرها، فالرؤية شرط للدخول في عبادة الصيام، وإلا أكملت عدة شعبان ثلاثين؛ إذ الأشهر القمرية إما أن تكون عدتها تسعة وعشرين يوماً أو ثلاثين، فعن ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً، فَلاَ تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا العِدَّةَ ثَلاَثِينَ).(3)

1.البقرة:185.
2. البقرة: 286.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا.

ولا بدَّ في هذا المقام من الإشارة إلى التقدم العلمي الدقيق في حسابات الفلك، وتحديد مواقيت تولد الأهلة بالساعة والدقيقة والثانية، وكذلك تحديد الزوايا في الأفق الغربي، الذي يظهر فيه الهلال، ومدى قربه، أو بعده من الشمس، ومدة ظهوره في السماء بعد المغيب، زد على ذلك التقدم التكنولوجي في تطوير المناظير والمقاربات التي يُستعان بها في رؤية الهلال، إذا أشارت الحسابات الفلكية إلى إمكانية رؤيته في الأفق، ويمكن الاستفادة من هذه الإنجازات العلمية عند تحري رؤية الأهلة على سبيل الاستئناس.

أهمية الاتفاق حول رؤية الأهلة:

بعد التقدم العلمي في علوم الفلك، وحساباته، والمراصد، ووسائل الرؤية، ووسائل الاتصال والإعلام، هل يبقى عذر للمسلمين للخلاف حول بداية عبادة الصيام، التي تتم بإحدى أمارتين لا ثالث لهما، وهي الرؤية، أو إكمال عدة شعبان ثلاثين؟!

فالقول بتوحيد الرؤية، واختيار ما عليه جمهور الفقهاء بوجوب الصيام على المسلمين، الذين تشترك أقطارهم في ليل واحد، هو الأقرب لموافقة الأدلة الشرعية، التي خاطبت مجموع الأمة بوجوب الصيام، إذا ثبتت رؤية الهلال، أو إكمال العدة إذا لم تثبت الرؤية، وهذا يتفق مع أحكام الشرع، وأوضاع الكون، وسهولة وصول الأخبار، كما يقود إلى مقاصد الشريعة التي دعت إلى وحدة المسلمين واجتماعهم في أداء عباداتهم، وشعائرهم الدينية، خاصة في هذا الزمان الذي أصبح العالم فيه - بفضل تقدم وسائل الإعلام والاتصالات - قرية صغيرة تنتشر فيها الأخبار بسرعة هائلة.

فضل شهر رمضان:

أشاد الله تعالى بشهر رمضان، وذكر سبحانه بعض فضائله ومآثره، فقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ...}.[1]

وفي شهر رمضان ليلة القدر التي عظمها الله تعالى، ورفع شأنها، وميزها بالفضل والخير عن باقي الليالي والأزمنة، فقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ* سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}.[2]

واختص شهر رمضان بخصائص، منها زيادة فضل الجود فيه، وعرض القرآن من قبل الوحي جبريل، عليه السلام، على الرسول، صلى الله عليه وسلم، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، أَجْوَدَ الناس بِالْخَيْرِ، وكان أَجْوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضَانَ، حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكان جِبْرِيلُ، عليه السَّلام يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ في رَمَضَانَ، حتى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، القُرْآنَ، فإذا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ، عليه السَّلام، كان أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ المُرْسَلَةِ).[3]

وفي شهر رمضان المبارك تفتح أبواب الرحمة المهداة من رب السماء والأرض إلى الخلق، وبخاصة الصائمين منهم، فيقول صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل شَهْرُ رَمَضَانَ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ)[4]، ويقول صلى الله عليه وسلم: (إذا كان رَمَضَانُ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ)[5]

1 البقرة: 185.
2. سورة القدر.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يكون في رمضان.
4. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعاً.
5. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان.

ويكفي المسلمين نفعاً وخيراً من رمضان أن الله يغفر لمن صامه منهم مخلصاً، حيث يقول عليه الصلاة والسلام: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (*)

ابتهال إلى الله جل في علاه:

بمناسبة قرب حلول شهر رمضان، نبتهل إلى الله العلي القدير، أن يجعله شهر خير، وأن يمنَّ علينا فيه بالبركة، والعز، والنصر، وأن يجمع كلمتنا على الحق والخير.

ونسأله تعالى أن يخص أبناء شعبنا الصابر المرابط بوحدة الكلمة، وجمع الشمل، وأن يهديهم إلى ما فيه خير البلاد والعباد؛ ليحافظوا على مقدسات تتهددها الأخطار، وأرض ينهشها الاستيطان، وحقوق يتهددها الانتهاك لتضارب المصالح الإقليمية. مما يستدعي وقفة مع الذات؛ لمراجعة الحساب قبل فوات الأوان، ولات ساعة مندم.

ونتضرع إلى الله العلي القدير في رمضان وقبله وبعده أن يطلق سراح أسرانا البواسل، وأن يحسن خلاصهم، وأن يحفظهم وأهلهم وذرَارِيهم، وأن يتقبل شهداءنا في عليين مع النبيين والصديقين والصالحين، ويجعلهم شفعاء لآبائهم وأمهاتهم وذويهم.

اللهم أهلَّ علينا هلال رمضان بالخير، والعفو، والرضوان، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وممن يهتدون بهدي رسولك الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان.

ينبه الصائمين والقائمين إلى أهمية العناية بالمقاصد والنوايا

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم ، قال: (من قام لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[1]

يحتاج المسلم مع شروعه بالصيام إلى معالجة نفسه وقلبه، حتى يتأكد بأنه لا يصوم إلا لله، التزاماً بأمره، وابتغاء مرضاته سبحانه، وأملاً في نيل ثوابه، وهذه المعالجة تقتضي من صاحبها بذل جهود ذاتية، لا يقل ثقلها عما يعانيه خلال صيامه عن الطعام والشراب، والحديث الشريف أعلاه يشد الانتباه إلى أهمية الإخلاص في الصيام، لنيل جائزة مغفرة الذنوب والخطايا.

ذكر النووي، أن قوله صلى الله عليه وسلم: (من قام لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا) معناه إيماناً وتصديقاً بأنه حق، ومعنى احتساباً، أن يريد الله تعالى وحده، لا يقصد رؤية الناس، ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص، والمراد بقيام رمضان صلاة التراويح. [2]

وجاء في فتح الباري، أن قوله: (احْتِسَابًا) لأن الصوم إنما يكون لأجل التقرب إلى الله، والنية شرط في وقوعه قربة، والمراد بالاحتساب طلب الثواب من الله تعالى، وقال الخطابي احتساباً، أي عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه، طيبة نفسه بذلك، غير مستثقل لصيامه، ولا مستطيل لأيامه.[3]

1.صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية.
2. بتصرف عن صحيح مسلم بشرح النووي، 6 /39 - 41.
3. فتح الباري، 4 /115.

فالصائم القائم موعود بمغفرة الذنوب، شريطة أن يخلص لله جل في علاه، ويقال عن القيام بالنسبة إلى النية ما قيل عن الصيام، وابن حجر لا ينكر حصول الثواب الجزيل لمن قام لابتغاء ليلة القدر، وإن لم يعلم بها، ولو لم توفق له، وإنما الكلام على حصول الثواب المعين، الموعود به.[1]

الأعمال بالنيات:

ربط الجزاء على الصيام والقيام بالنية والمقصد ليس محصوراً بهما، بل إن الأعمال كلها يرهن الجزاء عليها بالنيات الباعثة إليها، فعن عُمَرَ بن الخَطَّابِ، رضي الله عنه، على المِنْبَرِ، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه)[2]

والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، التي تربط جزاء الأعمال ببواعثها ومقاصدها كثيرة، ففي هذا الحديث ضرب الرسول، صلى الله عليه وسلم، مثلاً لذلك بالهجرة، فالبون شاسع بين الذي يهاجر قاصداً وجه الله، وابتغاء مرضاته، وبين الذي يهاجر لغايات أخرى مختلفة، كأن يهاجر لزواج أو تجارة أو سياحة أو غير ذلك، فالمهاجرون أصحاب المزايا والدرجات الرفيعة عند الله، ليس منهم سوى من هاجر انصياعاً لأمره سبحانه فحسب، وبهدف نصرة دينه، ومؤازرة أتباعه، وكذلك الجهاد في سبيل الله، فما يعتبر منه في سبيل الله، هو الذي يكون الهدف منه إعلاء كلمة الله، دون سواه من الأنواع، التي تختلف فيها النوايا والمقاصد، عن أبي مُوسَى، قال: (جاء رجل إلى النبي، صلى

1. فتح الباري، 4/ 267.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الله عليه وسلم، فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال:«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله». [1]

ومن الأمور التي ورد التركيز فيها على الإخلاص في النوايا والاحتساب، النفقة؛ يسيرها وعظيمها، فعن سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بها وَجْهَ اللَّهِ، إلا أُجِرْتَ عليها حتى ما تَجْعَلُ في فم امْرَأَتِكَ) [2]، وعنه، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا أَنْفَقَ الرَّجُلُ على أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا، فَهُوَ له صَدَقَةٌ) [3]، والذي يصاب بمرض فيصبر ويحتسب، يناله ثواب الله، فعن المبتلى بالتواجد في بلد اجتاحه الطاعون، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَكُونُ فِي بَلَدٍ يَكُونُ فِيهِ، وَيَمْكُثُ فِيهِ، لاَ يَخْرُجُ مِنَ البَلَدِ، صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ) [4]

تبييت نية الصيام والنسيان فيه:

النية المطلوبة للصيام تتم بمجرد القصد الذهني والقلبي، ولا يشترط التلفظ بها باللسان، ومن المسائل التي تتفرع عن موضوع النية في الصيام والقيام، تبييت النية، وما يحصل للصائم من عوارض من الأكل أو الشرب خلاله، دون قصد، وإنما بسبب الخطأ أو النسيان، ويمكن إجمال هاتين المسألتين، على النحو الآتي:

حكم تبييت النية:

تشترط النية في صيام الفرض كغيره من العبادات، لكن تفاصيل هذه المسألة اختلفت

1. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} (الصافات:171)
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى.
3. التخريج نفسه.
4. صحيح البخاري، كتاب القدر، باب: {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا} (التوبة: 51).

حولها آراء العلماء، فاشترط الجمهور من الحنفية والشافعية والحنابلة تبييت النية لكل يوم في ليلته، أما المالكية فقالوا بأن نية واحدة للشهر كله تكفي، وبالنسبة إلى صيام النافلة فيجوز عند الجمهور أن تنشأ له نية خلال النهار، لمن لم يتناول مفطراً بعد الفجر، فعن عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، رضي الله عنها، قالت: (قال لي رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ذَاتَ يَوْمٍ يا عَائِشَةُ، هل عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟ قالت: فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، ما عِنْدَنَا شَيْءٌ، قال: فَإِنِّي صَائِمٌ، قالت: فَخَرَجَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَأُهْدِيَتْ لنا هَدِيَّةٌ، أو جَاءَنَا زَوْرٌ، قالت: فلما رَجَعَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، أُهْدِيَتْ لنا هَدِيَّةٌ، أو جَاءَنَا زَوْرٌ، وقد خَبَأْتُ لك شيئاً، قال: ما هو؟ قلت: حَيْسٌ، قال: هَاتِيهِ، فَجِئْتُ بِهِ، فَأَكَلَ، ثُمَّ قال: قد كنت أَصْبَحْتُ صَائِمًا، قال طَلْحَةُ: فَحَدَّثْتُ مُجَاهِدًا بهذا الحديث، فقال: ذَاكَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يُخْرِجُ الصَّدَقَةَ من مَالِهِ، فَإِنْ شَاءَ أَمْضَاهَا، وَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا)[1]

حكم من أكل أو شرب ناسياً وهو صائم:

بما أن الأمور بمقاصدها، فالصائم الذي يأكل أو يشرب ناسياً وهو صائم، يبقى صومه صحيحاً، ويستدل بقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (من أَكَلَ نَاسِيًا وهو صَائِمٌ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ الله وَسَقَاهُ)[2]، ويستوي في العفو عن النسيان في الصيام، إذا ما كان صوم فريضة أو نافلة، فالذي يأكل أو يشرب وهو صائم في أي منهما، يتم صومه، ولا شيء عليه.

رفض العبادة التي تختلط فيها النوايا:

إخلاص النية لله وحده شرط لقبول العبادة والإثابة عليها، فإذا امتزجت البواعث بمقاصد مختلفة، كالتظاهر أمام الناس أو بعضهم بالعبادة، للحصول على ثناء منهم أو إعجاب،

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال وجواز فطر الصائم نفلاً من غير عذر.
2. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان.

أو التستر وراءها للخديعة والوقيعة، فهذه ليست من أخلاق العابدين المتقين، وإنما هي من ديدن المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، أما الله جل في علاه، فيأبى قبول قربة من عبد لم يقصد بها وجهه الكريم، أو خلط فيها النوايا، بأن يقصد الله بها وغيره من خلقه، وقد جاء في الحديث القدسي عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ، من عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ). (*)

فإشراك غير الله معه في مقاصد القربات مذموم ممقوت من رب العالمين، والإخلاص في النية من لوازم الصيام الرئيسة، فبالنية يبدأ الصائم عبادته، فتتميز بذلك عن الحمية والعادات الصحية، وغير ذلك من أسباب الإمساك عن الطعام والشراب، والإخلاص في النية من أبرز متطلبات قبول العبادة والثواب عليها، حسب فحوى الهدي القرآني، والنبوي الوارد عن خاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله.

يحذر مما يضيع أجر الصيام وغيره من العبادات

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) [1]

الصيام عبادة يؤديها المؤمنون تقرباً إلى الله تعالى وفق ما أمر سبحانه، فيمسكون عن تناول الطعام والشراب وباقي المفطرات في نهار الصيام، الذي يبدأ من بزوغ الفجر، وينتهي بغروب الشمس، وحتى ينال الصائم أجر صيامه ومثوبته، ينبغي له أن يراعي الكف عن مثالب السلوك التي لا يفطر الصائم بسببها، لكنها تفسد عليه فرصة الفوز بثواب الصيام الموعود، حيث مغفرة الذنوب، والعتق من النار، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ) [2]، وفي مقابل الوعد بمغفرة ذنوب من صام من منطلق الإيمان والاحتساب، يأتي التحذير من اقتراف الذنوب، التي قد لا يلقي لها الصائم بالاً، لكنها تضيع عليه جني ثمرة صيامه، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه أعلاه، يبين أن الله ليس بحاجة إلى جوع الصائم وعطشه، وقد جاء في فتح الباري، عن ابن بطال، أن الله لم يأمر الذي يقول الزور بأن يدع صيامه، وإنما معناه التحذير من قول الزور وما ذكر معه، وأما قوله: (فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ) فإن الله لا يحتاج إلى شيء، وإنما معناه فليس لله إرادة في صيامه، فوضع الحاجة موضع الإرادة، وقال ابن المنير، بل هو كناية عن عدم القبول، كما يقول المُغضَب لمن رد عليه شيئاً طلبه منه، فلم يقم

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان.

به، لا حاجة لي بكذا، فالمراد رد الصوم المتلبس بالزور، وقبول السالم منه، وقريب من هذا قوله تعالى: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ...}[1]، فإن معناه لن يصيب رضاه الذي ينشأ عنه القبول، وقال ابن العربي: مقتضى هذا الحديث، أن من فعل ما ذكر لا يثاب على صيامه، ومعناه أن ثواب الصيام لا يقوم في الموازنة بإثم الزور، وما ذكر معه، وقال البيضاوي: ليس المقصود من شرعية الصوم نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات، وتطويع النفس الأمّارة، للنفس المطمئنة، فإذا لم يحصل ذلك، لا ينظر الله إليه نظر القبول، فقوله: (ليس لله حاجة) مجاز عن عدم القبول، فنفى السبب، وأراد المسبب، والله أعلم.

واستدل بهذا الحديث على أن هذه الأفعال تنقص ثواب الصوم، ويرى السبكي أن ذكر هذه الأمور يدل على أمرين، أحدهما: زيادة قبحها في الصوم على غيرها، والثاني البحث على سلامة الصوم عنها، وأن سلامته منها صفة كمال فيه، وقوة الكلام تقتضي أن يقبح ذلك؛ لأجل الصوم، فمقتضى ذلك، أن الصوم يكمل بالسلامة عنها، قال: فإذا لم يسلم عنها نقص، ثم قال: ولا شك أن التكاليف قد ترد بأشياء، وينبه بها على أخرى، بطريق الإشارة، وليس المقصود من الصوم العدم المحض، كما في المنهيات؛ لأنه يشترط له النية بالإجماع، ولعل القصد به في الأصل الإمساك عن جميع المخالفات، لكن لما كان ذلك يشق خفف الله، وأمر بالإمساك عن المفطرات، ونبه الغافل بذلك على الإمساك عن المخالفات، فيكون اجتناب المفطرات واجباً، واجتناب ما عداها من المخالفات من المكملات، والله أعلم. [2]

فالصيام عبادة ترتبط جذرياً بسلوك الصائم، فإن اعتراه سوء، أفقده خاصية الامتياز

1. الحج:37.
2. بتصرف عن فتح الباري،4 /117 - 118.

والإثمار، لأنه يصبح شكلاً فارغاً من الفحوى والمضمون، والله تعالى ضرب مثلاً للمثمر من الأعمال وغيرها، فيقول تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ}[1]

المفلسون:

التحذير الوارد في الحديث أعلاه من ضياع ثواب الأعمال الصالحة كالصيام، بسبب التلبس ببعض الأعمال والأقوال المشينة التي تصدر عن الصائم، تلتقي معه تحذيرات أخرى وردت في بعض الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية الشريفة، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَتَدْرُونَ ما الْمُفْلِسُ؟ قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا من لا دِرْهَمَ له ولا مَتَاعَ، فقال: إِنَّ الْمُفْلِسَ من أُمَّتِي يَأْتِي يوم الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قد شَتَمَ هذا، وَقَذَفَ هذا، وَأَكَلَ مَالَ هذا، وَسَفَكَ دَمَ هذا، وَضَرَبَ هذا، فَيُعْطَى هذا من حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا من حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أَنْ يُقْضَى ما عليه، أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ)[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يشبه حال العابد صاحب الفضائل حين يظلم الناس أو يسيء إليهم، بحال المفلس، الذي يأتي يوم القيامة خاسراً، خالي الوفاض، ليس في جعبته شيء من ثواب الأعمال الطيبة التي قدمها في دنياه، بسبب ما حمله من وزر التعدي على الناس وعلى أعراضهم، فيقتصون منه بالأخذ من حسناته، فإذا انتهت وبقيت لهم حقوق

1. الرعد:17.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

عليه، أسقطوا من أوزارهم على كاهله، حتى يصبح مداناً مثقلاً بالسيئات والآثام، وتكون في النهاية النار مثواه.

والله جل في علاه أخبر عمن وصفهم بالأخسرين أعمالاً، الذين خدعتهم أعمالهم في الدنيا، وظنوا أنها فهلوة وذكاء وحذلقة، وهي في الحقيقة أذى عليهم ووبالاً، لأنها لم تكن منضبطة بهديه سبحانه، فقال تعالى:{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً *الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً}[1]، وفي موضع قرآني آخر، يقول تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً}[2]، أي إن الله يعمد إلى أعمال الخير التي قدمها بعض الناس في الدنيا من الصدقات، وصلة الأرحام، وغير ذلك، فيجعلها هباء منثوراً، وذلك كناية عن رفض ما عملوا من الحسنات كإطعام المساكين وصلة الأرحام وغير ذلك، وأنها لا تنفعهم بسبب ما اعتراها من خلل، والهباء هي الأجرام الدقيقة من الغبار، التي لا تظهر إلا حين تدخل الشمس على موضع ضيق، والمنثور المتفرق. [3]

من هنا جاءت التوجيهات الدينية للمؤمن ليتحلل ممن أساء إليه في الدنيا، مستبقاً بذلك مرحلة الحساب الآخروي، التي يقتص فيه المظلومون من الظالمين، فصلى الله عليه وسلم، يقول: (من كانت له مَظْلَمَةٌ لأحد من عِرْضِهِ، أو شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليَوْمَ قبل أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ، إن كان له عَمَلٌ صَالِحٌ، أُخِذَ منه بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لم تَكُنْ له حَسَنَاتٌ، أُخِذَ من سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عليه) [4]

من هنا كان لا بد لمن يحرص على الفوز بثواب الآخرة، والنجاة من جحيمها، أن يعمل لذلك.

1. الكهف:103 - 104.
2. الفرقان:23.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 3 /77.
4. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته.

والله تعالى يقول: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ}[1]

العبرة بالخواتيم:

من الأمور التي يجدر التنبيه إليها في مقام التحذير من ضياع ثواب الأعمال الصالحة، الحرص كل الحرص على أن تكون خاتمة الأعمال صالحة، فالعبرة بخواتيم الأعمال، وصلى الله عليه وسلم، يقول: (...فإن الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حتى ما يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حتى ما يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ)[2]

وهذا الحرص حثَّ عليه رب العزة سبحانه، لما أمر المؤمنين أن لا يموتوا إلا وهم مسلمون، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}[3]

هدانا الله لنكون ممن حفظهم من الخسران، وجازاهم بالإحسان واللطف والرحمة، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. هود:15.
2. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته.
3. آل عمران:102.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

يعتكف في العشر الأواخر من رمضان

ويحث على تحري ليلة القدر فيها

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ من رَمَضَانَ، حتى تَوَفَّاهُ الله، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ من بَعْدِهِ)[1]

يدل هذا الحديث الشريف على مشروعية الاعتكاف، حسب السنة العملية الثابتة عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، والتي اقتفى أثرها من بعده صحابته الغر الميامين، وعباد الله المخلصين.

معنى الاعتكاف:

الاعتكاف في اللغة: مصدر مشتق من عكف، وله في اللغة معان عدة، منها، المواظبة والحبس، ومما جاء بشأنه في لسان العرب، أنه يأتي بمعنى الإقامة، ويقال لمن لازَمَ المسجد وأَقام على العِبادة فيه: عاكف ومُعْتَكِفٌ، والاعْتِكافُ والعُكوف: الإقامةُ على الشيء وبالمكان ولزُومهما.[2]

الاعتكاف في الاصطلاح: هو لزوم المكوث في المسجد، طاعة لله، وتقرباً إليه سبحانه.

ذكر الاعتكاف في القرآن والسنة:

أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، بتطهير بيته الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود، فقال عز وجل: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}[3]

1.صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر والاعتكاف في المساجد كلها.
2. لسان العرب: 10 /242.
3. البقرة:125.

وورد ذكر الاعتكاف بصيغ مختلفة، في بعض آيات القرآن الكريم، فيقول تعالى: {... وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[1]، ففي هذه الآية الكريمة بيان لحكم شرعي يرتبط بالاعتكاف في المسجد، حيث نهي المعتكف عن مباشرة زوجه بالجماع ودواعيه وهو معتكف.

ومن جانب آخر وردت الإشارة إلى الاعتكاف للتماثيل والأصنام، فقال تعالى: {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}[2]؛ أي مقيمون على عبادتها، وورد في موضع قرآني آخر حديث عن الاعتكاف على الأصنام، فقال جل ذكره: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}[3]، وقال تعالى:{قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ}[4]، وفي شأن مشابه، فإن قوم موسى نهاهم أخوه هارون عن عبادة العجل، فعكفوا عليه، أي أصروا على ملازمة عبادته، حيث جاء عن ذلك في قوله تعالى: {قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}[5]؛ أي إنهم قالوا: لا نترك عبادته - العجل- حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك، وحاربوه وكادوا أن يقتلوه. [6]

حكم الاعتكاف ودليل مشروعيته:

الاعتكاف سنة، ولولا مشروعيته ما طلب الله بتطهير البيت للعاكفين، حسب قوله تعالى: {...أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}[7]

معنى{والعاكفين} هم المعتكفون في المسجد، وقيل المصلون، وقيل المجاورون من الغرباء،

1. البقرة:187.
2. الأنبياء: 52.
3. الأعراف:138
4. الشعراء:71.
5. طه:91.
6. تفسير ابن كثير، 3/ 164.
7. البقرة: 125.

وقيل أهل مكة، والعكوف في اللغة اللزوم.[1]

وثبت حسب الحديث المذكور آنفاً، وما عاضده من الروايات، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يعتكف، وبخاصة في رمضان، والعشر الأواخر منه.

فضل الاعتكاف وآثاره:

للاعتكاف فضائل كثيرة، ودلالات تعبدية عديدة، فالمعتكف يتجرد عن الدنيا ومشاغلها بحبس نفسه في بيت الله، للصلاة، والذكر، والاستغفار، والإنابة إلى الله جل في علاه، طالباً الرحمة والغفران، والله يجيب المضطر إذا دعاه، فكيف بالمحتبس للدعاء، والطاعة، والعبادة، والتفرغ للإنابة؟ كما أن المعتكف يصقل بالاعتكاف نفسه، فيهذبها، ويطهرها، ويعوده الحرص على توثيق الصلة بالله، والزهد في التكالب على الدنيا، وهو بهذا يجني من اعتكافه ثماراً تهذيبية لنفسه وسلوكه وقلبه، ويسلك درباً معبدة ميسرة إلى نيل مرضاة الله، والفوز بنعيمه، والنجاة من سخطه، وعقابه.

وفي مسرى النبي، محمد، صلى الله عليه وسلم، القابع في أسر المحتلين الغاصبين الظالمين، يكون للاعتكاف شكل مميز، وأهمية خاصة، فعدا عن مضاعفة الثواب للمعتكف فيه، فإنه بحاجة ماسة إلى حشد مزيد من المعتكفين فيه، والمرابطين، على مدار الساعة، للذود عن حياضه، وإعماره بذلك.

إخلاص النية في الاعتكاف:

كأي عبادة أخرى تلزم الاعتكاف نية صادقة خالصة من الرياء، وخالية من المقاصد الأخرى، فالأعمال بالنيات، كما جاء في الحديث المشهور، أن رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه)[2]

1. التسهيل لعلوم التنزيل، 1/ 60.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ذَكَرَ أَنْ يَعْتَكِفَ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ من رَمَضَانَ فَاسْتَأْذَنَتْهُ عَائِشَةُ، فَأَذِنَ لها، وَسَأَلَتْ حَفْصَةُ عَائِشَةَ أَنْ تَسْتَأْذِنَ لها، فَفَعَلَتْ، فلما رَأَتْ ذلك زَيْنَبُ ابنة جَحْشٍ، أَمَرَتْ بِبِنَاءٍ فَبُنِيَ لها، قالت: وكان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا صلى انْصَرَفَ إلى بِنَائِهِ، فَبَصُرَ بِالأَبْنِيَةِ، فقال: ما هذا؟! قالوا: بِنَاءُ عَائِشَةَ، وَحَفْصَةَ، وَزَيْنَبَ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: ألبر أَرَدْنَ بهذا؟! ما أنا بِمُعْتَكِفٍ، فَرَجَعَ، فلما أَفْطَرَ اعْتَكَفَ عَشْرًا من شَوَّالٍ)[1]

يقول ابن حجر: وكأنه صلى الله عليه وسلم، خشي أن يكون الحامل لهن على ذلك المباهاة، والتنافس الناشىء عن الغيرة، حرصاً على القرب منه خاصة، فيخرج الاعتكاف عن موضوعه، أو لما أذن لعائشة وحفصة، أولاً كان ذلك خفيفاً، بالنسبة إلى ما يفضى إليه الأمر من توارد بقية النسوة على ذلك، فيضيق المسجد على المصلين، أو بالنسبة إلى أن اجتماع النسوة عنده يصيره كالجالس في بيته، وربما شغلنه عن التخلي لما قصد من العبادة، فيفوت مقصود الاعتكاف، فترك الاعتكاف ذلك الشهر، ثم اعتكف عشراً من شوال.[2]

الاعتكاف في رمضان:

اعتكف الرسول، صلى الله عليه وسلم، في العشر الأوسط من رمضان، ثم حثَّ على العناية بالاعتكاف في العشر الأواخر منه، ويظهر أن الحث على الاعتكاف في العشر الأواخر، مرتبط بليلة القدر التي تم الحث على تحريها في ليالي الفرادى من العشر الأواخر من رمضان، فعن أَبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن، قال: (سَأَلْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ، رضي الله عنه، قلت: هل سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَذْكُرُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؟ قال: نَعَمِ، اعْتَكَفْنَا مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، العَشْرَ الأَوْسَطَ من رَمَضَانَ، قال: فَخَرَجْنَا صَبِيحَةَ

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب من أراد أن يعتكف ثم بدا له أن يخرج.
2. فتح الباري، 4 /276.

عِشْرِينَ، قال: فَخَطَبَنَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، صَبِيحَةَ عِشْرِينَ، فقال: إني أُرِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنِّي نُسِّيتُهَا، فَالْتَمِسُوهَا في العَشْرِ الأَوَاخِرِ في وِتْرٍ، فَإِنِّي رأيت أَنِّي أَسْجُدُ في مَاءٍ وَطِينٍ، وَمَنْ كان اعْتَكَفَ مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَلْيَرْجِعْ، فَرَجَعَ الناس إلى المَسْجِدِ، وما نَرَى في السَّمَاءِ قَزَعَةً، قال: فَجَاءَتْ سَحَابَةٌ فَمَطَرَتْ، وَأُقِيمَتْ الصَّلاةُ، فَسَجَدَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، في الطِّينِ وَالمَاءِ، حتى رأيت أثر الطِّينِ في أَرْنَبَتِهِ وَجَبْهَتِهِ)[1]

يظهر من هذا الحديث الشريف أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، اعتكف العشر الأوسط من رمضان، ثم انتقل منها إلى الاعتكاف في العشر الأواخر منه، وفي العام الذي توفي فيه، اعتكفهما؛ أي اعتكف عشرين يوماً، ففي الحديث الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يَعْتَكِفُ في كل رَمَضَانٍ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، فلما كان الْعَامُ الذي قُبِضَ فيه، اعْتَكَفَ عِشْرِينَ يَوْمًا)[2]

مما سبق بيانه عن معنى الاعتكاف، وذكره في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وفضله وآثاره، وإخلاص النية فيه، وممارسته في رمضان، وتحري ليلة القدر في الليالي الفرادى من العشر الأواخر من رمضان، يظهر مدى أهمية الحرص على تحين مواسم الخير وفرصه، للتقرب إلى الله تعالى فيها، أملاً في نيل غفران الذنوب والخطايا، والفوز بجنة عرضها السموات والأرض، أعدها الله للمتقين من عباده، وإمامهم خاتم النبيين، رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف وخرج النبي، صلى الله عليه وسلم، صبيحة عشرين.
2. صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان.

هديه في العيد

عن ابن عَبَّاسٍ: (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، خَرَجَ يوم الْفِطْرِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، لم يُصَلِّ قَبْلَهَا ولا بَعْدَهَا، وَمَعَهُ بِلالٌ) [1]

يأتي عيد الفطر عقب أداء عبادة الصيام، وعيد الأضحى يأتي متزامناً مع يوم النحر، الذي ينحر فيه الذين يحجون بيت الله الحرام الهدي أو يذبحونه، بعد انتهائهم من أداء ركن الحج الأكبر، بوقوفهم في اليوم السابق في عرفة، وفي اليومين يسن للمسلمين غير المنشغلين بأداء مناسك الحج في أنحاء الدنيا أداء صلاة العيد في مصلياتهم، مقتدين برسولهم الكريم، صلى الله عليه وسلم، حيث يبين الحديث أعلاه سنة الخروج لأداء صلاة عيد الفطر ركعتين، وفي هذا المقام، يحسن التذكير ببعض سنن العيدين.

تحريم صيام أيام العيدين:

الله يحب أن يعبد كما شرع، ففرض على المسلمين صيام رمضان، وحرم على غير أصحاب الأعذار الفطر فيه، وختمه بعيد، يجب الفطر فيه، وحرم صيامه، فعن أبي عُبَيْدٍ، مولى ابن أَزْهَرَ، قال: (شَهِدْتُ العِيدَ مع عُمَرَ بن الخَطَّابِ، رضي الله عنه، فقال: هَذَانِ يَوْمَانِ نهى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عن صِيَامِهِمَا، يَوْمُ فِطْرِكُمْ من صِيَامِكُمْ، وَالْيَوْمُ الآخَرُ تَأْكُلُونَ فيه من نُسُكِكُمْ) [2]

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الصلاة قبل العيد وبعدها .
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم الفطر.

الأكل يوم الفطر قبل الخروج إلى مصلى العيد:

من سنن عيد الفطر، أن يأكل المسلم قبل خروجه إلى المصلى تمراً أو حلوى، أو أي خفيف متاح، فعن أَنَس بن مالك، رضي الله عنه، قال: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لا يَغْدُو يوم الْفِطْرِ حتى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ، وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا)[1]

صلاة العيد في المصلى قبل الخطبة:

دلت السنة النبوية الشريفة على أن صلاة العيد تؤدى في المصلى، دون أذان ولا إقامة، فقد كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (يَخْرُجُ يوم الْفِطْرِ وَالأَضْحَى إلى الْمُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلَاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ الناس، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ على صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كان يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ، أو يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ)[2]

ولا سنن تؤدى قبل صلاة العيد ولا بعدها سواها، فعن ابن عَبَّاسٍ، (أنه كَرِهَ الصَّلَاةَ قبل الْعِيدِ).[3]

وعن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، كان يُصَلِّي في الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ، ثُمَّ يَخْطُبُ بَعْدَ الصَّلَاةِ)[4]

مخالفة الطريق:

من السنن الواردة بشأن سلوك المصلين في ذهابهم وإيابهم إلى مصلى العيد، مخالفة طريق الذهاب إليه عند العودة منه، فعن جَابِرٍ قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا كان يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ)[5]، ولعل من حِكَمِ ذلك أن يعم الخير مختلف الطرقات وسالكيها.

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج.
2. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.
3. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الصلاة قبل العيد وبعدها.
4. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب المشي والركوب إلى العيد والصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة.
5. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب من خالف الطريق إذا رجع يوم العيد.

من فَاتَهُ الْعِيدُ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ:

صلاة العيد سنة مؤكدة يثاب فاعلها، ولا يعاقب تاركها، وعند بعض العلماء حكمها الوجوب، وبعضهم يرى أنها فرض كفاية، ومن فاتته يقضيها، ففي صحيح البخاري، بَاب إذا فَاتَهُ العِيدُ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، وَكَذَلِكَ النِّسَاءُ، وَمَنْ كان في الْبُيُوتِ وَالْقُرَى، لِقَوْلِ النبي، صلى الله عليه وسلم: (هذا عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلامِ، وَأَمَرَ أَنَسُ بن مَالِكٍ مَوْلاهُمْ بن أبي عُتْبَةَ بِالزَّاوِيَةِ، فَجَمَعَ أَهْلَهُ وَبَنِيهِ، وَصَلَّى كَصَلاةِ أَهْلِ المِصْرِ، وَتَكْبِيرِهِمْ، وقال عِكْرِمَةُ: أَهْلُ السَّوَادِ يَجْتَمِعُونَ فِي الْعِيدِ يُصَلُّونَ رَكْعَتَيْنِ كما يَصْنَعُ الْإِمَامُ، وقال عَطَاءٌ: إذا فَاتَهُ الْعِيدُ صلى رَكْعَتَيْنِ) [1]

اجتماع العيد والجمعة في يوم واحد:

قد يوافق عيد الفطر يوم الجمعة، وقد اختلف الفقهاء في سقوط وجوب أداء صلاة الجمعة عمن أدى صلاة العيد، فذهب الحنفية والمالكية إلى أنها لا تسقط عنه، ولا يباح له التخلف عنها، وذهب الشافعية إلى سقوط الجمعة عن أهل القرى والبوادي الذين حضروا صلاة العيد، وذهب الحنابلة إلى أنها تسقط عمن حضر العيد، ولكنه يصلي الظهر [2]، واستدلوا بما رواه أبو عبيد، مولى ابن أزهر، قال: (شَهِدْتُ العِيدَ مَعَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَصَلَّى قَبْلَ الخُطْبَةِ، ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذَا يَوْمٌ قَدِ اجْتَمَعَ لَكُمْ فِيهِ عِيدَانِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْتَظِرَ الجُمُعَةَ مِنْ أَهْلِ العَوَالِي فَلْيَنْتَظِرْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْجِعَ فَقَدْ أَذِنْتُ لَهُ) [3]

ونميل إلى إباحة أداء صلاة الظهر بدل الجمعة لمن صلى صلاة العيد في اليوم نفسه، وذلك في حالة وجود حرج ومشقة من أدائها، مع التأكيد على أن الأولى والأفضل أداء صلاة العيد والجمعة، خروجاً من الخلاف، والاحتياط في العبادة أولى، والله أعلم.

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين وكذلك النساء ومن كان في البيوت والقرى.
2. الموسوعة الفقهية الكويتية 27/ 209.
3. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها.

خُرُوج النِّسَاءِ وَالْحُيَّضِ إلى مصلى العيد رجاء بركته:

من سنن العيد أن الخروج إلى المصلى لا يقتصر على الرجال دون النساء والأطفال، بل يشمل الجميع، حتى اللواتي تسقط عنهن الصلاة بسبب الحيض أو النفاس، يسن لهن الخروج ليشهدن الخير مع المسلمين، فعن أُمِّ عَطِيَّةَ، قالت: (كنا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْرُجَ يوم العِيدِ، حتى نُخْرِجَ البِكْرَ من خِدْرِهَا، حتى نُخْرِجَ الْحُيَّضَ، فَيَكُنَّ خَلْفَ الناس، فَيُكَبِّرْنَ بِتَكْبِيرِهِمْ، وَيَدْعُونَ بِدُعَائِهِمْ، يَرْجُونَ بَرَكَةَ ذلك الْيَوْمِ وَطُهْرَتَه) [1]

وعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (...لِيَخْرُجِ الْعَوَاتِقُ ذَوَاتُ الْخُدُورِ، أو قال الْعَوَاتِقُ وَذَوَاتُ الْخُدُورِ - شَكَّ أَيُّوبُ- وَالْحُيَّضُ، وَيَعْتَزِلُ الْحُيَّضُ المصلى، وَلْيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ، وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ، قالت: فقلت لها: الحُيَّضُ؟ قالت: نعم، أَلَيْسَ الْحَائِضُ تَشْهَدُ عَرَفَاتٍ، وَتَشْهَدُ كَذَا، وَتَشْهَدُ كَذَا) [2]

التزين للعيد والسرور:

العيد مناسبة للبهجة وللفرح والسرور، يتجمل فيه المسلمون بارتداء أجمل الملابس المشروعة، وذلك يشمل الرجال والنساء، الكبار والأطفال، مع التقيد بضوابط الشرع الخاصة بذلك، فعن عَبْدَ اللَّهِ بن عُمَرَ، قال: (أَخَذَ عُمَرُ جُبَّةً من إِسْتَبْرَقٍ تُبَاعُ في السُّوقِ، فَأَخَذَهَا، فَأَتَى بها رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، ابْتَعْ هذه تَجَمَّلْ بها لِلْعِيدِ وَالْوُفُودِ، فقال له رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إنما هذه لِبَاسُ من لا خَلَاقَ له، فَلَبِثَ عُمَرُ ما شَاءَ الله أَنْ يَلْبَثَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إليه رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِجُبَّةِ دِيبَاجٍ، فَأَقْبَلَ بها عُمَرُ، فَأَتَى بها رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب التكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة.
2. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب إذا لم يكن لها جلباب في العيد.

قُلْتَ إنما هذه لِبَاسُ من لا خَلاقَ له، وَأَرْسَلْتَ إلي بِهَذِهِ الْجُبَّةِ؟! فقال له رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: تَبِيعُهَا، أو تُصِيبُ بها حَاجَتَكَ) [1]

ومن الابتهاج بالعيد، التوسعة على العيال، وإبهاجهم، والترويح عنهم بالمباح من الممارسات، فعن عَائِشَةَ، قالت: (دخل عَلَيَّ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِغِنَاءِ بُعَاثَ، فَاضْطَجَعَ على الْفِرَاشِ، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ، وَدَخَلَ أبو بَكْرٍ فَانْتَهَرَنِي، وقال: مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَقْبَلَ عليه رسول اللَّهِ، عليه السَّلام، فقال: دَعْهُمَا...) [2]

الصدقات يوم العيد:

تيسير العيش يوم العيد لا يقتصر على الأسرة والعيال، وإنما يشمل الفقراء والمساكين من ذوي القربى والجيران والأصدقاء، وقد ركز الرسول، صلى الله عليه وسلم، في مواعظه يوم العيد على الترغيب في إخراج الصدقات، فعَنْ جَابِرِ بن عبد اللَّهِ، قال سَمِعْتُهُ يقول: (إِنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قام، فَبَدَأَ بِالصَّلاةِ، ثُمَّ خَطَبَ الناس بَعْدُ، فلما فَرَغَ نَبِيُّ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، نَزَلَ، فَأَتَى النِّسَاءَ فَذَكَّرَهُنَّ، وهو يَتَوَكَّأُ على يَدِ بِلالٍ، وَبِلالٌ بَاسِطٌ ثَوْبَهُ، يُلْقِي فيه النِّسَاءُ صَدَقَةً، قلت لِعَطَاءٍ: أَتَرَى حَقًّا على الإِمَامِ الآنَ أَنْ يَأْتِيَ النِّسَاءَ، فَيُذَكِّرَهُنَّ، حين يَفْرُغُ؟ قال: إِنَّ ذلك لَحَقٌّ عليهم، وما لهم أَنْ لا يَفْعَلُوا) [3]

فهذه بعض الأحكام الخاصة بصلاة العيد ويومه، وسلوك العابدين فيه، سائلين الله العلي القدير أن يتقبل منا حسن طاعته، وأن يعتق رقابنا من النار، وأن يحشرنا مع المتقين والأبرار، بصحبة خير الأنام، نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب في العيدين والتجمل فيه.
2. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد.
3. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب المشي والركوب إلى العيد والصلاة قبل الخطبة بغير أذانٍ ولا إقامة.

أولى الزمن عناية خاصة في الأضاحي

عن الْبَرَاءِ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَوَّلَ ما نَبْدَأُ بِهِ في يَوْمِنَا هذا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ، من فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هو لَحْمٌ قَدَّمَهُ لأَهْلِهِ، ليس من النُّسُكِ في شَيْءٍ) [1]

كثيراً ما يكون للزمن اعتبارات في الهدي القرآني والنبوي، فيما يخص الشعائر التعبدية وغيرها، حتى إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، تحدث عن الزمان في خطبة الوداع، فقال: (الزَّمَانُ قد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يوم خَلَقَ الله السموات وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ، الذي بين جُمَادَى وَشَعْبَانَ) [2]

فالزمان له اعتبارات عقائدية وتعبدية عديدة ومهمة، فالصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، لكل فرض منها وقت بداية، ووقت انتهاء، والصوم يبدأ شهره برؤية الهلال، وينتهي برؤية هلال شهر شوال الذي يليه، والزكاة يشترط لوجوبها أن يمر عام على اقتناء نصابها، والحج له أشهر معلومات، وتؤدى بعض مناسكه في فترات زمانية محددة، والتضحية لها وقتها وزمانها الذي لا يصح أن تبدأ قبله، ولا يقبل أن تتم بعده، وفي الحديث الشريف أعلاه يحدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، الزمن الذي يصح أن تبدأ منه التضحية في سبيل الله تعالى، وذلك بعد انتهاء صلاة العيد، أما قبلها فلا يكون زمناً مشروعاً لأداء نسك التضحية، وتضافرت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله، عليه الصلاة والسلام، في التشديد على لزوم التقيد بزمن بدء التضحية، فالذي يتقيد بذلك يوافق سنته، عليه السلام، والله تعالى أمر بالنحر بعد الصلاة،

1. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب سنة الأضحية.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين.

فقال تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}[1]، وفي روايات جاء أن المتقيد بوقت بدء التضحية يوافق سنة المسلمين، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (من ذَبَحَ قبل الصَّلاةِ فَإِنَّمَا ذَبَحَ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ذَبَحَ بَعْدَ الصَّلاةِ فَقَدْ تَمَّ نُسُكُهُ، وَأَصَابَ سُنَّةَ الْمُسْلِمِينَ)[2]

ومعظم الأحاديث الصحيحة بالخصوص تفيد أن ما يذبح قبل صلاة العيد يكون ذبيحة لحم، وليست أضحية، حسب النسك الشرعي، وقوله: (ليس من النُّسُكِ في شَيْءٍ) أي العبادة؛ أي لا ثواب فيها، بل هي لحم ينتفع به أهله.[3]

وفي بعض الأحاديث أمر الذي ينوي ذبح أضحية بذبح أخرى بعد صلاة العيد، مكان التي ذبحها قبلها، فعن جُنْدَبَ بن سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ، قال شَهِدْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم النَّحْرِ، فقال: (من ذَبَحَ قبل أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيُعِدْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ لم يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ)[4]

والزمن الذي ينتهي به وقت التضحية، على الرأي الراجح من أقوال الفقهاء، عند غروب شمس ثالث أيام التشريق، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، عليه الصلاة والسلام: (كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ بطن عُرَنَةَ، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةَ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ، وَكُلّ فِجَاجِ مِنًى مَنْحَرٌ، وَكُلّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ)[5]، بمعنى أن فترة التضحية تستمر أربعة أيام، يوم النحر والأيام الثلاثة التي تليه.

عمر الأضحية وادخارها:

ترتبط الأضحية بالزمن من ناحية عمر الذبيحة المراد التضحية بها، ومسألة ادخارها بعد ذبحها، فعمر الأضحية، ورد تحديده في السنة الصحيحة، فعن جَابِرٍ قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لا تَذْبَحُوا إلا مُسِنَّةً، إلا أَنْ يَعْسُرَ عَلَيْكُمْ، فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً من الضَّأْنِ)[6]

1. الكوثر:2.
2. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب سنة الأضحية.
3. عمدة القاري:21/ 145.
4. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب من ذبح قبل الصلاة أعاد.
5. مسند أحمد، مسند المدنيين، حديث جبير بن مطعم، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره.
6. صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية.

وبين العلماء العمر الأدنى المقبول للأضحية، بأن تبلغ الماعز من الغنم سنة، فما فوق، ومن الضأن ستة شهور، ومن البقر عامين، والإبل خمسة أعوام.

وبالنسبة إلى مسألة ادخار الأضحية، فقد ورد النهي عنه في بعض الأحاديث، كحديث عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (كُلُوا من الأَضَاحِيِّ ثَلاثًا، وكان عبد اللَّهِ يَأْكُلُ بِالزَّيْتِ، حين يَنْفِرُ من مِنًى من أَجْلِ لُحُومِ الْهَدْيِ)[1]

لكن روايات صحيحة أخرى علّلت سبب هذا النهي، فعن سَلَمَةَ بن الأَكْوَعِ قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (من ضَحَّى مِنْكُمْ فلا يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ وبقي في بَيْتِهِ منه شَيْءٌ، فلما كان الْعَامُ الْمُقْبِلُ، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، نَفْعَلُ كما فَعَلْنَا عَامَ الْمَاضِي؟ قال: كُلُوا، وَأَطْعِمُوا، وَادَّخِرُوا، فإن ذلك الْعَامَ كان بِالنَّاسِ جَهْدٌ، فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فيها)[2]، وعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (الضَّحِيَّةُ كنا نُمَلِّحُ منه، فَنَقْدَمُ بِهِ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، بِالْمَدِينَةِ، فقال: لا تَأْكُلُوا إلا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَيْسَتْ بِعَزِيمَةٍ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُطْعِمَ منه، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)[3]، مما يعني أن النهي عن ادخار لحوم الأضاحي لأكثر من ثلاثة أيام ليس واجباً، وإنما يرخص ادخارها، بل إن حديث سلمة بن الأكوع واضح في ربط النهي بظرف عارض، وبالتالي يزول بزواله، والله أعلم.

فهذه بعض نواحي الزمن الخاص بالأضاحي، سائلين الله العلي القدير أن يتقبل أضاحينا، وأن يهدينا دائماً للتأسي برسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها.
2. التخريج نفسه.
3. التخريج نفسه.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية

الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[1]

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث القدسي الذي يرويه عن رب العزة سبحانه أهمية العبادة التطوعية للعابد، والتي يطلق عليها مسمى النافلة، التي تلحق بالفرائض في الفضل، وما فرضه الله يطلب من القادر عليه على وجه التحديد، وهو أحب عبادة إلى الله يتقرب بها العابد إليه سبحانه، والنوافل مع أنها غير ملزمة للعابدين، إلا أن مقامهم يزداد رفعة بأدائها من قبلهم، حتى يصلوا إلى درجة متقدمة من الرفعة، حين يحبهم الله بسببها، ويمدهم بثمار هذا الحب السامي، فيوفقهم ويسدد خطاهم، في سمعهم وبصرهم وأيديهم وأرجلهم، أي إن الله تعالى يتولاهم بحفظه ورعايته؛ لأنهم أصبحوا أحبابه وأولياءه، وسبحانه أعلن حرباً ربانية على من يعاديهم، فيا له من حسن مقام، هذا الذي يتولى الله فيه رعاية عبده، فيوفقه في قوله وعمله، ويستر عيوبه، ويحجز عنه خصومه، كيف لا؟! وعز جلاله يقول:{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}[2]،

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
2 الحج:38.

وجل ذكره يذكر في القرآن الكريم عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ما يؤكد إيمانه بأن الله يتولاه برعايته والصالحين من عباده، فيقول تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}[1]، أي هو حافظي وناصري منكم، فلا تضرونني ولو حرصتم أنتم وآلهتكم على مضرتي، ثم وصف الله بأنه الذي أنزل الكتاب، وبأنه يتولى الصالحين.[2]

وعن ابن عَبَّاسٍ، قال: كنت خَلْفَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَوْمًا، فقال: (يا غُلَامُ، إني أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ على أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله لك، وَلَوْ اجْتَمَعُوا على أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)[3]

العابد الرابح:

المتقرب إلى الله يجد مبتغاه، ومن عجيب أمر المؤمنين أنهم يستسهلون صعاب الخلق التي تعترض طريقهم إلى الله، فما أن تذوق القلوب حلاوة الإيمان، فإنها تحرك الأبدان نحو طاعة الله وعبادته بشوق وحب، لا نظير لهما، حتى إن أهل القربى لما يتعمق بهم الوصال مع الله، يرتقون في الحرص عليه إلى درجات متقدمة، لا يعرف قدرها إلا هم ومن شاكلهم، كرابعة العدوية، التي عبرت عن حرارة هذا الوصال في مناجاتها ربها، بقولها:

عَرَفْتُ الهَوى مُذ عَرَفْتُ هواك ... وأغْلَقْتُ قَلْبي عَلى مَنْ عَاداكْ

وقُمْتُ أُناجِيكَ يا مَن تَرى ... خَفايا القُلُوبِ ولَسْنا نراك

أُحِبُكَ حُبَيْنِ حُبَ الهَوى ... وحُبًا لأنَكَ أهْلٌ لِذَاك

1.الأعراف:196.

2. التسهيل لعلوم التنزيل،2 /58.

3. سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب منه، وصححه الألباني .

فأما الذي هُوَ حُبُ الهَوىٰ فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَنْ سِواكْ
وأمّـا الذي أنْتَ أهلٌ لَهُ فَلَسْتُ أرىٰ الكَوْنِ حَتىٰ أراكْ
فلا الحَمْدُ في ذا ولا ذاكَ لي ولكنْ لكَ الحَمْدُ في ذا وذاك

فالتقرب إلى الله سبحانه بالطاعة، والحب والحرص على رضاه، يجلب للمطيع المحب ثماراً يانعة، وأمناً لا خوف معه، مصداقاً لقوله تعالى:{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}(1)، وقوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}(2)

فمن أراد المثوبة الجزيلة، والأمن الوفير، فعليه بطاعة الله والقرب منه، لأنه بذلك يركن إلى ركن ركين، وظل ظليل.

الاكتفاء بأداء الفرض يكفي، ولكن...

معادلة العمل والجزاء واضحة في ديننا الحنيف، يلخصها قوله تعالى:{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}(3)

والحديث القدسي آنف الذكر يتماشى مضمونه ومعناه مع هذه المعادلة العادلة، فالعباد يتقربون إلى الله بالطاعات، وهو سبحانه يجازيهم بفضله خير الجزاء، والمطلوب الأول من عباد الله أن يؤدوا الفرائض، إذ كيف سيرتقي العابد إلى منازل المتطوعين، وهو مقصر في أداء الواجبات والفرائض، مع ملاحظة أن الفرائض محدودة ومحصورة، بينما النوافل واسعة النطاق، لا حصر لها، وهي تؤدى بعد الفرائض، أو قبلها، أو منفصلة عنها، ولو اكتفى العابد بأداء الفرائض فقط كفاه ذلك، فقد (جاء رَجُلٌ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله

1. البقرة:112.
2. الأحقاف:13.
3. الزلزلة: 6 - 8.

عليه وسلم، من أَهْلِ نَجْدٍ، ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ، ولا يُفْقَهُ ما يقول، حتى دَنَا، فإذا هو يَسْأَلُ عن الْإِسْلَامِ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، خَمْسُ صَلَوَاتٍ في الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فقال: هل عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قال: لَا، إلا أَنْ تَطَوَّعَ، قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: وَصِيَامُ رَمَضَانَ، قال: هل عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قال: لَا، إلا أَنْ تَطَوَّعَ، قال: وَذَكَرَ له رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، الزَّكَاةَ، قال: هل عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قال: لَا، إلا أَنْ تَطَوَّعَ، قال: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ، وهو يقول: واللَّهِ لَا أَزِيدُ على هذا، ولا أَنْقُصُ، قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَفْلَحَ إن صَدَقَ)[1]

ومع ذلك؛ فإن تقديم مزيدٍ من النوافل ترتقي بصاحبها لنيل محبة الله، وليكون من أوليائه، الذين يحبهم ويسدد خطاهم، كما بين الحديث القدسي المثبت أعلاه، فمن أراد الاكتفاء بأداء الواجب، وإسقاط الإثم عن التقصير به، يمكنه ذلك، ويتحقق له مراده بإذن الله، لكن الذي يريد الدرجات العالية، والفوز بعظيم الجوائز، ونيل الحظوة عند ربه، لا يقتصر على أداء الفرائض، وإنما يبذل الجهد في تقديم مزيد من الطاعات، متطوعاً إلى الله بها، وبخاصة تلك المأثورة عن نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، الذي كانت تتفطر قدماه، رغم أنه مطمئن إلى نيل مغفرة الله له، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: (أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، كان يَقُومُ من اللَّيْلِ حتى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فقالت عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هذا يا رَسُولَ اللَّهِ، وقد غَفَرَ الله لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ؟ قال: أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟! فلما كَثُرَ لَحْمُهُ صلى جَالِسًا، فإذا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قام، فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ)[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام.
2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، باب: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً} (الفتح: 2).

فقد كان رسولنا الأكرم، صلى الله عليه وسلم، مثالاً في حسن التقرب إلى الله بالعبادة فرائضها ونوافلها، لا يشغله عن ذلك لهو ولا غفلة، ومثال ذلك ما جاء عنه في الحديث الصحيح، عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا دخل الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ)[1]، يذكر النووي أن العلماء اختلفوا في معنى شد المئزر، فقيل: هو الاجتهاد في العبادات زيادة على عادته صلى الله عليه وسلم، في غيره، ومعناه التشمير في العبادات، وقيل: هو كناية عن اعتزال النساء للاشتغال بالعبادات، وقولها: أحيا الليل، أي استغرقه بالسهر في الصلاة وغيرها، وقولها: وأيقظ أهله، أي أيقظهم للصلاة في الليل، ففي هذا الحديث أنه يستحب أن يزاد من العبادات في العشر الأواخر من رمضان، واستحباب إحياء لياليه بالعبادات.[2]

فهذه وقفات مختارة مع عينة من مؤكدات أهمية التقرب إلى الله بالعبادات، فرائضها ونوافلها، عسى أن يتيسر الوقوف عند مزيد منها في الحلقة القادمة، حسب ما جاء عن النبي الهادي، محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان.
2. صحيح مسلم بشرح النووي، 8 /70 - 71.

الرسول الأسوة محمد ﷺ
يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية
الحلقة الثانية

عن عُقْبَة بن عَامِرٍ الجُهَنِيَّ، قال: (ثَلاثُ سَاعَاتٍ كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّيَ فِيهِنَّ، أو أَنْ نَقْبُرَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا؛ حين تَطْلُعُ الشَّمْسُ بَازِغَةً، حتى تَرْتَفِعَ، وَحِينَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، حتى تَمِيلَ الشَّمْسُ، وَحِينَ تَضَيَّفُ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، حتى تَغْرُبَ)(*)

وقفت الحلقة السابقة عند حديث قدسي صحيح، أكد على أهمية العبادة التطوعية، التي تلحق الفرائض في الفضل، ومع أنها غير ملزمة للعابدين، إلا أن مقامهم يزداد رفعة بأدائها، والعابد يجد مبتغاه، في الدنيا والآخرة، فيستسهل الصعاب التي تعترض طريقه إلى الله، ولما يتعمق به الوصال مع الله، يرتقي في الحرص عليه، ليصل إلى درجات متقدمة من الحب، تجلب له ثماراً واسعة من الخير، لا خوف عليه معها ولا حزن، والاكتفاء بأداء الفرض يكفي، ولكن معادلة العمل والجزاء واضحة في ديننا الحنيف، فالعباد يتقربون إلى الله بالطاعات، وسبحانه يجازيهم بفضله خير الجزاء، والمطلوب الأول أداء الفرائض، إذ كيف سيرتقي العابد إلى منازل المتطوعين، وهو مقصر في أداء الواجبات، مع ملاحظة أن الفرائض محدودة، ومحصورة، بينما النوافل واسعة النطاق، لا حصر لمجموعها، وهي تؤدى بعد الفرائض، أو قبلها، أو منفصلة عنها، ولو اكتفى العابد بأداء الفرائض فقط كفاه ذلك، لكن تقديم المزيد من النوافل يرتقي بالعابد لينال محبة الله، وليكون من أوليائه، الذين يحبهم، ويسدد خطاهم، وقد كان رسولنا الأكرم، صلى الله عليه وسلم، مثالاً في حسن التقرب إلى الله بالعبادة، فرائضها ونوافلها، وحديث عُقْبَة بن عَامِرٍ الجُهَنِيَّ، المثبت نصه

* صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها.

آنفا، يشير إلى المساحة الزمنية الواسعة للتطوع في الصلاة، فالنافلة تؤدى في ساعات النهار والليل، إلا في أوقات محددة بينها الحديث الشريف، وهي مراتب ودرجات وأنواع، فمنها المؤكد والراتب، ومنها المشروع المأثور، ومنها المختار من العابد بما يتفق مع أصل المشروعية، دون أن يكون لها دليل مخصص، فالمهم تجنب محظورات التطوع، كالصلاة في أوقات الكراهة التي نهي عن الصلاة فيها، كما نص على ذلك الحديث المذكور آنفاً، وما رواه أبو هُرَيْرَةَ، قال: (نهى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عن صَلاتَيْنِ: بَعْدَ الْفَجْرِ حتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، وَبَعْدَ الْعَصْرِ حتى تَغْرُبَ الشَّمْسُ) [1]

الصوم التطوعي:

صيام التطوع المشروع مأجور، ومن ذلك صوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، والأيام الثلاثة البيض من كل شهر، ويوم عرفة، والستة أيام من شوال، فرَسُول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا من شَوَّالٍ، كان كَصِيَامِ الدَّهْرِ) [2]، وصيام النافلة والتطوع يحظر في ظروف معينة، فيحظر أيام عيدي الفطر والأضحى، ويحظر على الحائض والنفساء، ويحظر فيه الوصال، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما: (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، نهى عن الوِصَالِ، قالوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ؟ قال: إني لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إني أُطْعَمُ وَأُسْقَى) [3]

الاعتدال في أداء النوافل:

التطوع بالصلاة والصيام بابه واسع، في إطار ضوابط الشرع، وكلما تزود العابد بالمزيد منه جنى ثماراً طيبة، ومن نماذج التطوع بالصلاة والصيام، ما جاء ذكره في رواية عَبْد اللَّهِ بن عَمْرِو بن العَاصِ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال له: (أَحَبُّ

1. صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب لا تتحرى الصلاة قبل غروب الشمس.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان.
3. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم.

الصَّلاةِ إلى اللَّهِ صَلاةُ دَاوُدَ، عليه السَّلام، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إلى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وكان يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا)[1]

فالتطوع رغم فضله العظيم، إلا أن المغالاة فيه غير محمودة، ومن شواهد ذلك قصة الثَلاثَةُ رَهْطٍ (الذين جاءوا إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي، صلى الله عليه وسلم، قد غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ؟ قال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أنا، فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وقال آخَرُ: أنا أَصُومُ الدَّهْرَ، ولا أُفْطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إليهم، فقال: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا واللَّهِ، إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[2]

فالله يحب أن يعبد كما أمر وشرع، والأحاديث المذكورة آنفاً عن النهي عن الصلاة في أوقات معينة، وكذلك النهي عن الصيام في أيام محددة، تؤكد لزوم الانصياع لأمر الله في الشأن كله، حتى في كيفيات التعبد إليه سبحانه، فحرية العابد مقيدة بالشرع، وكلما زادت عبادتهم المشروعة، زاد ثوابهم، وارتفع مقامهم.

فهذه وقفات أخرى مختارة مع عينة من مؤكدات أهمية التقرب إلى الله بالعبادات؛ فرائضها ونوافلها، عسى أن يتيسر الوقوف عند المزيد منها في حلقة أخرى، حسب ما جاء عن النبي الهادي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب من نام عند السحر.
2. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.

الرسول الأسوة محمد ﷺ
يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية
الحلقة الثالثة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (جاء الْفُقَرَاءُ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ من الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلا، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ من أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بها، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، قال: ألا أُحَدِّثُكُمْ إن أَخَذْتُمْ، أَدْرَكْتُمْ من سَبَقَكُمْ، ولم يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ من أَنْتُمْ بين ظَهْرَانَيْهِ، إلا من عَمِلَ مثله، تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كل صَلاةٍ، ثَلاثًا وَثَلَاثِينَ، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فقال بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَرَجَعْتُ إليه، فقال: تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حتى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ) [1]

بينت الحلقتان السابقتان بعض التوضيحات الشرعية الخاصة بأداء النوافل، التي يؤديها المسلم على وجه التطوع لا الإلزام، ووقفت عند نماذج عملية لمسألة العبادة التطوعية، ومن ذلك الصوم التطوعي، وأكدت على أهمية الاعتدال في أداء النوافل، بعيداً عن الغلو والتطرف، ومن شواهد ذلك رد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الثَلاثَةُ رَهْطٍ، الذين جنحوا إلى المغالاة في العبادة والتقشف، فخرجوا بذلك عن إطار المحمود إلى المذموم، فكان الرد النبوي صارماً: (...أَمَا والله، إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ له، لكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي، وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) [2]

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب الذكر بعد الصلاة.
2. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.

وفي الحديث الشريف أعلاه تعريج على بيان فضل الذكر التطوعي، الذي يصل بصاحبه لنيل مكانة تفوق مكانة المتصدقين بالمال، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: (...ألا أُحَدِّثُكُمْ بأمر إن أَخَذْتُمْ به أَدْرَكْتُمْ من سَبَقَكُمْ، ولم يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ من أَنْتُمْ بين ظَهْرَانَيْهِ، إلا من عَمِلَ مثله...) فالمسبحون والحامدون والمكبرون دبر كل صلاة يتفوقون على غيرهم من المحسنين العابدين، إلا إذا فعلوا مثلهم، فيكونون سواء في أجر الذكر، وهذا ما حصل فعلاً. ففي حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (...وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)[1]، وبالتأكيد أن الذكر المشار إليه هنا يندرج ضمن العبادة التطوعية، التي يثاب فاعلها، ولا يعاقب تاركها.

الصدقة التطوعية:

التطوع في العبادات يكون في أنواعها كافة، فمثلما يكون في الصلاة والصيام والحج، يكون كذلك في الصدقات والذكر، وغير ذلك من القربات، فالزكاة صدقة محددة المقدار، لكن الإنفاق التطوعي لا حد له، وفيه يتضاعف أجر المتصدق بمضاعفة ثواب صدقته، مصداقاً لقوله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[2]، والمتطوعون بالصدقات يؤدونها في العلن والخفاء، في ساعات الليل والنهار، وقد أثنى الله جل في علاه عليهم، بقوله عز وجل: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[3]، والرسول، صلى الله عليه وسلم، أثنى على مخفي الصدقات، ففي حديث السبعة الذين يظلهم الله، المشار إليه آنفاً، قال: (...وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى، حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ) مما يدل على فضل الصدقة التطوعية، التي قد تأخذ بيد صاحبها إلى الوقاية من

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد.
2. البقرة: 261.
3. البقرة: 274.

النار، حتى لو كانت قليلة المقدار، بسيطة الكلفة، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (...فَلْيَتَّقِيَنَّ أحدكم النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لم يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ)[1]، حتى المداعبة التي تكون بين الزوجين يؤجران بها، فعليه الصلاة والسلام يقول: (...وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ من نَفَقَةٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حتى اللُّقْمَةُ التي تَرْفَعُهَا إلى في امْرَأَتِكَ...)[2]

والمتصدقون لله محرزون من الخوف والحزن، حيث يقول جل ذكره: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[3]

فباب الصدقات التطوعية واسع، ومجالها رحب، يستطيعها الفقير والغني، بمستويات شتى، وغالباً ما لا يعود الفضل فيها إلى المقادير والكميات، بقدر ما يكون للنوايا والمقاصد والآثار، فالذي تصدق على حيوان يلهث من شدة العطش بشربة ماء، دخل الجنة بذلك، فعن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ رَجُلاً رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى من الْعَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ له بِهِ، حتى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ الله له، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ)[4]، فكيف بالذين ينقذون بصدقاتهم جوعى من الهلاك، ومرضى من الألم؟! لهم أجرهم، ويبارك الله في مالهم وعيالهم، ويدخر لهم ثواباً جزيلاً، ينفعهم يوم الدين، وعند العرض على رب العالمين.

فهذه وقفات أخرى مختارة مع عينة من مؤكدات أهمية التقرب إلى الله بالعبادات، فرائضها ونوافلها، عسى أن يتيسر الوقوف عند مزيد منها في حلقة أخرى، حسب ما جاء عن النبي الهادي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد.
2. صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس.
3. البقرة: 262.
4 صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية

الحلقة الرابعة

عن عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن العَاصِ، رضي الله عنهما، قال: قال لي رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (يا عَبْدَ اللَّهِ، لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ، كان يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ)(*)

في الحلقة السابقة، تمَّ التنبيه إلى أن التطوع في العبادات يكون في أنواعها كافة، فمثلما يكون في الصلاة والصيام والحج، يكون كذلك في الصدقات والذكر وغير ذلك من القربات، فالزكاة صدقة محددة المقدار، لكن الإنفاق التطوعي لا حد له، وفيه يتضاعف أجر المتصدق بمضاعفة ثواب صدقته، والمتصدقون لله محرزون من الخوف والحزن، وتمت الإشارة إلى فضل الذكر التطوعي، الذي يصل بصاحبه إلى نيل مكانة تفوق مكانة المتصدقين بالمال، فباب الصدقات التطوعية واسع، ومجالها رحب، يستطيعها الفقير والغني، بمستويات شتى، وغالباً ما لا يعود الفضل فيها إلى المقادير والكميات، بقدر ما يكون للنوايا والمقاصد والآثار.

وفي الحديث أعلاه، تشجيع على المداومة على أداء العبادة التطوعية، التي اعتاد العابد أداءها، وقد جاء هذا التشجيع من خلال انتقاد الذي يتراجع عن أداء عبادة تطوعية سبق أن اعتاد أداءها، وكانت صلاة قيام الليل هي العبادة التي انتقد الحديث الشريف من يتركها بعد مداومته على أدائها، مما يصب في معين الاهتمام بأداء العبادة التطوعية، وفضل القيام بها، وفي مرقاة المفاتيح أن في هذا الحديث إشارة إلى أن ترك العبادة، والرجوع إلى العادة قهقرى في السير، ونقصان بعد الزيادة، إذ ينبغي للسالك، والمريد أن يكون طالباً

* صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه.

للمزيد، ومن استوى يوماه، فهو مغبون، والمراد زيادة العلم والعمل، لا المال والجاه والأهل، كما قال، ونعم من قال:

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران[1]

وقد ذم الله تعالى قوماً أكثروا العبادة، ثم فرطوا فيها، فقال تعالى: {... وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ...}[2] [3]

وأنكر الله تعالى سلوك الذين قست قلوبهم ممن طال عليهم الأمد، فقال عز وجل: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}[4]

فأصحاب القلوب القاسية يختلفون عن الذين توجل قلوبهم، وتخشع لذكر الله، ومن أسباب قسوة القلوب طول الأمد، وقسوة القلوب قد تؤدي إلى فتور التوجه إلى أداء العبادات، وبخاصة نوافلها، مما يفوت على المرء تحصيل الأجر ومزيد الفضل.

وفي عمدة القاري ذكر لبعض ما يستفاد من هذا الحديث الشريف، ومن ذلك قول ابن العربي، أن فيه دليلاً على أن قيام الليل ليس بواجب، إذ لو كان واجباً لم يكتف لتاركه بهذا القدر، بل كان يذمه أبلغ الذم، وقال ابن حبان: فيه جواز ذكر الشخص بما فيه من عيب، إذا قصد بذلك التحذير من صنيعه، وفيه استحباب الدوام على ما اعتاده المرء من الخير، من غير تفريط، وفيه الإشارة إلى كراهة قطع العبادة، وإن لم تكن واجبة.[5]

الاستعانة بالاعتدال على ديمومة أداء النوافل:

حثت نصوص شرعية صريحة على الاعتدال في أداء العبادة التطوعية، منها حديث

1. مرقاة المفاتيح، 3/ 930.
2. الحديد: 27.
3. عون المعبود، 7 /56.
4. الحديد: 16.
5. عمدة القاري، 7 /210.

الثلاثة رَهْطٍ الذين جاءوا إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النبي، صلى الله عليه وسلم: (فلما أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي، صلى الله عليه وسلم ، قد غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وما تَأَخَّرَ، قال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أنا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وقال آخَرُ: أنا أَصُومُ الدَّهْرَ، ولا أُفْطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إليهم، فقال: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا والله إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي).[1]

وعن عَبْدِ اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، قال: (قال لي النبي، صلى الله عليه وسلم: أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟ قلت: إني أَفْعَلُ ذلك، قال: فَإِنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذلك هَجَمَتْ عَيْنُكَ، وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ)[2]

معنى قوله: (فَصُمْ وَأَفْطِرْ)؛ أي إذا كان الأمر كذلك، فصم في بعض الأيام، وأفطر في بعضها، وكان هذا إشارة إلى صوم داود، عليه السلام، وقوله: (وقم)؛ أمر من قام بالليل لأجل العبادة، قوله: (ونم) أمر من النوم أي في بعض الليل، وهذا كله أمر ندب وإرشاد.[3]

فهذه وقفات أخرى مختارة عند عينة من مؤكدات أهمية التقرب إلى الله بالنوافل، عسى أن يتيسر الوقوف عند مزيد منها في الحلقة التالية، في ضوء ما جاء عن النبي الهادي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.
2. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه.
3. عمدة القاري، 7 /212.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية

الحلقة الخامسة والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: (يا بِلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سمعت دَفَّ نَعْلَيْكَ بين يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ، قال: ما عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي، أَنِّي لم أَتَطَهَّرْ طَهُورًا في سَاعَةِ لَيْلٍ أو نَهَارٍ، إلا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ ما كُتِبَ لي أَنْ أُصَلِّيَ، قال أبو عَبْد اللَّهِ: دَفَّ نَعْلَيْكَ، يَعْنِي تَحْرِيكَ) [1]

في الحلقة السابقة تم التطرق إلى مسألة تشجيع المداومة على أداء العبادة التطوعية، في سياق انتقاد الذي يتراجع عن أداء عبادة تطوعية سبق إن اعتاد على أدائها، كصلاة قيام الليل، التي انتقد الرسول، صلى الله عليه وسلم، من يتركها بعد تعود أدائها، وقد ذم الله تعالى قوماً أكثروا العبادة، ثم فرطوا فيها، وأنكر سبحانه سلوك الذين قست قلوبهم وقد طال عليهم الأمد، وتعرضت الحلقة إلى الاستعانة بالاعتدال على ديمومة أداء النوافل، في ضوء سنة النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي أكد على أن من رغب عن سنته فليس منه.

وفي الحديث الشريف أعلاه، بيان لفضل نوع آخر من العبادة التطوعية، ارتقت بمؤديها إلى نيل منزلة رفيعة في الجنة، بصحبة النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي لفت الانتباه إلى هذا الفضل، بأسلوب مشوق، حين سأل بلال بن رباح، رضي الله عنه، عن أَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْهُ فِي الْإِسْلَامِ، عساه يكون السر الكامن في سماعه دف نعليه بين يديه في الجنة، ومن شرح العلماء للمراد بقوله: (دف نعليك) أن الدف الحركة الخفيفة، والسير اللين. [2]

1. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار.
2. فتح الباري، 3 /34.

وجاء في مرقاة المفاتيح أن المراد صوتهما عند المشي فيهما، ولعل في صورة التقديم إشارة إلى أنه عمل عملاً خالصاً، ولذا خصَّ من بين عموم الخدام بسماع دف نعليه، المشير إلى خدمته وصحبته له، عليه الصلاة والسلام، في الدارين. والعمل الذي بلغ ببلال هذه المنزلة، أنه لم يكن يتطهر طهوراً- ويشمل هذا الوضوء والغسل والتيمم- إلا صلى به ما قدر الله تعالى له من النوافل[1]، مما يعني أن التطوع بالنوافل ينفع المتطوع عند ربه، فينال بها منازل رفيعة عنده سبحانه.

التطوع بالعبادة وفق الوسع والطاقة:

لم يقيد، صلى الله عليه وسلم، المسلمين من بعده بأداء النوافل التي كان يؤديها جميعاً، أو يحث عليها، بل ترك لهم أخذ ما يطيقون ويستطيعون، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: (أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: فُلاَنَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلاَتِهَا، قَالَ: مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لاَ يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ)[2]

وفي شرح هذا الحديث، أن قوله: (مه) زجر، ويحتمل أن يكون لعائشة، والمراد نهيها عن مدح المرأة، ويحتمل أن يكون المراد النهي عن تكلف عمل لا يطاق به، ولهذا قال بعده: (عليكم من العمل ما تطيقون) وقوله: (من العمل) يحتمل أن يريد به صلاة الليل؛ لوروده على سببه، ويحتمل أن يحمل على جميع الأعمال، وقوله: (بما تطيقون) قال القاضي: الندب إلى تكلف ما لنا به طاقة، ويحتمل النهي عن تكلف ما لا نطيق، والأمر بالاقتصار على ما نطيق، وهو أنسب للسياق، وقوله: (عليكم من العمل بما تطيقون) فيه عدول عن خطاب النساء، إلى خطاب الرجال، وكان الخطاب للنساء، فيقتضي أن يقال عليكن،

1. مرقاة المفاتيح، 3 /362.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عز وجل أدومه.

ولكن لما طلب تعميم الحكم لجميع الأمة، غلب الذكور على الإناث في الذكر، وقوله: (فو الله لا يمل الله حتى تملوا) فيه المشاكلة والازدواج، وهو أن تكون إحدى اللفظتين موافقة للأخرى، وإن خالفت معناها.

والحاصل أن الملال لا يجوز على الله تعالى، ولا يدخل تحت صفاته؛ لأنه ترك الشيء استثقالاً، وكراهية له، بعد حرص ومحبة فيه، وهو من صفات المخلوق، فلا بد من تأويل، اختلف العلماء فيه، فقيل معناه أنه لا يترك الثواب على العمل، ما لم يترك العمل، وذلك أن من مل شيئاً تركه، فكنى عن الترك بالملال، الذي هو سبب الترك.(*)

مما سبق عرضه في هذه الحلقة وسابقاتها، يظهر أن أداء الأوامر الشرعية، يكون في إطار الوسع والطاقة، فكيف إذن بالنوافل والتطوع، مما لا يندرج ضمن الواجبات؟! فبحر هذه المنظومة التعبدية واسع وعميق، ينهل منه العابد ليس وفق الاستطاعة فحسب، بل وفق الهمة والرغبة كذلك، فمن رغب في نيل مزيد من الفضل، ورفعة المقام والمنازل، يتزود بالمزيد من النوافل، على درب المصطفى العدنان، الذي كانت تتفطر قدماه من القيام في أداء النوافل، وهو يعلم أنه غفر له، وفي المقابل كان يصوم ويفطر، ويصلي وينام، وتوعد الراغبين عن سنته بأن لا يكونوا من صحبه، ولا مريديه، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الكرام، وأزواجه الطاهرات، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري،1 /257.

الرسول الأسوة محمد ﷺ
كان إذا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ

عن عَائِشَةَ، قالت: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ، وكان إذا نَامَ من اللَّيْلِ، أو مَرِضَ، صلى من النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً، قالت: وما رأيت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قام لَيْلَةً حتى الصَّبَاحِ، وما صَامَ شَهْرًا مُتَتَابِعًا إلا رَمَضَانَ)[1]

انتهى المسلمون من أداء شعائر عيد الأضحى، وعاد حجاج بيت الله الحرام إلى أهليهم، بعد أن انتهوا من أداء مناسك الحج، آملين أن يكون حجهم مبروراً، وسعيهم مشكوراً، وذنبهم مغفوراً، ويشار إلى أن المسلمين الذين لم يؤدوا الحج انشغلوا في أيام الحج المعدودات بعمل الصالحات بأنواعها المختلفة، والتي منها الصيام والصدقة والصلاة، والاستغفار والإنابة إلى الله والذكر، وإصلاح ذات البين، مما يعني أن الانشغال بالعبادة جمع الحجاج والمسلمين الآخرين في بوتقة واحدة، وفي الحديث النبوي أعلاه إخبار من أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، عن ثبات الرسول، صلى الله عليه وسلم، على العمل الذي يعمله من الصالحات، وهذا يدل على أن النبي، عليه الصلاة والسلام، لم تكن بينه وبين العبادة فجوة أو فراغ، وإنما كان يتواصل معها بشكل دائم ومستمر، وكان يحافظ على أداء العمل الصالح الذي اعتاد عليه، ومما جاء في شرح معنى قول عائشة، رضي الله عنها: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ) أي أحكم عمله، بأن يعمل في كل شيء، بحيث يدوم دوام أمثاله، وذلك محافظة على ما يحبه ربه ويرضاه.[2]

1. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.
2. فيض القدير:5/ 150.

أَحَبُّ الأعمال إلى اللّه أَدْوَمُهَا:

في حديث عائشة سالف الذكر دليل على حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على مداومة أداء ما تم التعود عليه من نوافل الصلاة والقيام، فإذا اعترضه طارئ من نوم أو سواه أو مرض فحال دون أدائه تلك السنن، كان يصلي في النهار اثنتي عشرة ركعة عوضاً عن صلاة الليل التي فاتته، والمقصود بالصلاة الفائتة هنا صلاة الليل، فعن عَائِشَةَ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، كان إذا فَاتَتْهُ الصَّلاةُ من اللَّيْلِ من وَجَعٍ أو غَيْرِهِ صلى من النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً)[1]

ويرى النووي أن في هذا دليلاً على استحباب المحافظة على الأوراد، وأنها إذا فاتت تقضى.[2]

والشواهد الشرعية كثيرة على فضل المحافظة على أداء العبادة، الفرض منها، وما تم التعود على أدائه من نوافلها، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أنها قالت: (سُئِلَ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ؟ قال: أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ، وقال: اكْلَفُوا من الأَعْمَالِ ما تُطِيقُونَ)[3]

وعلى خلاف ذلك؛ جاء الذم للذي ينقطع عن أداء العبادة التي اعتاد أداءها، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ، رضي الله عنهما، قال: (قال لي رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: يا عَبْدَ اللَّهِ، لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ، كان يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ)[4]

مواصلة العهد مع العبادة:

المسلم يعيش حياته عابداً لله في شأنه كله، من خلال انصياعه لأمر الله، فهو يعبد الله في الكف عن الحرام والتقيد بالحلال، وأداء الشعائر التعبدية، والاستزادة من أداء النوافل

1. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.
2. صحيح مسلم بشرح النووي:6/ 27.
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل.
4. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه.

التي ترتقي به ليكون ضمن أولياء الله الذين يحبهم الله تعالى ويسدد خطاهم، وفق ما جاء في الحديث القدسي (... وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ؛ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ...) [1]

والمسلم في المحصلة يؤدي العبادة، ويتواصل معها دون انقطاع، عملاً بأمر الله جل في علاه، الذي جعل العبادة غاية خلق الإنس والجن، مصداقاً لقوله عز وجل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ} [2]

والله تعالى ركز على إبراز صفة المحافظة على الصلاة، وإدامة أدائها في ثنايا الثناء على عباده الأبرار، فقال عز وجل: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ} [3]، {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [4]، والمحافظة على أداء الصلاة تكون في الأحوال كلها، حتى في حال المرض، فعن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ، رضي الله عنه، قال: (كانت بِي بَوَاسِيرُ، فَسَأَلْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، عن الصَّلاةِ، فقال: صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لم تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لم تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ) [5]

ولا ينقطع المسلم العابد عن أداء العبادة حتى رحيله عن هذه الدنيا الغابرة، حسب أمره جل في علاه: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [6]

فالمسلم يديم الحرص على أداء العبادة، ولا ينحصر أداؤه لها بزمن دون غيره، ولا بمناسبة دون سواها، إنما يحرص عليها في منشطه ومكرهه، في عسره ويسره، في ليله ونهاره، دون أن يكلف نفسه فوق وسعها، على هدي نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
2. الذاريات:56.
3. المعارج:23.
4. المعارج:34.
5. صحيح البخاري، كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب.
6. الحجر:99.

الفصل الثالث
معاملات

الرسول الأسوة، محمد صلى الله عليه وسلم

.1	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الأولى	166
.2	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الثانية	170
.3	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الثالثة	173
.4	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الرابعة	176
.5	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الخامسة	179
.6	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة السادسة	182
.7	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة السابعة والأخيرة	186
.8	وانتصاراته العسكرية في رمضان	190
.9	يأمر بفك قيد الأسرى	195
.10	يبين فضل حفظ استحقاقات العمال	200
.11	يحذر من الإشاعات الكاذبة والمغرضة	205

الرسول الأسوة محمد ﷺ

حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم

الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لَا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هاهنا، وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ، أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ) (*)

يحدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف جملة من الأخلاق والقيم، التي تندرج في إطار تنظيم علاقة المسلم بإخوانه، وتحفظ الود بينهم، وتقوي أواصر علاقاتهم ببعض، وتنزع فتيل النزاع والشقاق من واقعهم.

وتتوزع هذه القيم بين مبادئ، وأوامر ونواهٍ، وقد شملت المبادئ المتضمن ذكرها في الحديث الشريف بيان أن المسلم أخو المسلم، لَا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، والقلب حصن التقوى، وإثم احتقار المسلم لأخيه عظيم، وكُلّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ.

وفي جانب الأوامر، ركز الحديث على لزوم أن يكون المسلمون فيما بينهم إخواناً.

* صحيح مسلم، أبواب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

وبالنسبة إلى النواهي التي شملها هذا الحديث، فتمثلت في النهي الصريح عن الحسد، والنجش، والتباغض، والتدابر، وبيع الأخ على بيع أخيه، والنهي العرضي عن ظلم المسلم لأخيه، وخذله، واحتقاره، وسفك دمه، وسلب ماله، وانتهاك عرضه.

ويمكن إجمال الوقوف عند هذه القيم المستوحاة من هذا الحديث الشريف، على النحو الآتي:

المسلم أخو المسلم:

من المبادئ التي أشار إليها الحديث، والتي ترتكز إليها قيم الإسلام وأخلاقه، أن المسلم أخو المسلم، حيث أقرَّ الله عز وجل هذا المبدأ في القرآن الكريم، بقوله جل ذكره:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[1]، فهي أخوة مؤكدة، ومعاضدة بالحث على تعزيزها بمقومات بقائها، ووقايتها من عوامل الانهيار، تبين هذا من خلال الحث القرآني على الإصلاح بين المختلفين، لأن النزاع بينهم يؤدي إلى الفشل، الذي حذر عز وجل منه، بقوله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[2]، فالفشل الناتج عن التنازع يفضي إلى تفتيت القوة، ويتيح المجال رحباً لاستقواء المتربصين بالمؤمنين، واستهواء السيطرة على زمام أمورهم، ونهب خيراتهم، واستعباد رقابهم، وصدق ناصح بنيه حين قال:

كونوا جميعاً يا بنيّ إذا اعترى *** خطب ولا تتفرقوا آحاداً

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً *** وإذا افترقن تكسرت أفراداً

1. الحجرات: 10.
2. الأنفال: 46.

فالعلاقة بين المؤمنين ينبغي أن تقوم على أساس الأخوة، التي تعني في دلالتها ومتطلباتها تحقق أمور بينهم، عبّر الحديث الذي بين أيدينا عن بعضها، وبينت آيات قرآنية وأحاديث شريفة أخرى كماً هائلاً منها.

أخوة المهاجرين والأنصار:

لم يكن بالأمر العابر ولا من قبيل المصادفة أن تركز أعمال الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأولى في المدينة المنورة بعد الهجرة إليها، على تحقيق التآخي العملي والواقعي بين المهاجرين والأنصار، فلم يترك الأمر للخواطر والنوايا والرغبات، بل احتضنت بيوت الأنصار المهاجرين بطريقة تعاونية تعتمد الحب المتبادل بين المتآخين، والحرص على تسهيل أمور المهاجرين، الذين تركوا ديارهم وأموالهم في مكة؛ استجابة لأمر ربهم، ونصرة لدينه القويم، فلقيهم الأنصار بالإيواء، وقاسموهم المأوى والطعام والشراب، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (قَالَتِ الأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ، قَالَ: لاَ، فَقَالُوا: تَكْفُونَا المَئُونَةَ، وَنَشْرَكْكُمْ فِي الثَّمَرَةِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا).(*)

وتكوّن من فريقي المهاجرين والأنصار المجتمع الإسلامي الأول، الذي لم يطل به الزمان، حتى انتصر على جبروت الظالمين وطغيانهم، وقد أثنى رب البرية على صنيع الطرفين، فقال في محكم التنزيل: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* وَالَّذِينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ

*صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب إذا قال اكفني مئونة النخل وغيره وتشركني في الثمر.

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[1]

وعلى منهج هذه الأخوة يجب أن تبنى علاقات المسلمين ببعض، وهو منهج ينبغي أن لا يكون حادثاً تاريخياً عابراً، تسرد أخباره على سبيل التباهي بأعمال السالفين والتغني بمواقفهم، بل هي سنة الصالحين، ودرب المنتصرين، الذي منه نستلهم النور، استجابة لأمر الله الخاص بالتأسي بالصالحين من النبيين، ومناصريهم، على مر العصور، حيث يقول تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[2]، وما أحوج مسلمو هذا الزمان إلى الإيمان بمبدأ أخوة المؤمنين، وفقه واجبهم نحوها، وأهميتها لإنقاذهم من بؤس التشرذم والشقاق والأحقاد.

فهذه نفحات يسر الله استنباطها واستلهامها من الحديث الشريف أعلاه، آملين متابعة استنباط مزيد منها في الحلقة القادمة، من زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الحشر:8 - 9.
2- الممتحنة: 6.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم

الحلقة الثانية

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) (*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى الحديث عن بعض الأخلاق والقيم، التي تندرج في إطار تنظيم علاقة المسلم بإخوانه، وتحفظ الود بينهم، وتقوي أواصر علاقاتهم ببعضهم بعضاً، وتنزع فتيل النزاع والشقاق من واقعهم، وقد توزعت تلك القيم حسب ما تم استنباطه من حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي استهلت به تلك الحلقة بين مبادئ، وأوامر ونواهٍ، ومن المبادئ التي أشار إليها الحديث المذكور، أن المسلم أخو المسلم، أخوة مؤكدة ومعاضدة بالحث على تعزيزها بمقومات بقائها، ووقايتها من عوامل الانهيار.

ولم يكن بالأمر العابر ولا من قبيل المصادفة أن تركز أعمال الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأولى في المدينة المنورة بعد الهجرة إليها، على تحقيق التآخي العملي والواقعي بين المهاجرين والأنصار، وعلى منهج هذه الأخوة يجب أن تبنى علاقات المسلمين ببعضهم بعضاً، مع ضرورة استبعاد ما يتناقض مع هذا المبدأ، من قبيل قتل الإنسان بغير حق، الذي يعتبر جريمة نكراء يتنافى اقترافها مع قيم الأخوة والتراحم، وحديث أبي هريرة أعلاه، يبين خطورة التهاون بقتل الأبرياء، فذلك من أكبر الكبائر، وأعظم الآثام.

* صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً} (النساء: 10).

تحريم قتل النفس البريئة:

على الرغم من التوجيهات الدينية الكثيرة والقوية تجاه تقوية أواصر الأخوة بين المؤمنين، فإن مجريات الأحداث بينهم يندى لكثير منها الجبين، حيث القتل للنفوس البريئة التي حرم الله قتلها بغير حق، فباتت أخبار جرائم القتل المروع ترد من أوساطهم صباح مساء، سواء على صعيد القتل الفردي، أم الجماعي، بغض النظر عن الأسباب والظروف والأماكن التي تقع فيها، ومن أجلها، وفي الحديث الشريف أعلاه، يدرج الرسول، صلى الله عليه وسلم، القتل بغير حق ضمن كبائر الذنوب المهلكة.

وفي خطبة الوداع ركز عليه الصلاة والسلام، على جانب التنفير من انتهاك حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، بأسلوب مؤثر ومثير، حيث سبق حديثه صلى الله عليه وسلم، بتحريم دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم، تساؤله عن حرمة البيت الحرام، والشهر الحرام، ويوم النحر، ليجذب عيون السامعين وقلوبهم للأمر الجلل، المتضمن تحريم الاعتداء على الدماء والأموال والأعراض، فعن عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ، عن أبيه: (ذَكَرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، قَعَدَ على بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ، أو بِزِمَامِهِ، قال: أَيُّ يَوْمٍ هذا؟ فَسَكَتْنَا، حتى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قال: أَلَيْسَ يوم النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قال: فَأَيُّ شَهْرٍ هذا؟ فَسَكَتْنَا، حتى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فقال: أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قال: فإن دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فإن الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ من هو أَوْعَى له منه)(*)

تهاون مستفظع:

تأكيدات لزوم صون دماء المسلمين، والكف عن سفكها بغير حق كثيرة في الإسلام، ومع ذلك فإن بعض متجاوزي الحدود، يبدو أنهم لم يستوعبوا الدرس، بدليل مسارعتهم إلى سفك الدماء بتهاون مريع، واستخفاف فظيع، إذ إن قتل البريء يعدل قتل الناس

* صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (رب مبلغ أوعى من سامع).

جميعاً، حسب ما جاء في التعقيب على الحادثة الإجرامية الأولى في تاريخ الإنسانية، لما قتل أحد ابني آدم أخاه، قال تعالى:{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}[1]

فحرمة الدماء البريئة عظيمة، وإراقتها دون حق إثمه كبير، فكيف للمتهاونين بذلك أن يبادروا إلى اقتراف هذه الكبيرة دون وجل من الله، الذي نهى عن قتل النفس البريئة، فقال عز وجل:{وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً}[2]، وأثنى الله على المؤمنين لتميزهم بخصال وصفات جليلة، منها: امتناعهم عن قتل النفس التي حرم الله قتلها، فقال تعالى:{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً}[3]

راجين أن يكون في هذا التذكير المجمل بموقف الشرع من سفك الدماء بغير حق، ما يردع عن الاسترسال في اقتراف الجرائم النكراء، التي تطال دماء أمر الله باحترامها وحفظها، وإلى لقاء آخر نأمل أن يوفق الله فيه إلى متابعة الحديث عن أهمية الكف عن قتل الأبرياء، التي جاء التنفير من سفكها بأساليب ومضامين عديدة في سنة البشير النذير، محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1.المائدة: 32.
2. الإسراء:33.
3. الفرقان:68.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم

الحلقة الثالثة

عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لن يَزَالَ المُؤْمِنُ في فُسْحَةٍ من دِينِهِ ما لم يُصِبْ دَمًا حَرَامًا). (*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى الحديث عن أهمية الكف عن قتل الأبرياء، في ضوء الوقوف عند موقف الشرع من سفك الدماء بغير حق، بهدف الردع عن الاسترسال في طريق الجرائم النكراء، التي تطال دماء أمر الله باحترامها وحفظها، جاء ذلك في إطار مواصلة الوقوف عند موضوع الحرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم.

وعيد متجاوزي الحق في القتل

في الحديث الشريف أعلاه ينفر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من استباحة الدماء المصانة، إذ كيف للذين يؤمنون بيوم الحساب أن يلقوا ربهم فيه، وفي أعناقهم وزر زهق أرواح بالباطل، جاء في فتح الباري، أن قوله: (في فسحة) بضم الفاء، أي سعة، وقوله: (من دينه) وفي رواية (من ذنبه) فمفهوم الأول أن يضيق عليه دينه، ففيه إشعار بالوعيد على قتل المؤمن متعمداً، بما يتوعد به الكافر، ومفهوم الثاني أنه يصير في ضيق بسبب ذنبه، ففيه إشارة إلى استبعاد العفو عنه، لاستمراره في الضيق المذكور، وقيل: الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة، حتى إذا جاء القتل ضاقت، لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب قبوله الغفران بالتوبة، حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول، وحاصله أنه فسره على رأي ابن

* صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم} (النساء: 93).

عمر في عدم قبول توبة القاتل، وقوله: (ما لم يصب دماً حراماً) الإصابة كناية عن شدة المخالطة، ولو قَلت.[1]

ومن الوعيد القرآني الصارم للذي يقتل بريئاً بغير حق، ما تضمنه قوله تعالى: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}[2]، فالقاتل بغير حق تنتظره جهنم، وما أدراك ما جنهم؟! إنها السعير، والنار التي تلظى، التي تزيد حرارة لهيبها عن حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفاً، ففي الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (نَارُكُمْ جُزْءٌ من سَبْعِينَ جُزْءًا من نَارِ جَهَنَّمَ، قِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، إن كانت لَكَافِيَةً، قال: فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا)[3]

حفظ دم غير المسلم من القتل بغير حق:

وعيد متجاوزي الحق في القتل لا يقتصر على الاعتداء على دماء المسلمين وأرواحهم، بل يشمل هذا الوعيد قتلة المعاهدين من غير المسلمين، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قَتَلَ مُعَاهَدًا لم يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ من مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)[4]

فليس من الإسلام ولا نصرته، الاستهانة بدماء غير المعتدين من الناس، أياً كانت دياناتهم ومعتقداتهم، فقاعدة{لكم دينكم ولي دين}، قررها رب العالمين، الذي حثَّ المسلمين على البر والقسط لغير المعادين لهم من أصحاب المعتقدات الأخرى، فقال جل شأنه: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[5]

1. فتح الباري، 12 /188بتصرف.
2. النساء: 93.
3. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة.
4. صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.
5. الممتحنة:8.

وإنما تكون العداوة للمعتدين فحسب، وفق بيان الآية القرآنية الكريمة التالية لهذه، حيث يقول تعالى: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[1]، فلا مسوغاً شرعياً لأي انتهاك لهذه المبادئ، التي أرساها الله تعالى في محكم التنزيل.

الوقاية من استشراء القتل بالقصاص ومنع الثأر:

لم يقتصر دور الشريعة الإسلامية على التوعية الوقائية ضد تجاوز الحق في القتل، وزهق الأرواح، وسفك الدماء، بل شمل دورها كذلك على تشريع أحكام واضحة لمواجهة هذه المشكلة، والعمل على معالجتها بشكل ناجع وعملي، فشرع الله القصاص من القاتل جزاء له بمثل فعله، وقدمته يداه، وفي حال الأخذ بالتشريع الرباني، والعمل بموجبه، فسيتقلص حجم القتل الظالم في المجتمع؛ لأنه تشريع رادع، لكل من تسول له نفسه اقتراف القتل الآثم، فسيردعه العلم بأن مصيره القتل، كما أن القصاص يحمي المجتمع من آفة الأخذ بالثأر، حين يشفى غليل أهل المقتول، بقتل المعتدي على دم ابنهم وقريبهم، من هنا كان الوصف القرآني رائعاً للقصاص بأنه حياة، كما جاء في قول الله عز وجل: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[2]

ولأهمية جانب الوقاية من استشراء القتل بالقصاص ومنع الثأر، نرجو أن يوفق الله تعالى إلى متابعة الحديث عنها في سياق تناول موضوع الحرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم، والتركيز من خلاله على الكف عن قتل الأبرياء، الذي جاء التنفير منه بأساليب ومضامين عديدة في آيات القرآن الكريم، وفي سنة البشير النذير محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1. الممتحنة:9.
2. البقرة:179.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم

الحلقة الرابعة

عن أَنَسٍ: (أَنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ، كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا العَفْوَ، فَأَبَوْا، فَعَرَضُوا الأَرْشَ، فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَأَبَوْا إلا القِصَاصَ، فَأَمَرَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِالْقِصَاصِ، فقال أَنَسُ بن النَّضْرِ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟ لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: يا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ القِصَاصُ، فَرَضِيَ الْقَوْمُ، فَعَفَوْا، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ من عِبَادِ اللَّهِ من لو أَقْسَمَ على اللَّهِ لأَبَرَّهُ) (*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى وعيد متجاوزي الحق في القتل، إذ كيف للذين يؤمنون بيوم الحساب أن يلقوا ربهم، وفي أعناقهم وزر زهق أرواح بالباطل، ووعيد أولئك، لا يقتصر على الاعتداء على دماء المسلمين وأرواحهم فحسب، بل يشمل قتلة المعاهدين من غير المسلمين، كما تعرضت الحلقة إلى الوقاية من استشراء القتل بالقصاص، ومنع الثأر، فدور الشريعة الإسلامية لم يقتصر على التوعية الوقائية ضد تجاوز الحق في القتل، وزهق الأرواح، وسفك الدماء، بل شمل دورها كذلك تشريع أحكام واضحة لمواجهة هذه المشكلة، والعمل على معالجتها بشكل ناجع وعملي، فشرع الله القصاص من القاتل جزاء له بمثل ما قدمت يداه، وفي حال الأخذ بالتشريع الرباني، والعمل بموجبه، فسيتقلص حجم القتل الظالم في المجتمع؛ لأنه تشريع رادع، فكل من تسول له نفسه اقتراف القتل الآثم،

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر} (البقرة: 178).

سيردعه العلم بأن مصيره القتل، كما أن القصاص يحمي المجتمع من آفة الأخذ بالثأر، حين يُشفى غليل أهل المقتول، بقتل المعتدي على دم ابنهم وقريبهم.

شرح خبر حادثة كسر الرُّبَيْع ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ:

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (الرُّبَيِّعَ)، بنت النضر، عمة أنس بن مالك، خادم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقوله: (ثنية جارية) الثنية مقدم الأسنان، والجارية المرأة الشابة، وقوله: (فطلبوا الأرش)؛ أي فطلب قوم الربيّع من قوم الجارية أخذ الأرش، وقوله: (وطلبوا العفو) قالوا خذوا الأرش، أو اعفوا عن هذه، (فأبوا) أي أن قوم الجارية امتنعوا، فلا رضوا بأخذ الأرش، ولا بالعفو، فعند ذلك أتوا النبي، صلى الله عليه وسلم، وتخاصموا بين يديه، فأمرهم صلى الله عليه وسلم، بالقصاص، فتساءل أنس بن النضر- والربيع أخته، وهو عم أنس بن مالك -راوي الحديث-، قتل يوم أحد شهيداً، ووجد به بضع وثمانون ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، وفيه نزلت: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ...}(*)، بقوله: (أتُكسر؟) والهمزة هنا للاستفهام، وتكسر على صيغة المجهول، ولم ينكر أنس حكم الشرع، والظاهر أن ذلك كان منه قبل أن يعرف أن كتاب الله القصاص، وظن التخيير لهم بين القصاص والدية، أو كان مراده الاستشفاع من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أو قال ذلك توقعاً ورجاء من فضل الله تعالى أن يرضي خصمها، ويلقي في قلبه أن يعفو عنها، وقال الطيبي كلمة (لا) في قوله: (لا والله)؛ ليس رداً للحكم، بل نفي لوقوعه، ولفظ (لا تُكسر) إخبار عن عدم الوقوع، وذلك بما كان له عند الله من الثقة بفضل الله، ولطفه في حقه، أنه لا يخيبه، بل يلهمهم العفو، ولذلك قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ من عِبَادِ اللَّهِ من لو أَقْسَمَ على اللَّهِ لأَبَرَّهُ)

* الأحزاب: 23.

وقوله: (كتاب الله القصاص)؛ أي حكم كتاب الله القصاص، على حذف مضاف، وهو إشارة إلى قوله تعالى: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}[1]، أو إلى قوله تعالى: { وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ }[2]، أو إلى قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}[3]، أو الكتاب بمعنى الفرض والإيجاب، وقوله: (لأبره)؛ أي صدقه، يقال بر الله قسمه، وأبره.[4]

الناس أمام قضاء الإسلام سواء:

في الحديث الشريف أعلاه يظهر النبي، صلى الله عليه وسلم، إصراراً على القصاص من المعتدي على أرواح الناس وجوارحهم، بغض النظر عن نسب المعتدي والمعتدى عليه، فالناس أمام قضاء الإسلام سواء، لا فرق بين عربي وأعجمي، ولا أسود وأبيض، ولا غني وفقير، ولا كبير وصغير، ولا ذكر وأنثى، إلا بالتقوى، والعدل مبدأ من مبادئ الإسلام العظيم، أمر به الله في قرآنه الكريم، فقال تعالى: {...وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[5]

وحين يدرك الناس بأن هناك قضاء عادلاً، يأخذ الحق للمعتدى عليه من المعتدي، وأن الحقوق لا تزول بسبب طغيان أصحاب النفوذ، فإن الطمأنينة تسود المجتمعات، والأمان يعم أهلها، وتذوب الأحقاد من القلوب، وتخف نتيجة لذلك الجرائم، وتتقوى الأواصر بين المسلمين، وتلك غايات نبيلة، حرص على تحقيقها شرعنا الحنيف، آملين في الحلقة القادمة متابعة الوقوف عند مزيد من هذه النفحات، المستقاة من هدي القرآن الكريم، وسنة خاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. المائدة: 45.
2. المائدة:45.
3. النحل: 126.
4. عمدة القاري، 13 /281.
5. المائدة: 42.

حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم

الحلقة الخامسة

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: (أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ، التي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فيها رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسَامَةُ بن زَيْدٍ حِبُّ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قام، فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قال: إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ، وأيم اللَّهِ، لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) (*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى خبر حادثة كسر الرُّبَيِّع ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، وشرحه، كشاهد على إصرار النبي، صلى الله عليه وسلم، على القصاص من المعتدي على أرواح الناس وجوارحهم، ومن ثمار ذلك أن الناس حين يدركون ويثقون بأن هناك قضاء عادلاً يأخذ الحق للمعتدى عليه من المعتدي، وأن حقوقهم لا تزول بسبب طغيان أصحاب النفوذ، فإن الطمأنينة تسود مجتمعهم، والأمان يعمهم، وتذوب الأحقاد من قلوبهم، وتخف نتيجة لذلك الجرائم، وتتقوى الأواصر بينهم.

عدالة منقطعة النظير:

استناداً لتقوية الأواصر بين المسلمين من خلال الحرص على إقامة العدل بينهم، وطمأنتهم على أنهم سواسية أمام قضائه، ينكر النبي، صلى الله عليه وسلم، في الحديث الشريف أعلاه

* صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار.

الشفاعة في الحدود، التي يجب أصلاً أن تطبق بحذافيرها عند تحقق شروط التطبيق، ومحاولة السعي لإحباط تطبيق هذا المبدأ، تتنافى مع مبادئ الإسلام التي تفرض المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، والرسول، صلى الله عليه وسلم، بعد إنكاره الشفاعة في حد الله، أعقب ذلك بتقرير ما يسند هذا المبدأ، بشكل حاسم جازم، من خلال قسمه بالله لو أن ابنته فاطمة سرقت لقطع يدها، التزاماً بحد السرقة الذي فرضه رب العالمين.

فأي تطبيق للعدالة بين الناس يفوق هذا المثال الرائع، الذي تجسدت فيه العدالة في أبهى صورها؟ من بيده الحل والعقد يقسم بالله على تطبيق حذافير العدالة حتى لو تأذى من ذلك فلذة كبده، وأمام هذا المشهد يقف المرء مدهوشاً، حين يقارن به المحسوبيات وتجاوز الأنظمة والقوانين لصالح فئة المقربين من أصحاب النفوذ، مما يثير الضغائن بين الناس، فيحقد المحرومون على المنتفعين من الاستثناءات الظالمة، وعلى القائمين على توزيع المنافع بغير حق، مما يضعف الأواصر بين الناس، ويبعث على كراهية بعضهم بعضاً، فالرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، ما كان يحابي الأقارب على الأباعد، وإنما كان ميزانه عادلاً، ومع ذلك كان لبعض الناس جرأة في الباطل، حيث دفعتهم أهواؤهم من خلالها إلى محاولة تلفيق تهمة خرم العدالة له صلى الله عليه وسلم، فعن عبد اللَّهِ بن الزُّبَيْرِ، رضي الله عنهما: (أَنَّهُ حدثه أَنَّ رَجُلًا من الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، في شِرَاجِ الحَرَّةِ، التي يَسْقُونَ بها النَّخْلَ، فقال الأَنْصَارِيُّ: سَرِّحِ المَاءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عليه، فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لِلزُّبَيْرِ: اسق يا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إلى جَارِكَ، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ، فقال: أَنْ كان ابن عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قال: اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حتى يَرْجِعَ إلى

الجَدْرِ، فقال الزُّبَيْرُ: واللّٰه إني لأَحْسِبُ هذه الآيَةَ نَزَلَتْ في ذلك {فلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}.[1]

والمراد بـ(شِرَاجِ الحَرَّةِ) هنا، مسيل الماء، وإنما أضيفت إلى الحرة، لكونها فيها، والحرة موضع معروف بالمدينة، قال أبو عبيد: كان بالمدينة واديان يسيلان بماء المطر، فيتنافس الناس فيه، فقضى رسول اللّٰه، صلى اللّٰه عليه وسلم، للأعلى فالأعلى، وقول الأنصاري للزبير: (سرح) فعل أمر، من التسريح، أي أطلقه، وإنما قال له ذلك لأن الماء كان يمر بأرض الزبير قبل أرض الأنصاري، فيحبسه لإكمال سقي أرضه، ثم يرسله إلى أرض جاره، فالتمس منه الأنصاري تعجيل ذلك، فامتنع، قوله: (اسق يا زبير) حيث أشار على الزبير برأي فيه سعة له وللأنصاري، وقوله: (أن كان ابن عمتك؟) بفتح همزة أن، وهي للتعليل، كأنه قال: حكمت له بالتقديم لأجل أنه ابن عمتك، وكانت أم الزبير صفية بنت عبد المطلب، وقال البيضاوي: وقيل إنه استفهام على جهة إنكار، وقوله: (فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رسول اللَّهِ، صلى اللّٰه عليه وسلم) أي تغير، وهو كناية عن الغضب، وقوله: (حتى يَرْجِعَ إلى الجَدْرِ) أي يصير إليه، وهو ما وضع بين شربات النخل، كالجدار، وقيل المراد الحواجز التي تحبس الماء، والحاصل أن أمره بإرسال الماء كان قبل اعتراض الأنصاري، وأمره بحبسه كان بعد ذلك.[2]

آملين في الحلقة القادمة متابعة الوقوف عند مزيد من نفحات الحرص على تقوية الأواصر بين المسلمين، حسب هدي القرآن الكريم، وسنة خاتم النبيين، صلى اللّٰه عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب سكر الأنهار.
2. فتح الباري، 5 /36 - 37.

حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم

الحلقة السادسة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ، ولا تَنَاجَشُوا، ولا يَزِيدَنَّ على بَيْعِ أَخِيهِ، ولا يَخْطُبَنَّ على خِطْبَتِهِ، ولا تَسْأَلْ المَرْأَةُ طَلاقَ أُخْتِهَا لِتَسْتَكْفِئَ إِنَاءَهَا)[1]

لفتت الحلقة السابقة الانتباه إلى جانب إقامة العدل، ورفض ما يتنافى مع مبادئ الإسلام التي تفرض المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، وتلك من المجالات الناجعة للوقاية من عوامل إضعاف الأواصر بين الناس، وتأجيج نار الحقد بينهم.

تحريم الاعتداء على الأموال والأعراض يعزز تقوية الأواصر:

من معززات تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم، التشديد على حظر الاعتداء على الأموال والأعراض، واحترام الخصوصيات والحقوق، وتتضافر هذه المعززات مع ما سبق عرضه من سبل تحريم سفك الدماء بغير حق، وحفظ الأموال والأعراض من الضرورات التي يجب صونها، والمحافظة عليها، فالمال شقيق الروح، والله تعالى يحرم أكل أموال الناس بغير حق، فيقول جل شأنه: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[2]

1.صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب ما لا يجوز من الشروط في النكاح.
2. البقرة: 188.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من أَخَذَ أَمْوَالَ الناس يُرِيدُ أَدَاءَهَا، أَدَّى الله عنه، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلافَهَا، أَتْلَفَهُ الله)[1]

وقد جاءت تشريعات الإسلام منسجمة مع هذه التوجيهات الكريمة، فحرمت الغش والسرقة والغرر، وكل ما من شأنه التعدي على أموال الآخرين.

وفي مجال حفظ الأعراض، حرم الإسلام الزنى، فقال عز وجل: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً}[2]، وحرم قذف المحصنات، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[3]، ودعا إلى الامتناع عن مس الأعراض بأي سوء، فمنع الغيبة، والسخرية، والاستهزاء بالآخرين، مما يعني طمأنة الناس على أعراضهم، ومعاقبة الذين تسول لهم أنفسهم الاعتداء على أعراض الناس، في الدنيا، وتوعدهم بعذاب بئيس يوم القيامة.

إجراءات تقي من المشاحنة حول حقوق مالية وشخصية:

من أسباب حصول الشقاق والنزاع بين الناس اختلافهم حول الحيازة الشخصية، والملكية الفردية، والتي تنشأ في أحيان كثيرة بسبب الأنانيات المقيتة، والشراهة في الحرص على الاستحواذ الذاتي، وفي إطار توطيد علاقات المسلمين ببعض، والوقاية من مسببات نزاعهم وشقاقهم، والوهن الذي يتعرض له قوام الود، والوئام بينهم، حث الإسلام على صون أموال الناس وأعراضهم من المس بأي أذى دون حق، فنهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الحديث الشريف الذي استهلت به هذه الحلقة، عن نماذج من

1. صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها وإتلافها.
2. الإسراء: 32.
3. النور: 23.

مسببات النزاع والشقاق بين المسلمين، فحرم الرسول، صلى الله عليه وسلم، التناجش، وأن يبيع المرء على بيع أخيه، أو يخطب على خطبته، وعن أن تسأل المرأة طلاق أختها لِتَسْتَكْفِئَ إِنَاءَهَا، ومن النواهي الأخرى التي وردت بالخصوص في أحاديث صحيحة النهي عن التباغض، والتحاسد، والتدابر، والهجران، إضافة إلى الأمر بأن يكون المؤمنون إخواناً، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تَبَاغَضُوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ)[1]

توطيد العلاقات وتعزيز الود:

النواهي عن مسببات الوهن والشقاق، تصب في معين التربية السلوكية والإيمانية التي تهدف إلى إطفاء نار الشقاق بين المسلمين، وإحلال أجواء الصفاء والحب مكانها، بدليل إتباع النهي عن التباغض، والتدابر، والهجران، بالأمر بأن يكون المسلمون إخواناً، ومن المحال شرعاً وعقلاً ومنطقاً، أن ترد هذه النواهي والأوامر مجتمعة دون قصد وهدف، بل هي مقصودة قطعاً لتحقيق غاية الوفاق بين المسلمين والإلف، وأن يكونوا كما يحب الله لهم متحابين، يقفون صفاً واحداً كالبنيان المرصوص عند الشدائد والمحن، مصداقاً لقوله جل ذكره: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}[2]، ويفترض في المسلمين أن يتضافروا على حفظ دماء بعضهم بعضاً، والذب عن حقوق إخوانهم، من منطلق واجب نصرة المظلومين منهم، استجابة لأمر الدين الواضح في الحديث الصحيح عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أو مَظْلُومًا،

1.صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الهجرة.
2. الصف:4.

قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، هذا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قال: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ)[1]

ومعززات توطيد العلاقات والود بين المسلمين كثيرة، تمثل بعضها في الحث على القيام بسلوكات عملية في هذا الاتجاه، كما جاء في الحديث الصحيح، عن البَرَاءَ بن عَازِبٍ، رضي الله عنهما، قال: (أَمَرَنَا النبي، صلى الله عليه وسلم، بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عن سَبْعٍ، فذكر عِيَادَةَ المَرِيضِ، وَاتِّبَاعَ الجَنَائِزِ، وَتَشْمِيتَ العَاطِسِ، وَرَدَّ السَّلامِ، وَنَصْرَ المَظْلُومِ، وَإِجَابَةَ الدَّاعِي، وَإِبْرَارَ المُقْسِمِ)[2]

آملين في الحلقة القادمة ختم ما تيسر من حديث عن نفحات الحرص على تقوية الأواصر بين المسلمين، حسب هدي القرآن الكريم، وسنة خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً.
2. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم.

حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم

الحلقة السابعة والأخيرة

عن أبي مُوسَى، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ، كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ)[1]

يجسد هذا الحديث الشريف الحال الذي يريده النبي، صلى الله عليه وسلم، للمؤمنين في علاقاتهم بعضهم ببعض، مشبهاً إياه بالبنيان، يشد بعضه بعضاً، وزاد الرسول، صلى الله عليه وسلم، المثال توضيحاً، بتشبيك أصابعه، ويبين ابن حجر أن المراد بعض المؤمنين للبعض، وقوله يشد بعضه بعضاً، بيان لوجه التشبيه، وقوله: (وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ) هو بيان لوجه التشبيه أيضاً، أي يشد بعضهم بعضاً، مثل هذا الشد، ويستفاد منه أن الذي يريد المبالغة في بيان أقواله، يمثلها بحركاته، ليكون أوقع في نفس السامع.[2]

المؤمنون كالجسد:

في حديث آخر، شبه عليه الصلاة والسلام، متانة علاقة المؤمنين ببعض بالجسد، الذي تعمه الحمى بسبب ألم أصاب أحد أعضائه، فقال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[3]

1. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره.
2. فتح الباري، 10 /450.
3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

جاء في شرح هذا الحديث الشريف، أن مثل المؤمنين الكاملين في الإيمان، في تحابهم وتلاطفهم، وعطف بعضهم على بعض، مثل الجسد الواحد، بالنسبة إلى أعضائه جميعها، ووجه الشبه التوافق في التعب والراحة، إذا اشتكى عضو من أي مرض، تداعى له باقي الجسد بالسهر، تعبيراً عن ترك النوم، لأن الألم يمنع النوم، والحمى يثيرها فقد النوم، ومعناه أمر، أي كما أن الرجل إذا تألم بعض جسده سرى ذلك الألم إلى سائر أعضاء بدنه جميعها، فكذا المؤمنون، ليكونوا كنفس واحدة، إذا أصاب أحدهم مصيبة يغتم جميعهم، ويقصدون إزالته.[1]

بعضهم أولياء بعض:

في القرآن الكريم وصف مميز للمؤمنين وعلاقاتهم ببعض، فهم أولياء بعض، مصداقاً لقوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.[2]

يرجح الرازي في تفسيره الكبير، أن الولاية هنا، تفيد القرب، فبعضهم يعظم بعضاً، يهتم بشأنه، ويختص بمعاونته ومناصرته، والمقصود أن يكونوا يداً واحدة على الأعداء، وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه.[3]

رحماء بينهم:

المؤمنون رحماء بينهم، أشداء على أعدائهم، مصداقاً لقوله سبحانه: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ

1. التيسير بشرح الجامع الصغير، 2/ 373.
2. التوبة: 71.
3. التفسير الكبير، 15 /166.

فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(*)

ربط بالحلقات الست السابقة:

تحت العنوان المثبت أعلى هذه الحلقة وسابقاتها، تطرقت الحلقات الست السابقة إلى قضايا ومجالات تعزز متانة العلاقة بين المؤمنين، وتزيل عنها شوائب الوهن الذي ينتابها، وينشأ بمسببات عديدة ومختلفة، ويفرز أشكالاً قاتمة، منها العداء والكراهية، اللتان يتسبب بهما أحياناً فرط الأنانيات، وحب الاستحواذ، والانتصار للعصبيات، والخضوع لضغط الغضب والانفعالات، مما يدفع إلى إيذاء الآخرين في دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، وللوقاية من ذلك تم النهي عن التحاسد والتناجش والتباغض والتدابر، والبيع على بيع الآخرين، أو السوم على سومه، أو الخطبة على خطبته، وكل ذلك من مسببات مرض الكراهة، وتنامي الأحقاد بين الناس، ليكون المؤمنون إخواناً، يحب بعضهم بعضاً، بعيداً عن ممارسات الاحتقار والظلم والخذلان، وانتهاك حرمة الدماء والأموال والأعراض.

فأخلاق الإسلام وقيمه تنظم علاقة المسلم بإخوانه، وتحفظ الود بينهم، وتقوي أواصر علاقاتهم ببعض، وتنزع فتيل النزاع والشقاق من واقعهم، لتقوم علاقاتهم مع بعض على أساس الأخوة، التي يكون عمادها الحب والوئام، والانتصار لبعض، والحرص على حفظ دماء بعضهم بعضاً، وأموالهم وأعراضهم.

وقد اندرجت بعض المثالب السلوكية المقوضة لحال الود بين المؤمنين، ضمن كبار الخطايا والذنوب، التي منها: قَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بِالحَقِّ، فأنكر الشرع أيما إنكار

* الفتح: 29.

جرائم سفك الدماء بغير حق، وأمر بحفظ الدماء البريئة، وتوعد متجاوزي الحق في القتل، ويشمل ذلك قتل المعاهدين من غير المسلمين، وللوقاية من استشراء القتل شرع الإسلام القصاص، ومنع الثأر، بغض النظر عن شخصي المعتدي والمعتدى عليه، فالناس أمام قضاء الإسلام سواء، ومن ثمار ذلك أن يدرك الناس، ويثقون بأن هناك قضاء عادلاً يأخذ الحق للمعتدى عليه من المعتدي، وأن حقوقهم لا تزول بسبب طغيان أصحاب النفوذ، وحين يتم ذلك تسود الطمأنينة، وتذوب الأحقاد من قلوب أبناء المجتمع، وتخف نتيجته الجرائم، وتتقوى الأواصر بينهم.

وحيث يصعب الاسترسال في طرح المزيد من المعطيات الخاصة بنفحات الحرص على تقوية الأواصر بين المسلمين، في هذه المرحلة، فنكتفي بما تيسر الوقوف عنده بالخصوص في هذه الحلقة والحلقات الست السابقة، في ضوء ما تيسر استنباطه من هدي القرآن الكريم، وسنة خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد ﷺ
وانتصاراته العسكرية في رمضان

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يُكْثِرُ من قَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَأَتُوبُ إليه، قالت: فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَاكَ تُكْثِرُ من قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَأَتُوبُ إليه؟ فقال: خَبَّرَنِي رَبِّي، أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً في أُمَّتِي، فإذا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ من قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَأَتُوبُ إليه، فَقَدْ رَأَيْتُهَا {إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) - فَتْحُ مَكَّةَ- (وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ في دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنه كان تَوَّابًا}) (*)

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، سبح بحمد ربه على إثر فتح مكة، ومعلوم أن سورة النصر المذكورة في نص هذا الحديث، نزلت في أعقاب غزوة الفتح الأعظم، التي وقعت في العشرين من رمضان، من السنة الثامنة للهجرة، فالله توج انتصارات المسلمين، في معاركهم التي خاضوها مع أعدائهم، بقيادة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالنصر الأكبر والمبين، الذي تحقق لهم، بعد بضع سنين من الهجرة، وذلك بالفتح الأعظم لمكة المكرمة، وهي نعمة ربانية جديرة بالحمد، وما يقترن به من تسبيح، واستغفار، وإنابة لله الحي القيوم.

باكورة الانتصارات الرمضانية:

سبق الانتصار الرمضاني العظيم الذي تحقق بفتح مكة المكرمة، انتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى، الذي يمثل باكورة انتصاراتهم العسكرية، إذ التقى جيشهم بقيادة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بجيش قريش، التي اضطره اضطهادها إلى أن يهاجر وصحبه

* صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

الكرام من مكة، حتى استقر بهم المطاف إلى أن يسكنوا يثرب، التي أضحت بعد الهجرة تسمى المدينة المنورة، حيث تشارك فيها المهاجرون الذين قدموا إليها من مكة المكرمة، مع إخوانهم الأنصار، وتشكل من مجموع الجماعتين، معسكر الإيمان الذي انتصر للإسلام، وحمل واجب الدعوة إليه، وفي العام الثاني من هذا التشكل حدث حسم عسكري قلب الموازين والاعتبارات، لما انتصر معسكر المسلمين في أكبر لقاء حدث بعد الهجرة بينهم وبين الذين اضطهدوا نبيهم ودينهم، وأوائل المسلمين، وكان ذلك في السابع عشر من رمضان في العام الثاني للهجرة.

والقرآن الكريم في مواضع مختلفة أسهب في تسجيل بعض أحداث هذا اللقاء الحاسم ووصفه، ففي سورة آل عمران أخبر سبحانه عن تفضله على المسلمين بالانتصار في بدر، فقال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[1]

ومن أوسع السور القرآنية حديثاً عن غزوة بدر ومجرياتها، سورة الأنفال، التي بدئت آيتها الأولى بالحديث عن الأنفال، فقال تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[2]

والخطاب في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ...} للنبي، صلى الله عليه وسلم، والسائلون هم الصحابة، والأنفال هي الغنائم، التي بين الله كيفية توزيعها، وعن عبادة بن الصامت قوله: نزلت فينا، أصحاب بدر، حين اختلفنا، فنزع الله الأنفال من أيدينا، وجعلها لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقسمها على السواء، فكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، وإصلاح ذات البين.[3]

1. آل عمران: 123.
2. الأنفال:1.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 60.

دلالة الأنفال على حصول الانتصار:

من دلالات بداية سورة الأنفال ومسماها، إلى جانب بيان حكم الله جل في علاه في توزيع الغنائم، أنها تدل على انتقال أحوال المسلمين في مواجهة أعداء دينهم، من مرحلة تلقي الأذى والصبر، إلى مرحلة الانتصار العسكري الذي كان من ثماره الفوز بغنائم العدو، مما يعني كثيراً بالنسبة إلى المسلمين وأعدائهم، والمراقبين من غيرهما، فالمسألة لا تنحصر في نطاق العائد المالي من هذا الانتصار العسكري فحسب، وإنما تمتد لتشمل الجانب المعنوي، المتمثل في رفع معنويات المسلمين، وزرع المهابة منهم في صدور الآخرين؛ أعداء ومراقبين.

قبل أن يخوض المسلمون غزوة بدر، وعدهم الله بالنصر إن وقعت المعركة مع أعدائهم، أو نيل الغنيمة منهم دون قتال، وفي بداية الأمر رغب بعض المسلمين في الأسلم، أي رغبوا في الغنيمة دون قتال، لكن الله أراد غير ما أرادوا، أراد لهم نصراً عزيزاً، تكون من ثماره الغنيمة، وليس فقط مجرد وضع اليد على أموال العدو، وضرب اقتصادهم، وعن هذه الحيثيات يحدث القرآن الكريم بصورة واضحة ناطقة، فيقول جل شأنه: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ* لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}(*)

فإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وقطع دابر الظالمين والكافرين والمجرمين، في اعتبار الله مقدم على مجرد نيل الغنائم والفوز بها بسلام، وهذا الاعتبار لم يتحمس إليه بعض المسلمين في بداية الأحداث، حتى وقع قضاء الله فيهم وقدره، فكان النصر الذي أعزهم والمسلمين من بعدهم، وحفظ لهم دينهم، ودالت لهم بسببه القبائل، وهابهم الناس، وصاروا يحسبون لهم الحسابات والاعتبارات، فحمداً لله على ما يسر وقدر، وعسى أن يهيئ لنا وللمسلمين الذين

* الأنفال:7 - 8.

يصدقونه وينصرونه السبل لتحقق وعده الصادق، المتضمن في قوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}(1)

خوض المعارك في رمضان يدحض ذريعة التثاقل عن أداء الواجبات بسبب الصيام:

خوض المسلمين الغزوة المصيرية الأولى التي وقعت في صدر الإسلام، على مشارف دولتهم الفتية الناشئة، وانتصارهم الباسل فيها، كان في شهر رمضان، وكذلك فتح مكة، مما يعني أن شهر الصيام ليس مدعاة للخمول والكسل، لما يحصل في نهار أيامه، من الإمساك عن الطعام والشراب، وإنما هو شهر جد وبذل وعطاء، ومن مخرجات ذلك، أنه شهر الانتصارات العسكرية، والاستثمارات المالية، والبذل الذهني في مجال التجارب العلمية، والدراسات الأكاديمية على مختلف مستوياتها، عسى أن يلتفت إلى هذه المعاني المتثاقلون من الصيام بسبب العمل، أو الدراسة، والامتحانات، سواء على مستوى المدارس أم الجامعات، فالأصل أن يتأقلم المسلمون مع متطلبات الصيام، وأن يطوعوا حياتهم ومعاشهم لذلك، لا أن يعتبروه عبئاً يعطلهم عن الإنجاز والنجاح والتفوق، وحتى الذين يعملون في المهن المختلفة والوظائف على أنواعها، يطالبون بأن ينظروا إلى الصيام نظر المحب الراغب في أدائه، طاعة لله، وطلباً لرضاه سبحانه، ومثوبته، وتوفيقه، وصدق الله العظيم، حيث يقول سبحانه: {... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}(2)

ويجدر التنبيه هنا إلى ضرورة التفريق بين المتثاقل عن أداء الصيام بسبب الدراسة أو العمل، وبين الذي يعجز حقيقة عن مواصلة أداء الصيام في بعض أيام رمضان، بسبب عذر

1. محمد:7.
2. الطلاق: 2 - 3.

قاهر، فالله لم يجعل علينا في الدين حرجاً، ولم يكلفنا إلا وسعنا، والتوفيق بين مسألة الانصياع لأداء التكليف الشرعي، وبين الأخذ بالرخص التي نضطر إليها في بعض الأحوال، أمر ممكن ومشروع، فالقاعدة الفقهية المشهورة تنص على أن الضرورات تبيح المحظورات، لكن الضرورة هنا لا تخضع لأمزجة الناس وأهوائهم، وإنما لها وصف مبين في أصول فقه شريعتنا الغراء، يتلخص في تعرض المرء إلى ظرف إن لم يفعل المحرم مات أو قارب عليه، فهي ليست مجرد مصاعب وحرج ومشقة، فهذه لا يكاد صائم يخلو من أعراضها، ولهذه القاعدة مستندها الوارد في القرآن الكريم، حيث يقول تعالى: {...فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}(*)

سائلين الله العلي القدير أن يجعل الصيام الذي نؤديه حسبة لوجهه الكريم، سبباً لعتق رقابنا ورقاب آبائنا والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات من النار، وأن يوفقنا إلى الحرص على صيام رمضان على الوجه الذي يرضيه سبحانه، وأن ينصر المسلمين اليوم وغداً فيه، كما نصر نبيهم محمداً، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* الأنعام:145.

الرسول الأسوة محمد ﷺ
يأمر بفك قيد الأسرى

جاء في صحيح البخاري، بَاب فَكَاكِ الأَسِيرِ، وفيه عن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (فُكُّوا الْعَانِيَ - يَعْنِي الأَسِيرَ- وَأَطْعِمُوا الجَائِعَ، وَعُودُوا المَرِيضَ) [1]

يأمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، بصريح العبارة في هذا الحديث الشريف بالعمل على إطلاق سراح الأسرى، معلناً بذلك واجب الأمة تجاه أسراها، فقيدهم ليس عبئاً شخصياً يُلقى على كواهلهم وأهليهم فحسب، وإنما يتعلق به واجب منوط بأمتهم؛ أفراداً وجماعات؛ ليقوموا به من منطلق مسؤولياتهم العامة، التي يلحق بهم وزر التقصير في أدائها، وفي ظلال ذكرى يوم الأسير الفلسطيني التي تحل في السابع عشر من نيسان من كل عام، يجدر التذكير ببعض حقوق الأسرى على أمتهم، في ضوء التوجيهات الدينية، المستنبطة من وحي القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

جاء في فتح الباري أن قوله صلى الله عليه وسلم: (فُكُّوا العَانِيَ)؛ أي الأسير، كذا وقع في تفسير العاني في الحديث، قال ابن بطال: فكاك الأسير واجب على الكفاية، وبه قال الجمهور، وقال إسحاق بن راهويه: من بيت المال، وروي عن مالك أيضاً، وقال أحمد: يفادى بالرؤوس، وأما بالمال فلا أعرفه، ولو كان عند المسلمين أسارى، وعند المشركين أسارى، واتفقوا على المفاداة، تعينت، ولم تجز مفاداة أسارى المشركين بالمال. [2]

1.صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير.
2. فتح الباري، 6 /167.

معنى العاني في اللغة:

جاء في لسان العرب، أن العَنْوة: القَهْرُ. وأَخَذْتُه عَنْوةً؛ أَي قَسْراً وقَهْراً.

وفُتِحَتْ هذه البلدةُ عَنْوةً؛ أَي فُتِحَت بالقتال، قُوتِل أَهلُها حتى غُلِبوا عليها، وفُتِحَت البلدةُ الأُخرى صُلْحاً؛ لم يُغْلبوا، ولكن صُولِحُوا على خَرْج يؤدُّونه.[1]

وفي مقاييس اللغة، قال الخليل: العُنُوّ والعَناء: مصدرٌ للعاني. يقال عانٍ أقرَّ بالعُنُوّ، وهو الأسير. ويقال للأسير: عنا يعنو. قال: وربّما قالوا: أَعْنُوه، أي ألقوه في الإسار.[2]

فضل الأسرى:

للأسرى مكانة رفيعة في الإسلام، وفضل عظيم، كونهم وجهاً بارزاً ومهماً من الوجوه العاملة للمحافظة على عزته، كيف لا؟! وهم من المنافحين عن حياضه، والله تعالى فرَّق في درجات الفضل والمنزلة بين القاعدين من المؤمنين، وبين المجاهدين في سبيله منهم، فقال تعالى: {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً}[3]، والأسرى ليسوا من القاعدين، إذ لو كانوا كذلك لكان همهم رغد العيش وطلبه، ولانشغلوا بالزرع والتجارّة وجمع الثروات، وإنجاب البنين والبنات، لكنهم آثروا السجون وظلمتها على الاستكانة للظالمين، والرضوخ للغاصبين، فكانوا ممن قال في أشباههم أمير الشعراء أحمد شوقي وصدق:

وحولي فتية غر صباح *** لهم في الفضل غايات وسبق

بلاد مات فتيتها لتحيا *** وزالوا دون قومهم ليبقوا

وحررت الشعوب على قناها *** فكيف على قناها تسترق

1- لسان العرب، 299/10.

2. مقاييس اللغة، 4/ 147.

3. النساء: 95.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، أشاد بالسعي لرفع عزة الإسلام، حيث يفوق فضل الساعين لتحقيق هذه الغاية قيمة الدنيا وما فيها، فعن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ من الجَنَّةِ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أو الغَدْوَةُ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها) [1]

وعن سَلْمَان، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ من صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عليه عَمَلُهُ الذي كان يَعْمَلُهُ، وأجري عليه رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ) [2]، فالرباط على ثغور الأمة، والسهر بما يقتضيه ذلك من مخاطرة، وسهر، وتعب، عمل مهم، وُعِد المتصدون له بسعة الأجر، وعظيم الثواب.

وفي المحصلة؛ فإن الأسرى صابرون مصابرون محتسبون، مرابطون على ثغور الأمة، تصدوا للدفاع عن حياضها، استجابة لأمر الله الموجه للمؤمنين في قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [3]، فلهم الأجر الوافي، والثواب الجزيل، جزاء ما قدموا لهذا الدين، والرسول، صلى الله عليه وسلم، بين فضل المرابطين في سبيل الله، فقال:(من احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِيمَانًا بِاللَّهِ، وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فإن شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يوم القِيَامَةِ) [4]

الدعاء للأسرى بالفرج والنجاة والاستنصار لهم:

الأسرى بما يقدمونه من واجب لدينهم وأمتهم، وبما يتحملونه من تضحيات ومصاعب جمة في هذا السبيل، يستحقون من الله التكريم، ومن عباده المؤمنين، والرسول، صلى الله

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل.
3. آل عمران: 200.
4. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرساً في سبيل الله.

عليه وسلم، كان القدوة المثلى في رعايتهم، حتى إنه جعل لهم قسطاً وافراً من دعائه خلال أدائه صلاته، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (بَيْنَا النبي، صلى الله عليه وسلم، يُصَلِّي العِشَاءَ، إِذْ قال: سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قال قبل أَنْ يَسْجُدَ: اللهم نَجِّ عَيَّاشَ بن أبي رَبِيعَةَ، اللهم نَجِّ سَلَمَةَ بن هِشَامٍ، اللهم نَجِّ الْوَلِيدَ بن الوَلِيدِ، اللهم نَجِّ المُسْتَضْعَفِينَ من المُؤْمِنِينَ، اللهم اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَرَ، اللهم اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ)[1]

وعن أبي سَلَمَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، حَدَّثَهُمْ أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: (قَنَتَ بَعْدَ الرَّكْعَةِ في صَلاةٍ شَهْرًا، إذا قال: سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ، يقول في قُنُوتِهِ، اللهم أَنْجِ الوَلِيدَ بن الوَلِيدِ، اللهم نَجِّ سَلَمَةَ بن هِشَامٍ، اللهم نَجِّ عَيَّاشَ بن أبي رَبِيعَةَ، اللهم نَجِّ المُسْتَضْعَفِينَ من المُؤْمِنِينَ، اللهم اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَرَ، اللهم اجْعَلْهَا عليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، قال أبو هُرَيْرَةَ: ثُمَّ رأيت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، تَرَكَ الدُّعَاءَ بَعْدُ، فقلت: أُرَى رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قد تَرَكَ الدُّعَاءَ لهم، قال: فَقِيلَ وما تُرَاهُمْ قد قَدِمُوا)[2]

وفي هذه الرعاية رسالة واضحة للمؤمنين في كل زمان ومكان، أن يؤدوا واجب الأسرى الملقى عليهم، بالمساندة المعنوية والمادية، والعمل الجاد والدؤوب لفك قيدهم، وإطلاق سراحهم.

لزوم الاستنصار للأسرى:

الأسرى لهم حق كبير على أمتهم وأهليهم وإخوانهم المتمتعين بالحرية أن ينصروهم بما أوتوا من إمكانات متاحة، حتى إن الله تعالى أوجب على المؤمنين أن يهبوا لمناصرة المستضعفين من الناس؛ رجالهم ونسائهم وولدانهم، فقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة النساء، باب قوله: {فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً} (النساء: 99)
2. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة.

هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾[1]، فكيف إذا كان طالبو النصرة هم الأسرى البواسل، الذين قيدوا بالسلاسل، ومنع عنهم الهواء والدواء، لأنهم اختاروا المنافحة عن كرامة أمتهم وحريتها ومقدساتها، وأرضها المباركة، فحقهم بالمناصرة واجب أن يُؤدى لهم دون منّ ولا تفضل، وهو حق كبير وواسع، ومنه حفظ ذويهم وعيالهم من أي امتهان أو عدوان، وتوفير سبل العيش الكريم لهم، مع التحذير من خذلانهم والتقاعس عن نصرتهم، فالمسلم لا يخذل أخاه، كما جاء في الحديث الصحيح: (...وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ، أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ ...)[2]، فكيف إذا كان الأخ هو المرابط المكابد، والمقيد بالسلاسل من أجل دينه ووطنه وشعبه؟!

راجين الله العلي القدير أن ييسر العمل على فك قيود الأسرى، عملاً بروح التوجيهات القرآنية، وسنة الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. النساء: 75.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

يبين فضل حفظ استحقاقات العمال

عن عَبْد اللَّهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كان قَبْلَكُمْ، حتى أَوَوْا المَبِيتَ إلى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ من الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عليهم الْغَارَ، فَقَالُوا: إنه لا يُنْجِيكُمْ من هذه الصَّخْرَةِ إلا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ ... وقال الثَّالِثُ: اللهم إني اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غير رَجُلٍ وَاحِدٍ، تَرَكَ الذي له، وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ، حتى كَثُرَتْ منه الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فقال: يا عَبْدَ اللَّهِ، أَدِّ إلَيَّ أَجْرِي، فقلت له: كُلُّ ما تَرَى من أَجْرِكَ من الإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، وَالغَنَمِ، وَالرَّقِيقِ، فقال: يا عَبْدَ اللَّهِ، لا تستهزىء بِي، فقلت: إني لا أستهزىء بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ، فلم يَتْرُكْ منه شيئاً، اللهم فَإِنْ كنت فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيه، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ) (*)

هذا الحديث الصحيح يدل على دور العمل الصالح في تحقيق الفرج من الكرب والشدة، ومن خلال هذه الدلالة تظهر أهمية المحافظة على حقوق العمال والأُجراء في هذا الباب، فصاحب العمل عندما حفظ أجر العامل ومستحقاته المالية التي تعذر عليه أداؤها لصاحبها، وعمل على تنميتها، حضره ظرف ليسأل عنها بعد حين من الزمن، فوجدها قد نمت وزادت، حتى إنه في بادئ الأمر، ظنَّ أن صاحب العمل الذي حضر إليه مطالباً بأجره يسخر منه، لما قال له هذا مالك، فرآه كثيراً يتجاوز قدر أجره الذي يعلمه، وحضر يطلبه، فلما تعرض

* صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيراً، فترك الأجير أجره، فعمل فيه المستأجر، فزاد، أو من عمل في مال غيره فاستفضل.

صاحب العمل لشدة عصبية، استعرض خير أعماله التي صدرت عنه خلال حياته، فوجد أبرزها وأفضلها ما قام به تجاه أجر العامل الذي تركه، وعاد لأخذه بعد حين، فوجده في الحفظ والصون، زائداً بالاستثمار غير ناقص، فدعا الله بهذا العمل ليفرج كربه، ففرج عنه، بخلاف حال كثير من الناس الذين يستسهلون أكل حقوق أجرائهم، فيقتطعون منها بغير حق، أو يماطلون في صرفها لهم، أو يهضمون بعض حقوقهم المالية المتعلقة بأتعابهم، ومكافآت نهاية خدمتهم، والله تعالى ينهى عن أكل أموال الناس بالباطل، فيقول تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[1]، فأخذ أموال الناس منهم دون حق، هو أكل لها بالباطل، وبالإثم والعدوان، وهو طريق محرم ممقوت، ذمه الله تعالى، في سياق ذم أكل السحت، وهو الحرام، فقال عز وجل: {وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[2]

وسلب مستحقات العمال والموظفين، لا يخرج عن إطار معاني الإثم والعدوان، وكذلك التسويف في صرفها لهم، أو الانتقاص من حقوقهم المشروعة.

حكم مكافأة نهاية خدمة العمال والموظفين:

الأصل في حقوق العمال أن تنظم في قوانين واضحة وملزمة، حتى لا تخضع للمزاجيات أو الضياع، وفي أيامنا هذه يفترض أن تقوم نقابات العمال ووزارات العمل، بمراقبة تنفيذ قوانين العمل والعمال ومتابعتها، وهي كثيرة ومتشعبة، والإسلام يحترم قوانين كل مهنة وأعرافها، ما دام حكم الله لم يخالف فيها، ومن المسائل التي يسأل الناس عنها كثيراً،

1. البقرة: 188.
2. المائدة: 62.

مكافأة نهاية الخدمة، ومجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين ناقش هذه المسألة، وخلص في قراره رقم 1 /99 بتاريخ 28 /6 /2012 إلى أن تعويض نهاية الخدمة حق مشروع للموظف، كفلته قوانين العمل، وعلى المؤسسة أن تدفع للموظف أتعابه فور إنهاء عمله، ومنع المجلس في قراره الفقهي هذا حصول العامل أو الموظف على تعويض نهاية الخدمة عن طريق الاقتراض من البنوك مباشرة؛ لأن هذا هو الربا المحرم بنص قطعي من القرآن والسنة، فالله تعالى يقول:{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1]، و(لَعَنَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ)[2].

ويمكن للموظف أن يحصل على مكافأة نهاية خدمته عن طريق شيكات مقسطة لعامين أو ثلاثة أو غير ذلك؛ إذ لا حرج في ذلك، ودعا مجلس الإفتاء المؤسسات الموظِّفة إلى منح العاملين والموظفين حقوق نهاية الخدمة من غير تأخير أو تسويف، ودون إلجائهم ليكونوا أطرافاً في معاملات ربوية يحرمها الإسلام.

فحصول الموظف أو العامل على مستحقات نهاية الخدمة، حسب المقرر في القوانين السارية والمعتمدة لذلك، هو حق يضمنه القانون، ويحتاج إليه المنتهية خدمتهم من العمال والموظفين لتصريف شؤون حياتهم، وتقديم نفقاتهم إلى أسرهم التي يعيلونها، فهو حق ينبغي أن يُكفل، بعيداً عن ظلم العامل، أو الإجحاف بحق أرباب العمل، مع التنويه في

1. البقرة:275.
2. صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله.

هذا المقام إلى أن بعض الناس في العالم تفرض المحاكم لديهم مبالغ طائلة على أصحاب العمل لصالح العمال عند تعرض العامل لإصابة عمل، أو عند وقوع أي أذى عليه بسبب العمل أو أربابه، أو عند النظر في مكافأة نهاية خدمته التي قضاها لدى صاحب العمل، والمسلمون جديرون بأداء واجب حفظ حقوق العمال وأدائها لهم، غير منقوصة، ولا منغصة، وهم بحكم ما جاء به دينهم الحنيف أولى من غيرهم بهذا الالتزام تجاه العمال والموظفين.

حقوق المرأة العاملة:

من قضايا العمال الجديرة ببيان حكم الشرع فيها، تلك المتعلقة بحقوق المرأة العاملة، إذ ينظر بعض الناس أحياناً إلى تلك الحقوق بانتقاص أو ازدراء أو إنكار، من منطلق النظرة السلبية إلى خروج المرأة إلى العمل خارج البيت، علماً أن هذا الخروج مشروع ضمن ضوابط قررها ديننا الحنيف، مثل المحافظة على الحشمة والوقار، وتجنب السفور، والخلوة المحرمة بالرجال، فإذا ما تولت المرأة عملاً مشروعاً، فينبغي أن تحصل على الحقوق التي تعطى للرجل حين يقوم بمثله، ومن الشواهد القرآنية على خروج المرأة إلى العمل الذي يقوم به الرجال، في إطار المحافظة على القيم، والتحلي بالمكارم، ما نزل بشأن المرأتين اللتين لقيهما موسى لما ورد ماء مدين، فقال تعالى بشأن ذلك: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ* فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ* فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ...}(*)

فالمرأتان مارستا مهمة رعي المواشي – وهو عمل يتم خارج نطاق البيوت-، وعند الزحام

* القصص:23 - 25.

تجنبتا الانخراط فيه، بل تحليتا بالصبر، فانتظرتا أن يتاح لهما المجال لقضاء مهمتهما دون التلبس بالآثام، فانبرى موسى، عليه السلام، -انطلاقاً من شهامته ومروءته، إلى مساعدتهما، وفي المحصلة قضيتا عملهما، ورجعتا إلى والدهما بخبر موسى، الذي سهل لهما قضاء عملهما بيسر واحترام، وهكذا ينبغي أن تجد المرأة العاملة خلال أدائها لأي عمل تخدم فيه مجتمعها وأسرتها، وتتزود من جزائه وأجوره بمال يساعدها على العيش بكرامة، وقضاء حاجاتها، ومساعدة أسرتها من منطلق التعاون على البر والتقوى، بدلاً من تهميش دورها أو تضييق الخناق عليها، أو هضم حقوقها لنظرة أو أسباب ما أنزل الله بهما من سلطان.

فالنساء شقائق الرجال، لهنَّ ما لهم، وعليهنَّ ما عليهم بالمعروف والإحسان، وليس من العدل تخفيض أجور النساء عن مستوى أجور الرجال عن أعمال متشابهة يقوم بها الطرفان.

هدانا الله إلى حفظ حقوق العاملين تحت إمرتنا، لنلقى الله بريئين من حمل وزر أحد منهم، رجلاً كان أم امرأة، متأسين بخير من حفظ حقوق العمال، رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد ﷺ
يحذر من الإشاعات الكاذبة والمغرضة

عن حَفْصِ بن عَاصِمٍ، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ ما سمع)[1]

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، خلال هذا الحديث التوجيهي، المتضمن التنفير من الاسترسال مع كثرة الكلام من غير طائل ولا حاجة، فالذي يتحدث بكل ما يسمع يقع في الإثم، ويخشى عليه من الانخراط في الكذب، بطريقة أو بأخرى، فالله خلق للمرء أذنين ولساناً واحداً، فينبغي أن يكون ما يتحدث به أقل مما يسمعه، وفي شرح الحديث أعلاه، أن قوله: (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا) معناه يكفيه ذلك من الكذب، فإنه قد استكثر منه، وفي الحديث تنفير عن الكلام بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب، لإخباره بما لم يكن، ومعنى الكذب الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو، ولا يشترط فيه التعمد، لكن التعمد شرط في كونه إثماً، والله أعلم.[2]

مما يعني ضرورة مراعاة تهذيب اللسان عن التلبس بخطايا الكلام، التي منها الكذب والغيبة والنميمة، والحديث بما لا يعني المتحدث، وما شابه ذلك من آفات اللسان وزلاته وخطاياه.

امتياز الطابور الخامس ببث الإشاعات المغرضة والترويج لها:

طائفة رخيصة من الناس يستخدمون اللسان مع سبق الإصرار والترصد إلى إحداث

1. صحيح مسلم، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.
2. صحيح مسلم بشرح النووي، 1 /75.

انتهاكات كيدية للآخرين وأعراضهم، فيكذبون ويُزورون ويَسخرون ويَغْمِزون ويَغتابون، وبعضهم يتعمد إشاعة أخبار بقصد إحداث بلبلة واضطرابات مجتمعية، أو من أجل تشويه سمعة أناس معينين وزعزعة الثقة بهم، حتى إن بعض المستهدفين بهذا الشر يدفعون أثماناً باهظة من حياتهم ومالهم وعلاقاتهم ومواقعهم بسبب ذلك، فإن كانت تلك الأخبار ملفقة ومفتراة فتلك جريمة نكراء بكل المعايير والاعتبارات؛ الدينية والأخلاقية، وإن كانت صادقة فلإذاعتها ضوابط شرعية ينبغي مراعاتها، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، ذم الذي يسيء إلى الأعراض بالغيبة، سواء أكان صادقاً أم كاذباً، فقال عليه الصلاة والسلام: (أَتَدْرُونَ ما الْغِيبَةُ؟ قالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إن كان في أَخِي ما أَقُولُ؟ قال: إن كان فيه ما تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لم يَكُنْ فيه فَقَدْ بَهَتَّهُ) [1]

فالغيبة ذكر الإنسان في غيبته بما يكره، والبهتان هو الباطل، وأصل البهت، أن يقال له الباطل في وجهه، وهما حرامان.[2]

ومن الآداب الإسلامية الرفيعة التي ينبغي للمسلم التحلي بها، ضبط اللسان عن الآفات، ومن ذلك النعي القرآني على المسارعين إلى نشر الأخبار والأقاويل، دون تمحيص، أو تقدير للمصالح الشرعية المتعلقة بالنشر أو التحفظ والكتم، فيقول الله تعالى: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً}[3]

فالذين يذيعون شتى الأخبار دون تريث ولا تحقق، هم المنافقون، وقيل قوم من ضعفاء المسلمين، كانوا إذا بلغهم خبر عن السرايا والجيوش أو غير ذلك أذاعوا به، أي تكلموا به

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحرم الغيبة.
2. صحيح مسلم بشرح النووي،16/ 142.
3. النساء:83.

وشهروه قبل أن يعلموا صحته، وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين، مع ما في ذلك من العجلة، وقلة التثبت، فأنكر الله ذلك عليهم؛ لأنهم لو تركوا الخوض بذلك الأمر الذي بلغهم، وردوه إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بصفته ولي أمرهم، لتمكنوا من الحصول على نتائج سليمة بالخصوص، وهكذا ينبغي أن تعرض الأخبار على المسؤولين لتمحيصها، واتخاذ القرار المناسب بشأنها، بالسماح بنشرها، أو التحفظ عليها، أو بيان الحقيقة الجلية حيالها، وذلك بعد التأكد من صحتها أو زيفها، بصفتهم أهل الدراية بذلك، المحيطون بعلم هذه الأمور وخباياها.

ومن شواهد السيرة النبوية العطرة على سوء منهج المسارعين إلى نشر الأخبار دون ضوابط، الترويج لإشاعة مقتل النبي، صلى الله عليه وسلم، في خضم غزوة أحد، مما تسبب في إحداث بلبلة وقلقلة في صفوف المؤمنين ومواقفهم، وأعقب ذلك نزول آيات قرآنية بالخصوص، حيث قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ}[1]، ومعلوم لأي متدبر حجم الأضرار التي تحدثها الشائعات خلال الحروب والمعارك، وبخاصة ما يتعلق منها بنوع الخسائر وحجمها، ومن ذلك مقتل القادة أو إصابتهم أو أسرهم.

والمسارعة إلى نشر الإشاعة دون التقيد بالضوابط الشرعية تدرج أصحابها ضمن الذين يطلق عليهم مسمى الطابور الخامس، وهي صفة من صفات المنافقين الذين هم أحط الناس، وتوعدهم الله أن يكونوا في الدرك الأسفل من النار، فقال سبحانه: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً}[2]، والمتساقطون في مراتع الرذيلة والصفاقة، يحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس، وينتهكون الأعراض الطاهرة، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر والوهن، قبحهم الله، وفضحهم في الدنيا والآخرة.

1.آل عمران:144.

2. النساء:145.

وقد توعد الله هذه الفئة الضالة بفضح أمرهم، وملاحقتهم، وهزيمتهم، فقال تعالى: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً}[1]

والمرجفون هم الذين يؤذون النبي، عليه الصلاة والسلام، بالإرجاف، بمثل قولهم: غلب محمد، وسيخرج من المدينة، وسيؤخذ.[2]

وقد حذر الله من المنافقين وأعمالهم الخسيسة، فقال تعالى: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}[3]

فخروجهم إلى جانب المؤمنين لمواجهة أعداء الإسلام لا يجلب لصف المؤمنين خيراً، وإنما يزيدهم شراً وفساداً، ومعنى {ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} الإيضاع سرعة السير، والمعنى أنهم يسرعون للفساد والنميمة خلالكم، أي بينكم، {يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} أي يحاولون أن يفتنوكم، {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} قيل يسمعون أخبارهم وينقلونها إليهم[4]. فمن خبث الطابور الخامس ودسائسهم أنهم يروجون لأخبارهم الكاذبة، ويزينوها، ليصدقها بسطاء الناس، وهم كذلك يفشون أسرار ربعهم، وينقلون أخبارهم لأعدائهم، بمقابل خسيس أو دونه، فهم العدو الذي ينبغي الحذر منه.

جريمة نشر الإشاعات الظنية:

يرد إلى الأذهان عند الحديث عن الإشاعات المغرضة خبر الإفك الذي وصفه الله بذلك، بل قال عنه بأنه مبين، وذلك كما جاء في قوله تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ}[5]، وخبر الإفك يتعلق بحادثة تلفيق تهمة

1. الأحزاب:60.
2. التفسير الكبير،25 /199.
3. التوبة:47.
4. التسهيل لعلوم التنزيل،2 /77.
5. النور:12.

باطلة للنقية الطاهرة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، بسبب ظنون آثمة لم تغن عن الحق شيئاً، تحدث بها قوم فتسببوا في إحداث بلبلة وزلزلة في ربوع المجتمع المسلم الناشئ، حتى أنقذ الله المؤمنين ورسولهم، عليه الصلاة والسلام، وأهل بيته وزوجه الطاهرة، رضي الله عنها، من مصيبة الإفك المبين، فأنزل الله في سورة النور آيات تحدثت بشيء من الإسهاب عن بعض جوانب هذا الإفك وتداعياته، وما يجب أن يتحلى به المؤمنون من صفات تجاهه.

فنشر الإشاعات الظنية أو الكاذبة بين الناس لا يقل جرمه أحياناً عن جرائم سفك الدماء، فمس الأعراض يؤذي أصحابها بمستوى يوازي الألم الذي يصيب أعضاء الأبدان، بسبب عنف مورس ضدها، من هنا أمر سبحانه بالتثبت من الأخبار التي يروجها الفاسقون، محذراً أشد التحذير من إصابة الإنسان لأخيه بخبر كاذب أذاعه عنه دون تثبت، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}(*)

هدانا الله إلى التحلي بمكارم الأخلاق، التي منها التحرز عن الخوض فيما لا يعنينا، أو فيما لم نتثبت صدقه، أو فيما يساعد بثه على نشر الفاحشة والرذيلة بيننا، ويسيء إلى أبرياء ظلمهم أصحاب الأراجيف، الذين سبق لأسلافهم أن روجوا الأكاذيب عن أهل بيت رسول الله، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* الحجرات:6.

الفصل الرابع
سيرة نبوية

الرسول الأسوة، محمد صلى الله عليه وسلم

.1	ولد في عام الفيل/ الحلقة الأولى	211
.2	ولد في عام الفيل/ الحلقة الثانية	214
.3	ولد في عام الفيل/ الحلقة الثالثة	217
.4	ولد في عام الفيل/ الحلقة الرابعة	220
.5	ولد في عام الفيل/ الحلقة الخامسة والأخيرة	223

الرسول الأسوة محمد ﷺ
ولد في عام الفيل/ الحلقة الأولى

في عام ميلاده عليه الصلاة والسلام، قبل ما يقارب الخمسة عشر قرناً من الزمان، أهلك الله أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وفي سورة الفيل يُذكر الله جل في علاه الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمسلمين والخلق أجمعين في كل زمان وحين، بحادثة الفيل، فيقول عز وجل:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ *فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ}[1]

هذه السورة الكريمة تتحدث عن إهلاك الله أصحاب الفيل، في حادثة تاريخية مشهودة، ألمحت لبعض جوانبها آيات سورة الفيل المثبتة أعلاه، والتي نسب سبحانه فيها إلى نفسه فعل ما كان لأصحاب الفيل يعني الإهلاك، وجعل كيدهم في تضليل، وإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، وجعلهم في النهاية كعصف مأكول.

في العام الذي حدث فيه إهلاك أصحاب الفيل على النحو المبين في السورة القرآنية الكريمة، والذي أطلق عليه عام الفيل، ولد النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: (ولد النبي، صلى الله عليه وسلم، عام الفيل)[2]

فتوافق حدث الميلاد الكريم لخاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، وتزامن مع إنقاذ الكعبة المشرفة، وبيت الله الحرام من كيد أصحاب الفيل، الذين أهلكهم الله تعالى قبل أن تمتد أياديهم بالأذى لبيته المحرم، فأحبط الله خطتهم الكيدية، وجعلها في تضليل.

1. سورة الفيل.
2. المستدرك على الصحيحين:2/ 658، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

قصة الفيل وأصحابه:

القصة التاريخية الخاصة بالفيل الذي قدم به أبرهة من اليمن ضمن حملة عسكرية هدفت إلى هدم بيت الله الحرام في مكة، تحدثت عنها أخبار عديدة، تفيد أن أبرهة كان عاملاً للنجاشي ملك الحبشة على اليمن، فرأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة فبنى كنيسة بصنعاء، وكتب إلى النجاشي أني بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب، وحلف ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها، وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك، فسأله أن يبعث إليه بفيلة، وكان له فيل يقال له محمود، لم يُرَ مثله عظماً وجسماً وقوة، فبعث به إليه، فخرج أبرهة سائراً إلى مكة، فسمعت العرب بذلك، فأعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، واقتتل في طريقه مع بعضهم، وتواطأ معه بعضهم، كبعض أهل الطائف، الذين بعثوا معه مولى لهم يدعى أبا رغال، وبعث أبرهة رجلاً من الحبشة - يقال له الأسود ابن مفصود - على مقدمة خيله، وأمر بالغارة على نَعَم الناس، فجمع الأسود إليه أموال الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير، ثم بعث رجلاً من حمير إلى أهل مكة، فقال: أبلغ شريفها أنني لم آت لقتال، بل جئت لأهدم البيت، فانطلق، فقال لعبد المطلب ذلك، فقال عبد المطلب: ما لنا به يدان، سنخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله، وبيت خليله إبراهيم، فإن يَمْنَعْهُ فهو بيته وحرمه، وإن يخلي بينه وبين ذلك فو الله ما لنا به من قوة.

ولما أُحضر عبد المطلب بصفته سيد القوم إلى أبرهة، طلب منه أن يرد عليه المائتي بعير التي أصابها من ماله، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: إنك كنت أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت فيك، قال: لِمَ؟ قال: جئت إلى بيت - هو دينك ودين آبائك وشرفكم وعصمتكم - لأهدمه، فلم تكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير؟! قال: أنا رب الإبل، والبيت له رب يمنعه منك، فقال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك، فأمر بإبله فردت عليه، ثم خرج وأخبر

قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، ويتحرزوا في رؤوس الجبال، خوفاً عليهم من مَعَرَّة الجيش، ففعلوا، وأَتى عبدُ المطلب البيتَ، فأخذ بحلقة الباب، ومما قال:

يا رب لا أرجو لهم سواكا

يا رب فامنع منهمو حماكا

إن عدو البيت من عاداكا

فامنعهمو أن يخربوا قراكا

جروا جموعهم وبلادهم

والفيل كي يسبوا عيالك

إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمْر ما بدا لك

وتهيأ أبرهة للدخول، وعبأ جيشه، وهيأ فيله، فأقبل نفيل إلى الفيل، فأخذ بأذنه، فقال: ابرك محمود، فإنك في بلد الله الحرام، فبرك الفيل، فبعثوه، فأبى، فوجهوه إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل ذلك، فصرفوه إلى الحرم فبرك، وخرج نفيل يشتد حتى صعد الجبل، فأرسل الله طيراً من قبل البحر، مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجرين في رجليه، وحجراً في منقاره، فلما غشيت القوم، أرسلتها عليهم، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كلَّ القوم أصابت، فخرج البقية.(*)

آملين أن ييسر الله تعالى متابعة الحديث عن بعض أبعاد قصة الفيل ومغازيها ودلالاتها، التي في عامها ولد الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* بتصرف عن مختصر السيرة:1 /51 - 54.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

ولد في عام الفيل/ الحلقة الثانية

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال:(أَقْبَلَ أَصْحَابُ الفِيلِ، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْ مَكَّةَ، اسْتَقْبَلَهُمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ لِمَلِكِهِمْ: مَا جَاءَ بِكَ إِلَيْنَا؟ مَا عَنَاكَ يَا رَبَّنَا؟ أَلَا بَعَثْتَ فَنَأْتِيكَ بِكُلِّ شَيْءٍ أَرَدْتَ؟ فَقَالَ: أُخْبِرْتُ بِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي لا يَدْخُلُهُ أَحَدٌ إِلا آمَنَ، فَجِئْتُ أُخِيفُ أَهْلَهُ، فَقَالَ: إِنَّا نَأْتِيكَ بِكُلِّ شَيْءٍ تُرِيدُ فَارْجِعْ، فَأَبَى إِلا أَنْ يَدْخُلَهُ، وَانْطَلَقَ يَسِيرُ نَحْوَهُ، وَتَخَلَّفَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فَقَامَ عَلَى جَبَلٍ، فَقَالَ: لَا أَشْهَدُ مَهْلِكَ هَذَا الْبَيْتِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ قَالَ:

اللَّهُمَّ إِنَّ لِكُلِّ إِلَهٍ ... حَلالا فَامْنَعْ حَلَالَكْ

لا يَغْلِبَنَّ مُحَالُهُمْ ... أَبَدًا مِحَالَكْ

اللَّهُمَّ فَإِنْ فَعَلْتَ ... فَأْمُرْ مَا بَدَا لَكْ

فَأَقْبَلَتْ مِثْلُ السَّحَابَةِ مِنْ نَحْوِ الْبَحْرِ، حَتَّى أَظَلَّتْهُمْ طَيْرٌ أَبَابِيلُ، الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ} قَالَ: فَجَعَلَ الْفِيلُ يَعُجُّ عَجًّا{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}).(*)

تعرضت الحلقة السابقة التي أشارت إلى توافق ذكرى ميلاد النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وحادثة أصحاب الفيل التي تحدث عنها القرآن الكريم في سورة الفيل، والتي كان من نتائجها ونهاياتها، إهلاك الفيل وأصحابه، وإنقاذ بيت الله الحرام، والكعبة المشرفة من كيدهم، حيث تم اقتباس مجمل لتلك القصة المتعلقة بهذه الحادثة بتصرف عن كتاب مختصر السيرة، وحديث ابن عباس المثبت نصه أعلاه، يتعرض لبعض جوانب تلك الحادثة الفظيعة، والتي كانت آية من آيات الله العظيمة.

* المستدرك على الصحيحين،2 /583، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

حدث عدواني يتكرر

قصة الفيل في مجملها تعبر عن حالة اضطهادية عدوانية، بغض النظر عن الزمن الذي تمت فيه، أو الجهة المعتدية، أو الجهة المستهدفة بالعدوان، فأصحاب القوة والبطش حين يفتقرون إلى القيم النبيلة والأخلاق السوية، أو عندما يوجد لديهم خلل فيها، ينصب تفكيرهم على ما يحقق نزواتهم ومصالحهم وغطرستهم، بغض النظر عما سيواجه الآخرين من مآسٍ ومعاناة نتيجة لذلك، فهكذا كان حال أبرهة لما ساق جيشه لهدم الكعبة، على ما لها من قداسة عند العرب وقتها، فاستهان بذلك، واختار جلب الفيل كعامل من عوامل ضمان نجاح عمله وسعيه، لكن الله خيب أمله، فكانت الطامة التي حلت به وبجيشه وفيله، وهكذا يؤمل أن يجازى المستعمرون والمتغطرسون بجزاء مشابه لجزاء أبرهة، وليته يكون أشدَّ من ذلك، فقد جاوز الظالمون المدى، فحقَّ عليهم أن يحل بهم عذاب الله وسخطه، وسيف انتقامه، وما ذلك على الله بعزيز.

اليقين بالله تعالى وقدرته وكفايته:

يذكر الناس والمسلمون بخاصة رد عبد المطلب جد النبي، صلى الله عليه وسلم، على أبرهة، حين تعجب منه كيف يسأل عن إبله، ولم يسأل عن الأعظم، وهو البيت الحرام، فكان مستهجناً منه، وهو سيد القوم، أن يهتم بالإبل، ولا يهتم بالأعظم، فكان رده الذي اشتهر عنه، يفيد أنه هو رب الإبل، فيسأل عنها، أما البيت، فله رب يحميه، وكان مصيباً فيما اعتقد، إذ إن الله تعالى نصر بيته الحرام، وأزهق الباطل، وسحق الفيل وصاحبه، فعبد المطلب، وإن لم يدرك الإسلام ونبوة حفيده محمد، صلى الله عليه وسلم، إلا أنه كان لديه يقين بالله وقدرته، يفتقر إلى مثله كثير من الناس اليوم.

واليقين مصطلح يطلق على الإيمان الجازم القاطع بحقيقة شيء معين، وهو العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكاً فيه.(*)،وقالوا: إن اليقين لا يحصل إلا إذا اعتقد أن الشيء كذا، وأنه يمتنع كون الأمر بخلاف معتقده، إذا كان لذلك الاعتقاد موجب، هو إما

* التفسير الكبير:2/ 31.

بديهية الفطرة، وإما نظر العقل.[1]

وللیقین شواهد قرآنية تحث عليه، وتبين أهميته، وتبرز مواقف اكتسبت القوة منه، وفي السنة النبوية المطهرة شواهد دالة على اليقين وأهميته، وبخاصة في مواقف الشدة والابتلاء، حيث تم التعبير عن الثقة بالله ونصره في ساعات وظروف قاسية وعصيبة، مما يدل على عمق اليقين والثقة بالله تعالى، والتأكد من تحقق وعده بنصر الإيمان وأهله، والحق وأهله، ومحق الكفر، والباطل وأهلهما.

ذكر اليقين في القرآن الكريم:

القرآن الكريم ذُكر فيه اليقين، وحق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، في سياق ست آيات قرآنية، فذكر اليقين مفرداً مستقلاً، دون إضافة إلى لفظ آخر في آيتين، إحداهما في سورة الحجر، والأخرى في المدثر، فقال تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[2]، وقال سبحانه:{حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}[3]

والمراد باليقين في هاتين الآيتين هو الموت، أي جاءنا ونزل بنا الموت.[4]

وفي أحد أبواب صحيح البخاري، بَاب {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} قال سَالِمٌ: الْيَقِينُ الْمَوْتُ، وقيل: هو الموت ومقدماته[5]، وقيل: هو الموت وما بعده.[6]

وإطلاق اليقين على الموت مجاز؛ لأن الموت لا يشك فيه.[7]

عسى أن ييسر الله تعالى متابعة الحديث عن اليقين، حسب ذكره في القرآن الكريم، في إطار الحديث عن مزيد من أبعاد قصة الفيل ودلالاتها، الذي ولد في عامه الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله، وأزواجه، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التفسير الكبير:2 /189.
2. الحجر:99.
3. المدثر:47.
4. تفسير القرطبي:19 /88.
5. الكشاف:4 /656.
6. مجموع الفتاوى:11/ 418.
7. فتح الباري:8 /384.

ولد في عام الفيل/ الحلقة الثالثة

عن خَارِجَة بن زَيْدِ بن ثَابِتٍ: (أَنَّ أُمَّ العَلاءِ -امْرَأَةً من الأَنْصَارِ- بَايَعَت النبي، صلى الله عليه وسلم، أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ المُهَاجِرُونَ قُرْعَةً، فَطَارَ لنا عُثْمَانُ بن مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ في أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الذي تُوُفِّيَ فيه، فلما تُوُفِّيَ، وَغُسِّلَ، وَكُفِّنَ في أَثْوَابِهِ، دخل رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فقلت: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ، لقد أَكْرَمَكَ الله، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: وما يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟ فقلت: بِأَبِي أنت يا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ الله؟ فقال: أَمَّا هو، فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، والله إني لأَرْجُو له الْخَيْرَ، والله ما أَدْرِي، وأنا رسول اللَّهِ، ما يُفْعَلُ بِي، قالت: فَوَاللَّهِ لا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا)[1]

وفي رواية صحيحة أخرى، عن أُمِّ العَلاءِ، قالت: (وَرَأَيْتُ لِعُثْمَانَ في النَّوْمِ عَيْنًا تَجْرِي، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَذَكَرْتُ ذلك له، فقال: ذَاكِ عَمَلُهُ يَجْرِي له)[2]

تعرضت الحلقة السابقة إلى تعبير قصة الفيل في مجملها عن حالة عدوانية تتكرر، فأبرهة لما ساق جيشه لهدم الكعبة على ما لها من قداسة عند العرب وقتها، استهان بذلك، واختار جلب الفيل كعامل من عوامل ضمان نجاح عمله وسعيه، لكن الله خيب أمله، وهكذا يؤمل أن يجازى المستعمرون والمتغطرسون بجزاء مشابه لجزاء أبرهة، ومن دلالات قصة الفيل على اليقين بالله تعالى وقدرته، ما كان من رد عبد المطلب جد النبي، صلى الله عليه وسلم، على أبرهة، حيث طالب بإبله المسلوبة؛ لأنه صاحبها، أما البيت فله رب يحميه، وكان مصيباً فيما اعتقد، إذ إن الله تعالى نصر بيته الحرام، وأزهق الباطل، وسحق الفيل وصاحبه، واليقين مصطلح يطلق على الإيمان الجازم القاطع بحقيقة شيء معين، ولليقين شواهد قرآنية

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه.
2. صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب العين الجارية في المنام.

تحث عليه، وتبين أهميته، وتبرز مواقف اكتسبت القوة منه، والقرآن الكريم ورد فيه ذكر اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، في سياق ست آيات قرآنية، فذكر اليقين مفرداً مستقلاً، دون إضافة للفظ آخر في آيتين، إحداهما في سورة الحجر، والأخرى في المدثر، فقال تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[1]، وقال تعالى{حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}[2]، والمراد باليقين في هاتين الآيتين هو الموت.

وجه وصف الموت باليقين:

يؤيد الحديث الشريف المثبت في صدر هذه الحلقة، تفسير اليقين في آيتي الحجر والمدثر، بأنه الموت، ووجه هذا التفسير أن الإنسان بعد الموت، تتبين له حقائق الهدى والضلال [3]، وقيل: إن الموت سمي باليقين؛ لأنه أمر متيقن.[4]

فوصف الموت باليقين؛ لأنه متيقن اللحوق بكل حي مخلوق، وإسناد الإتيان إليه للإيذان بأنه متوجه إلى الحي، طالب للوصول إليه.[5]

ويرى بعض العلماء أن اليقين ليس من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين، لا يمتري فيه عاقل، فسماه هنا يقيناً تجوزاً، أي يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه، وهذه الغاية معناها مدة حياتك، ويحتمل أن يكون المعنى حتى يأتيك اليقين في النصر الذي وعدته.[6]

ويرى صاحب المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أن اليقين في قوله تعالى: {حَتَّى أَتَانَا اليَقِينُ}[7] ، معناه صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة، وما قاله المفسرون عن اليقين بأنه الموت، هو عنده متعقب؛ لأن نفس الموت

1. الحجر:99.
2. المدثر:47.
3. أضواء البيان، 6/ 349.
4. التفسير الكبير، 19 /171.
5. تفسير أبي السعود، 5/ 93.
6. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 3 /376.
7. المدثر:47.

يقين عند الكافر، وهو حي، فإنما اليقين الذي عنوا في هذه الآية الشيء، الذي كانوا يكذبون به، وهم أحياء في الدنيا، فتيقنوه بعد الموت.[1]

إضافة اليقين إلى الحق في القرآن الكريم:

إضافة إلى ورود ذكر اليقين مفرداً دون إضافة، في آيتي الحجر والمدثر، وورد ذكره مضافاً إلى الحق مرتين في القرآن الكريم، إحداهما في سورة الواقعة، والثانية في الحاقة، فقال تعالى:{إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[2]، وقوله سبحانه: {وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِينِ}[3]

الإشارة في قوله تعالى:{إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[4]، إلى ما تضمنته هذه السورة ـ الواقعة ـ من أحوال الخلق في الآخرة، وحق اليقين معناه الثابت من اليقين.[5]

وبالنسبة إلى اليقين في قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ}[6]، معناه أنه حق يقين؛ أي حق لا بطلان فيه، ويقين لا ريب فيه، ثم أضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد.[7]

ونقل عن الكوفيين أن هذا من إضافة الشيء إلى نفسه، كقول: مسجد الجامع، وقال الزمخشري: المعنى عين اليقين، ومحض اليقين، وقال ابن عطية: ذهب الحذَّاق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من وجوهه. [8]

آملين التمكن من متابعة الحديث عن اليقين، حسب ذكره في القرآن الكريم، في إطار الحديث عن مزيد من أبعاد قصة الفيل ودلالاتها، الذي ولد في عامه الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 5 /399.
2. الواقعة:95.
3. الحاقة:51.
4. الواقعة:95.
5. التسهيل لعلوم التنزيل، 4 /94.
6. الحاقة:51.
7. التفسير الكبير، 30 /106.
8. التسهيل لعلوم التنزيل، 4 /145.

من شواهد يقين النبي، صلى الله عليه وسلم، ثقته العالية جداً بنصر الله، فلما كان وصاحبه في الغار طمأنه من منطلق اليقين بأن الله معهما، حسب ما جاء عن أبي بَكْرٍ، رضي الله عنه، قال: (كنت مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في الْغَارِ، فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ، قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، لو أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رآنَا، قال: ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا) [1]

تعرضت الحلقة السابقة إلى بيان وجه وصف الموت باليقين، حيث تبين للإنسان بعد موته حقائق الهدى والضلال، وبينت أن اليقين أضيف إلى الحق في القرآن الكريم في آيتين، إحداهما في سورة الواقعة، والثانية في الحاقة، ومعناه فيهما أنه حق يقين؛ أي حق لا بطلان فيه، ويقين لا ريب فيه، وقبل الحديث عن جانب اليقين المتضمن في الحديث أعلاه، نسترسل في الوقوف عند ما بقي من مواضع ذكر اليقين في القرآن، التي ذكر فيها مضافاً إلى كل من العلم والعين.

إضافة اليقين إلى كل من العلم والعين في القرآن الكريم:

اليقين عند بعض العلماء ثلاث درجات، هي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وحق اليقين هو منتهى العلم.[2]

ومراتب العلم الثلاث على اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين؛ فالعلم ما كان عن دلائل، وعين اليقين ما كان عن مشاهدة، وحق اليقين ما كان عن ملابسة ومخالطة، كما يحصل

1.صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة براءة، باب قوله: {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} التوبة: 40).
2. أضواء البيان:8/ 263

العلم بالكعبة وجهتها، فهو علم اليقين، فإذا رآها فهو عين اليقين بوجودها، فإذا دخلها، وكان في جوفها، فهو حق اليقين، بوجودها، والله تعالى أعلم.[1]

ورد ذكر اليقين مضافاً مرة إلى العلم، وأخرى إلى العين في سورة التكاثر نفسها، فقال تعالى: {كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}[2]، وقال تعالى:{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[3].

ومعنى علم اليقين العلم الذي لا يشك فيه، قال بعضهم: هو من إضافة الشيء إلى نفسه، كقولك دار الآخرة، وقال الزمخشري: معناه علم الأمور التي تتيقنونها بالمشاهدة.

{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[4]، هذا تأكيد للرؤية المتقدمة، وعطفه بثم للتهويل والتفخيم، والعين هنا من قولك عين الشيء نفسه وذاته، أي لترونها الرؤية التي هي نفس اليقين.[5]

ويرى الرازي أن في قوله تعالى: {عِلْمَ الْيَقِينِ} وجهين، أحدهما: معناه علم يقين، فأضيف الموصوف إلى الصفة، كقوله تعالى: {وَلَدَارُ الآخِرَةِ} وكما يقال مسجد الجامع، وعام الأول. والثاني: أن اليقين هاهنا هو الموت والبعث والقيامة، ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين، وزال الشك، فالمعنى لو تعلمون علم الموت، وما يلقى الإنسان معه، وبعده، في القبر وفي الآخرة، لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله، وقد يقول الإنسان أنا أعلم علم كذا أي أتحققه، وفلان يعلم علم الطب، وعلم الحساب؛ لأن العلوم أنواع، فيصلح لذلك أن يقال: علمت علم كذا.[6]

اليقين بأن الله معنا:

عبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديث صاحبه أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، المذكور أعلاه عن يقينه بنصر الله له ولدينه، حيث قال لصاحبه: (ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله

1.أضواء البيان: 9 /83.
2. التكاثر:5.
3. التكاثر:7.
4. التكاثر:7.
5. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 216.
6. التفسير الكبير: 32 /76.

ثَالِثُهُمَا) ويخبر الله جل في علاه عن هذا الموقف الإيماني العظيم، فيقول عز وجل:{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(1)(2)

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، عبر في تلك الحادثة التاريخية عن عمق يقينه، وتأكده من نصر الله له، رغم عظم الكيد المحاك ضده، فقوله لصاحبه: (ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهِ ثَالِثُهُمَا) يعني أنه مطمئن وواثق بأن الله سيحميهما، فكون الله ثالثهما يغنيهما عن أي قوة مساندة، لأن من كان الله معه كفاه، والآية القرآنية التي وثقت خبر هذه الحادثة ذكرت عبارة منسوبة إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، تفصح عما يختزنه قلب النبي، صلى الله عليه وسلم، من يقين بالله، فقال لصاحبه:{لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا}، فالذي يتوكل على الله، ويثق بقدرته سبحانه على نصره وعونه، ما دام يلتزم الحق منهجاً، والعمل المخلص لله سبيلاً، فلا يعتريه خوف على شيء سيفقده، وعلى حياة أمر بقائها وزوالها مسند إلى الله تبارك وتعالى، من هنا كانت الطمأنة للصاحب بأن لا يحزن، وينسجم هذا الموقف النابع من اليقين بالله مع موقف عبد المطلب، لما قال: للبيت رب يحميه، وينسجم كذلك مع المواقف الإيمانية جميعها، التي عبر فيها الأقدمون والمعاصرون عن ثقتهم بالله تعالى، والتي نرجو أن ييسر الله تعالى متابعة الوقوف عند نماذج منها في الحلقة القادمة، في إطار الحديث عن مزيد من أبعاد قصة الفيل ودلالاتها، الذي ولد في عامه الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين وأزواجه أجمعين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التوبة:40.
2. التفسير الكبير: 2 /189.

الرسول الأسوة محمد ﷺ

ولد في عام الفيل/ الحلقة الخامسة والأخيرة

عن خَبَّابِ بن الأَرَتّ قال: (شَكَوْنَا إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا؟ ألا تَدْعُو اللَّهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللَّهَ، أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)[1]

تابعت الحلقة السابقة الوقوف عند إضافة اليقين إلى كل من العلم والعين في القرآن الكريم، وعرجت على شاهد من سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، يدل على عمق اليقين بالله، من خلال قوله عليه الصلاة والسلام، لصاحبه أبي بكر وهما في الغار، خلال رحلة هجرتهما من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وأعداؤهما من كفار قريش يطاردونهما، حيث قال له: (ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا)، ونزل في ذلك قرآن يتلى، فقال جل شأنه: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا...}[2]، وأشارت الحلقة إلى انسجام هذا الموقف النابع من اليقين بالله ، مع موقف عبد المطلب، لما قال: للبيت رب يحميه.

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. التوبة:40.

موقف يقين:

الحديث النبوي الشريف أعلاه شاهد كذلك على عمق يقين النبي، صلى الله عليه وسلم، بالله وثقته بنصره، حيث نطق به لصحابته في ظروف صعبة، ومحنة شديدة، كانوا يتجرعون آلامها، بدليل أنهم جاؤوه شاكين الحال، مستشفعين بدعاء الله أن ينصرهم، فكان اليقين في رده صلى الله عليه وسلم، متجلياً، فبعد سماعه شكواهم، ضرب لهم مثلاً غاية في الوضوح على شدة معاناة السالفين من قسوة الابتلاء، وصعوبة المحن، وما ردهم ذلك كله القهقرى عن عقيدتهم ومبادئهم وثوابتهم، ثم انتقل إلى القسم بالله العظيم، أن الله ناصر دينه لا محالة، رغم ما هم فيه من بلاء، بل ذهب بهم بعيداً في الدلالة على ثقته بنصر الله لهم، حين ربط قسمه على نصرهم، المؤكد بذكر ثمرة من ثمار هذا النصر الذي سيكون، حيث بين لهم أن الأمن والأمان سيعمان الخلق في ظل نصر الله لهم، حتى إن المسافر بين بقاع الأرض سيسير دون خوف ولا وجل، إلا من الله والذئب على غنمه.

الثقة بنصر الله للقدس والمسجد الأقصى المبارك والمرابطين فيهما:

الحديث عن اليقين بالله جل شأنه، الذي تم استذكار بعض جوانبه بمناسبة الحديث عن أبعاد قصة الفيل ودلالاتها، الذي ولد في عامه الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، يستحث القارئ على التدبر في مغازيه، وأبعاده، ودلالاته، خاصة عند ربطه بما يحل بالمسلمين اليوم من عداء محكم، وتكالب الأمم عليهم، ووضع مسرى نبيهم، عليه الصلاة والسلام، وقبلتهم الأولى في بؤرة الاستهداف الظالم الآثم، فالقاسم مشترك بين أهداف أبرهة الأمس، وأعداء اليوم، إذ المقصود إطفاء نور الله، وهدم مساجده العظيمة، واستهدافها بالتدنيس والخراب ومحو الوجود، والمؤمن الذي يعاني من

شر هذا الجحيم على يقين مؤكد، بأن الله لن يدع الظالم وشأنه، بل سيأخذه أخذ عزيز مقتدر، كما أخذ أبرهة من قبله، مصداقاً لقوله تعالى:{...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}(*)، والمؤمنون من أهل القدس وأكنافها، المرابطون فيها، وفي مسجدها الأقصى المبارك، لا يساورهم أدنى شك بأن الله ناصرهم وإياهما ولو بعد حين، وما ذلك على الله بعزيز، وإيمانهم بهذه الحقيقة الإيمانية منغرس في أعماق قلوبهم، لا يزعزعه تعاظم البطش بهم، وترسانة عدوهم، وخذلان من وجب عليهم نصرهم، وتساقط بعضهم في مخازي التجرؤ على تسهيل تمليك عقارات القدس أو بعضها للمتربصين بهم وبقدسهم الشر، فهؤلاء ليسوا قدوتهم، وإنما أسوتهم الذين انحازوا إلى فسطاط العز والإباء، ممن لو قدم لهم مال الثقلين، ليبيعوا شبراً من أرض القدس، أو غيرها من أرض فلسطين لأعدائها، لما قبلوا بالدنيا وزينتها ثمناً لذرة من تراب أرضهم، التي باركها الله، وجعلها قبلة للعابدين، ومحط أنظار المؤمنين، ومهوى أفئدة المسلمين الذين يتطلعون إلى تحرير قدسهم، ومسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، من أيدي الغاصبين الظالمين، فالأمل عليهم معقود، لأنهم آمنوا بربهم بيقين، لا يزعزعه ريب، أو بطش، أو إغراء، يقينهم بأن الله عليهم رقيب، وأنه لن يضيعهم وقدسهم ومسجدهم الأقصى، كما لم يضيع بيته الحرام من قبل.

سائلين الله العلي القدير أن ينتصر لمسجده الأقصى المبارك، كما انتصر لبيته الحرام والكعبة المشرفة في مكة المكرمة، وأن يرد الكيد عنهما كما رد كيد أبرهة، وأن ينتقم لهما ممن يقصدهما بسوء، كما انتقم من أصحاب الفيل، الذين جعل كيدهم في تضليل، فجعلهم كعصف مأكول، في عام الفيل، الذي ولد فيه الرسول الأكرم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

* الشعراء:227.

الفهرس

الفصل الأول/ إيمان وعقيدة
الرسول الأسوة، محمد صلى الله عليه وسلم

.1	نهاه الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق/ الحلقة الأولى	7
.2	نهاه الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق/ الحلقة الثانية	12
.3	نهاه الله عن الحزن على مسارعة بعض الناس في الانحراف عن جادة الحق/ الحلقة الثالثة والأخيرة	17
.4	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الأولى	22
.5	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الثانية	27
.6	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الثالثة	32
.7	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الرابعة	37
.8	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟ أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة الخامسة	42
.9	لما سأل والمؤمنون متى نصر الله؟أجابهم سبحانه بأنه قريب/ الحلقة السادسة والأخيرة	47
.10	لن تهلك أمته بسنة ولا قحط	52
.11	أخبر أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد أو وفاته/ الحلقة الأولى	55
.12	أخبر أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد أو وفاته/ الحلقة الثانية والأخيرة	58
.13	طمأنه ربه عز وجل إلى عطائه وإحسانه	61
.14	وَعْدُهُ بانتصار الإسلام حقٌّ، ووعْدُ بلفور باطل ومشؤوم/ الحلقة الأولى	64
.15	وَعْدُهُ بانتصار الإسلام حقٌّ، ووعْدُ بلفور باطل ومشؤوم/ الحلقة الثانية والأخيرة	68
.16	إسراؤه إلى المسجد الأقصى المبارك رسخ الارتباط العقائدي للمسلمين به	71
.17	يربط قلوب مسلمي العالم وعقيدتهم وعبادتهم وتاريخهم وتراثهم بالمسجد الأقصى المبارك/ الحلقة الأولى	76
.18	يربط قلوب مسلمي العالم وعقيدتهم وعبادتهم وتاريخهم وتراثهم بالمسجد الأقصى المبارك/ الحلقة الثانية والأخيرة	81

الفصل الثاني/عبادات
الرسول الأسوة، محمد صلى الله عليه وسلم

.1	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الأولى	87
.2	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الثانية	92
.3	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الثالثة	97
.4	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الرابعة	102
.5	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة الخامسة	107
.6	أمره الله بالاستعاذة من الشيطان/ الحلقة السادسة والأخيرة	112
.7	يحدث عن بدء الصيام وفرضه وفضله	117
.8	ينبه الصائمين والقائمين إلى أهمية العناية بالمقاصد والنوايا	122
.9	يحذر مما يضيع أجر الصيام وغيره من العبادات	127
.10	يعتكف في العشر الأواخر من رمضان ويحث على تحري ليلة القدر فيها	132
.11	هديه في العيد	137
.12	أولى الزمن عناية خاصة في الأضاحي	142
.13	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الأولى	145
.14	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الثانية	150
.15	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الثالثة	153
.16	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الرابعة	156
.17	يؤكد على أهمية أداء العبادة التطوعية/ الحلقة الخامسة والأخيرة	159
.18	كان إذا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ	162

الفصل الثالث/معاملات
الرسول الأسوة، محمد صلى الله عليه وسلم

.1	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الأولى	166
.2	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الثانية	170
.3	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الثالثة	173
.4	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الرابعة	176
.5	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة الخامسة	179
.6	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة السادسة	182
.7	حرص على تقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار والمسلمين من ورائهم/الحلقة السابعة والأخيرة	186
.8	وانتصاراته العسكرية في رمضان	190
.9	يأمر بفك قيد الأسرى	195
.10	يبين فضل حفظ استحقاقات العمال	200
.11	يحذر من الإشاعات الكاذبة والمغرضة	205

الفصل الرابع/سيرة نبوية
الرسول الأسوة، محمد صلى الله عليه وسلم

.1	ولد في عام الفيل/ الحلقة الأولى	211
.2	ولد في عام الفيل/ الحلقة الثانية	214
.3	ولد في عام الفيل/ الحلقة الثالثة	217
.4	ولد في عام الفيل/ الحلقة الرابعة	220
.5	ولد في عام الفيل/ الحلقة الخامسة والأخيرة	223